الله كم هو قريب !!

الجزء الثاني

د. محمد البكري

رواية سيرة ذاتية

رواية
سيرة
ذاتية

الله

كم

هو قريب!!

الجـــــزء الثانـــــى

رقم الإيداع
٢٠٠٠/١١٣٠٨

رؤية فنية للغلاف
ابن خلدون- القاهرة - الزيتون ت/ ٠٢٢٤٠٦٦٢٨

إهداء

إلى الودعاء والبسطاء

من أهل هذا الوادي

إلى من يحيون على حب الآخرين

إلى من كرسوا أنفسهم للخير

الذي يختنق في بلادنا

إلى من يعيشون فوق الأرض

وقلوبهم معلقة بالسماء

إلى من سيرثون الملكوت

أهدي هذا الكتاب

محمـــد البكـــري

مقدمـــة

أعرف أن مثلى لا يفوته شرف الشهادة من أجل الخـــير والحـــق والجمال .. من أجل أن تسود القيم التى بها تستمر الحياة على أرض هذا الوادى الذى يرتع فيه الأشرار ، ويتكاثرون بقدر ماتخبو القناديل المضيئة ، الواحد تلو الآخر !!

إننا نحيا الآن فى زمان يعلن فيه المجموع عـــن إفلاســه.. إذ لا يُمَكن خيرة أبنائه من حقوقهم، ولايُسيجُ حولهم .. مما يدفعهم للاحتمـــاء بعالم الفضيلة والقيم .. ليموتوا وهم قابضون على الشـــرف مـــع بقايـــا المقاومون حتى النهاية !!

وعلى الرغم من كل شىء .. أشعر فى أعماقى،أن الأيدى الملوثة بالدماء ، لن تنال منى قبل أن أتم الرسالة، التـــى أفضـــل أن أشـــعر أن السماء اختارتنى لها !!!

حينذاك.. ستكون ميتتى مشرفة !!

وسأبلغ يومها غاية السعادة !!

فقط أدعو الله .. ألا يمكن جماعة الشر من أولادى حتى يقطعوا اشواطهم على طريق تلك الرسالة.. التى يبدوا أنها قدرى وأولادى عن بعدى، كما كانت قدر أبى من قبل ، حين اغتالته الأيدى الآثمة ،وهو يحاول أن يكمل شوطه فى هذا " المارثون " الطويل .. وما أكثر ما يكون قدر الابن هو نفس قدر أبيه!! ياجماعة الشر ...

لاتشعروا بالحقد عليهم من الآن .. لما قد يصيرون عليه غداً !!

فالغد لم يأت بعد !!

أتقتلوهم لأن الدماء فى عروقهم غير قابلة للدنس الذى يملؤكم !!

أيها السادة الأشرار...

إن زمن التطهير العرقى قد ولى وأدبر ..

ولو عاد إلى الدنيا .. فلن يكون وادى النيل مسرحاً له!!

تلمست أقلامى فلم أجد غير هذا القلم بدرج مكتبى .. لون المداد الأحمر يذكرنى بدمائى التى تنزف ألماً وحسرةً من غباء البشر وقسوتهم، وتلك الرغبة المستعرة فى داخلهم لتدمير كل ماله قيمة !

أجد عنتا يصعب احتماله فى البقاء على أرض مصر، وهناك تلك القوة الغاشمة التى تحيا على آلامى وتترصد لى بالشر كل حين ؟!

وغداً ريما تمتد أظافرهم وأنيابهم إلــى أولادى وقبــل أن تشــتد سواعدهم !!

عن نفسى.. استطيع أن أقول أننى اعتدت وتدربت علــى كــل ألوان الظلم، وقد صرت مع طول السنين ، احتمل مالا يطيقه الآخرون .. أما أولادى فماذا هم فاعلون بعظامهم الغضة ، حين تحــاول عاصفــة الجهالة اقتلاعهم، وهم بعد عيدانا خضراء!!

حتى لو صلب عودهم وقويت عزيمتهم فــى غضــون ســنوات مقبلة.. فكيف سيتعاملون مع قوة الغشم والجهالة القادرة على اقتلاع أقوى أشجار الكافور من مواضعها !!

ماذا ستفعل أشجارى الأربعة .. مهما كانت صفاتهم الموروثــة، ومهما غرست فيهم ، أمام إعصار صار الآن يحرق ما لايقتلع!!

سبق لى أن نجوت، دون فضل منى .. وكان الدعم يأتينى من السماء !!

ترى .. هل ستؤازرهم السماء .. كما آزرت من قبل أباهم !!

كم أود استكمال مذكراتى .. فربما لم يعد هناك الكثــير لأحيــاة فى تلك الدنيا!!

تقديـــم

تذكرت الآن شيئا أضحكنى ، وحدثت فيـه زوجتى ليلة أمس .. قلت لها أننى ومنذ نحـو عشر سنوات مضت، عـام الـف وتسـعمائة وثمانية وثمانون ، وقبل زواجى منها ببضعـة أشهر ..أعددت كتابى الذى أسميته " الرحلـة الشاقة " .. وكان موضوعـه عـن العلاقـات العربية الإسرائيلية .. ماضيها .. ومستقبلها..

واستطردت أحدث زوجتى ..

: كتابى هذا لم ينشر بعد ، وأكثر مـايعنينى فيه الآن هو ماحدثنى فيه أحد أصدقائى .

فردت وهى تبتسم

: فى حدود معلوماتى.. أنت حريص علـى ألا يكون لك أصدقاء ، وقـد اكتفيـت بـإخوتك واعتبرتهم كل الدنيا .

لاأقصد صديقا بالمعنى الدقيق ، ولكنه مثل الآخرين ، ممن أتحاور معهم وأطلق عليهم هذا اللفظ للتسهيل.

: المهم يازوجى العزيز .. من هو سعيد الحظ الذى سيدخل السجن بسببك عما قريب؟

: " محمد مندور"

: أليس هو شقيق الصحفية التى تخرجت من كلية الإعلام وتعمل مراسل عسكرى فى الجيش؟

: ومن أين لك بكل هذه المعلومات!

: أنت مصدر معلوماتى الوحيد فى هذه الدنيا ، وقلت لى أيضا أن أخاها يفتخر أمامك دوما، بأنه ضمن العاملين بالمخابرات العسكرية .

****

والحقيقة أن " محمد مندور " كان قد أمضى فترة تجنيده بالقوات المسلحة ضمن سلاح المخابرات ، وما يزال محتفظا بعلاقات وثيقة بكثير من ضباطة، ويُسمح له ببعض الصلاحيات التى يجامل بها الآخرين ، والأرجح أنه بعد انتهاء خدمته ظل يعمل من منازلهم ضمن هذا الجهاز.

قلت لزوجتى ..

: لك ذاكرة يحسدك عليها أمثالى !

: المهم .. ماذا دار بينكما ؟

: جاءنى محمد وهو يضحك ويقول لى ..

"لو تحققت النبوءة الثالثة فسأرسل لكل الجهات المسئولة لكى يلقون القبض عليك!"

: بتهمة آية ؟

: التهم كثيرة .. أقلها أنك تتنكر وتخفى عن الناس أنك " نبى " مرسل من السماء.

وبادلته مزحته وأنا أقول له وفى ذهنى الرتب العسكرية ..

: تقصد "نبى" متقاعد بدرجة لواء.

وضحك محمد وهو يقول لى ..

: ألا تذكر نبوءاتك الثلاثة فى الورق الذى أطلعتنى عليه.. أصول كتاب "الرحلة الشاقة " ؟

: فاكر طبعا ..

: لقد قلت أن هناك حربا كبيرة ستقوم بالمنطقة بعد عامين، وأن مصر ستكون طرفا فيها.. وبعد عامين وفى شهر أغسطس سنة (١٩٩٠)

قامت الحرب بين العراق والكويت لتنضم الدنيا كلها إلى هذه الحرب ، وكانت مصر بطبيعة الحال واحدة من الدول المشتركة .

: أذكر هذا وأذكر أيضا أنني تحدثت في أحد فصول هذا الكتاب عن قوة إسرائيل النووية محاولا تقييمها.. مستقيا معلوماتي من خلال بعض المقالات، والكتب العربية، سواء كانت لباحثين عرب، أو مترجمة عن باحثين أجانب .. وحين هرب أحد علماء الذرة الإسرائيليين إلى لندن، بعد ذلك بأقل من عام وأذاع أسرار عسكرية تتعلق بقوة إسرائيل النووية قبل أن يعيده " الموساد" إلى بلادة مخطوفا .. جاءت تلك المعلومات مطابقة تقريبا لما ورد بالكتاب ..

وبادرني محمد مندور قائلا ..

: الذي جاء بي الآن هو النبؤءه الثالثة ... لقد قلت في تلك الأوراق أن هناك حربا أخرى ستقوم بعد عشر سنوات، وفي شهر نوفمبر سنة ١٩٩٨م ، وكنت دائم الحديث عن تلك الحرب خلال العام الماضي ، وقلت أيضا أن الحرب ستشمل مصر وإسرائيل، ومرت السنين، وهاهي تركيا تتحالف مع إسرائيل وتحشد قواتها، وتهدد بضرب سوريا، وقد تشتعل المنطقة كلها فجأه وبلا مقدمات !

كان محمد يجلس أمامى ، وفجأه وبعد أن أنهى كلماتـــه، رأيتـه يستدير ليضرب رأسه بالحائط وهو يقول ..

: النبوءه الثالثه سوف تتحقق يادكتور محمد .. والنبى قـــل لـــى مـاذا سيحدث فيها !!

قلت له مداعبا ..

: لا .. أنا حدودى حتى هنا فقط .. التفاصيل تلاقيها عند الشيخة " أمال " فى مشتهر .

وعاد محمد يقول..

:بصراحة.. إنت مع أى جهاز مخابرات.

وضحكت وأنا أقول له ..

: تفتكر إنه فى قدرة أجهزة المخابرات التنبؤ بحرب قبل قيامـــها بعشـــر سنين ؟!

: طيب فهمنى !!

: ابداً .. ببساطه شديدة مجرد إحساس.. أو استشعار عن بعد فـــى قلـــب الزمن، مع استقراءات على توقعات.. ثم جاءت الصدفة لتكمل الشغلانة، وصحت الحكاية وبقيت أنا الشيخ "محمد".. العارف بـــالنجوم والفلـــك ،

والمتحدث الرسمى باسم المستقبل ..

: لا ..أبدا .. الحكاية ليست بهذه البساطة .. الحكاية أخطر من كدة !!

: شوف " ياحمام ": الحكاية لا هى خطيرة ولاحاجة .. إنت عارف إن الحركة الصهيونية انطلقت من برنامج " بازل " تحت زعامة "تيودور هرتزل" ،الذى قال عن هذا المؤتمر.. " **لو أردت أن أختصر – مؤتمر بازل" فى كلمة واحدة ، وهذا مالن أجاهر به صراحة ، لقلت أنه فى بازل– أسست الدولة الصهيونية، ولو قلت ذلك اليوم لقابلنى العالم بالسخرية والضحك ، ولكن بعد خمس سنوات على وجه الاحتمال ، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد.. سيرى هذه الدولة جميع الناس ".**

وأنت تعلم " ياحمام" أن هذا المؤتمر كان عام(١٨٩٨م) وبالفعل بعد خمسين عاما بالتمام والكمال ، وسنه (١٩٤٨م) قامت دولة إسرائيل ، وسرى فى نفسى اعتقاد بأن إسرائيل ستقوم بعد خمسين سنه أخرى وهى تحيا ذكرى مرور –مائة عام –على " مؤتمر بازل" ستفكر بعمل يلتيق من وجهة نظرهم بتلك المناسبة، وأنهم ربما شنوا هجوما مباغتا على سوريا لإجهاضها عسكريا، خصوصا وأن سوريا تمتلك من القوة العسكرية ما يُقلق إسرائيل.. ربما صح هذا الظن.. وربما أخطأ .. فأنا بدأت من

فرضية بسيطه كما ترى .. والبداية ربما كانت منطقية، وليس بالضرورة مع ذلك أن تؤدى إلى نتائج حتمية..إنت عارف طبعا إنى مضيت ليلة سوداء - وصفتها فى كتابى - بمباحث أمن الدولة.. وعلى إثر تلك الليلة لم أحاول أن أطيل فى البحث ليشمل الكثير، وأنهيته على عجل لأرسل صورة من المسودة لرياسة الجمهورية، متضمنة شكوى من ضباط مباحث أمن الدولة، وجاءت الصورة النهائية التى كتبتها بعد ذلك ببضعة أشهر فى مدينة "بريدة" بالمملكة العربية السعودية، لا تضيف شيئا ولاتختلف فى مضمونها الفكرى عن المسودة .. ولو كان للكتاب أهمية فيما سيحدث، فهناك نسخة عند أكبر رأس فى البلد ومن زمان ..وعلى فكرة يا "محمد ".. أنا لا أعتبر هذا الكتاب عمل فوق العادة .. وكل ماله من أهمية أو خصوصية جاء بحكم الولادة من حيث الزمان والمكان والأحداث المحيطة .

****

أخذ " محمد" شهيقاً عميقا لتخرج كلماته بعد ذلك مع نسمات زفيره وهو يقول ..

: فاكر قبل محاولة اغتيال " حسنى مبارك" فى "أديس بابا" بثلاثة أشهر ..

لما دعوتك لزيارة المقدم/ عماد بوزارة الدفاع ؟

:فاكر طبعا.. وفاكر هذا اللواء الذى أتى ليشاركنا جزءاً من الجلسة ، وبعد إنصرافه أكمل معنا هذا اللقاء لواء آخر .. هذا الذى وصفته أنت بأنه أهم لواء فى المخابرات العسكرية .

: يمكن من حيث المنصب .. لكن المقدم/ عماد أذكى وأهم من وزير الدفاع نفسه!

: خلى بالك ... الحب الزايد والتحيز لشخص معين ممكن يخلى حكمك غير موضوعى .

: المهم يادكتور " محمد ".. يومها إنت سألت المقدم عماد عن مدى درجة الأمان فى إجراءات حماية " الريس " .

: وردة أنا فاكره ، وكأنه تحدث به من ساعة فقط.. قال لى يومها.. أنه لو كلف بتأمين قاعة سيحضر بها الرئيس اجتماعا ما.. فنسبة نجاح أى محاولة اغتيال لن تتعدى الصفر .. وروى لى حكاية الرجل الصعيدى الذى قُبض عليه وهو ينام فى سيارة أجره بميدان العباسية، وكان يحمل مسدساً داخل " صديرى " أسفل الثوب الذى يرتديه، وكان هذا الموقع هو الخط الثالث من خطوط تأمين الرئيس، وكان مقررا أن يشارك الرئيس

فى إحدى المناسبات بمدينة نصر ، وعلمت يومها أن هذا الخـــط يســبقه خطان، واحد عند ميدان رمسيس، والآخر على مشارف القـــاهرة عنـــد شبرا الخيمة،هذا بخلاف موقعان آخران يسبقان الموقع الذى سيجلس به ، والذى يتم تأمينه بوسائل أخرى، من قِبل حرس الرئيس الخاص.

وبادر." محمد مندور " يقول ..

: يومها إنت قلت للمقدم / عماد بالحرف " **إذا كانت الأمور ماشيه كـدة هتتنقل محاولات الاغتيال خارج الحدود** "!

: ياصديقى أنا لا أنسى ما أقول.. ولكن ما الفائدة .. لم يهتم أحـــد بمـــا قلت، وكاد الرجل يلقى حتفه فى أثيوبيا !!

: ومن قال لك أن كلامك لم يؤخذ بمنتهى الجدية !

: تفتكر ؟

: تفتكر إنت آيه ؟!

: أفتكر إننا بحاجة إلى كوب من الشاى !

: لا يا دكتور محمد.. قهوة " مظبوط" وأنا من سيعدها بنفسه .. وإن كان لى سؤال أخير ..

: تفضل ..

: آيه حكاية النبوءات دى بالظبط.. ومن الأخر ؟!

: ياسيد " محمد " .. الأصل فى كل هذا أنى كاتب.. أو هكذا أدعـــى .. ساعات أكتب مسرحية أو رواية أو قصـــة قصـــيرة أو حتـــى التحليـــل السياسى.. وأنا أدعى أن كل أنواع الكتابة لها روح واحدة، والكاتب الذى لا يملك نبوءة.. أفضل له يشوف شغلانة ثانية.. والنبوءة ليست ضــــرب ودع واستطلاع نجوم .. النبوءة فى الأدب لها مفهوم خاص، واعتقد أنها جزء أساسى من عمل الكاتب المجيد، والنبوءة لاتعنى بالتحديد الخـــوض فى أحداث مستقبلية لإطلاع الناس عليها.. فالغد علمه عند علاّم الغيوب.. النبوءة رؤية ذاتية مخلوطة بأحاسيس روحيـــة يتداخـــل فيـــها العقـــل والوجدان.. وسالف الأيام مجال لها، كما هو الحال مع مـــاقد يـــأتى بـــه المستقبل .

: من فضلك وضح لى الصورة ؟!

قالها بنفس النغمة التى ورد بها السؤال فى مقدمة الفوازير.. وأجبته..

:الرد من مقدمة الفوازير ، كما استعرت أنت نغمة صيغة السؤال منـها.. سأوضح لك وأرجو ألاّ تفهم بالتقسيط .

ضحك محمد وهو يمسح مقدمة جبهته بكف يدة من عباره الفـــهم

بالتقسيط وتابعت أنا حديثي قائلا ..

: حينما كتبت مسرحية " مابعد الصعود " وهي مسرحية تاريخية عن فترة رائعة من تاريخ مصر، وفي أواخر الأسره الثامنة عشر..حين قام "إخناتون" يدعو الدنيا إلى الإله الواحد الذى رمز إليه بالشمس..لفتتني عظمة هذا الرجل ولفتني أكثر حادث اغتياله ثم اغتيال ابنه " سمنح كارع" ومن بعده ابنه "توت عنخ آمون " ثم زوجته " نفرتيتي " ..وبدأت أشك أن وراء كل تلك الاغتيالات رجل واحد ، ودارت شكوكي حول " آى " .. مستشار إخناتون وحافظ أسراره.. هذا الذى وصل للحكم رغم أنه من دماء غير ملكية- بزواجه من الملكة " إن -با- آتون".. أرملة "توت عنخ آمون".. وبعد أكثر من عشر سنوات من تسجيلي لمسرحيتي ، نشر باحث إنجليزى نتيجة أبحاثه التي استمرت ثلاثون عاما على نفس الأسرة، ووصل إلى نفس النتائج التي وردت ضمن أحداث مسرحيتي-

الحكاية بالنسبة لي كانت مسرحية كتبتها في بضع أيام ،ومهدت للكلام عنها بقراءة بعض الكتب عن تلك الأسرة وعلى مدى شهر واحد، والباقي كله كان شغل خيال أو "نبوءة "..

لم أكن بحاجة إلى تصوير المومياوات كما فعل الباحث الإنجليزى،

ولم أقرأ آلاف الصفحات وأقارن كل المعلومات، وأسجل ملاحظاتي على " ديسكات " الكومبيوتر " ..لقد قفزت فوق كل هذا بالإلهام.. أو سمه أنت الخيال ، وقد يسميه البعض " نبوءة" خاصة بالماضي المُبْهم .. كانت تلك هي وسيلتي وأنا أحقق في جريمة قتل وقعت منذ نحو خمسة آلاف عام .

: معنى هذا أنك تحل ألغاز جرائم وقعت قبل الميلاد، وتصف أحداث ستقع في المستقبل .. وهذا يستدعي قرار سيادي بالقبض عليك وحبسك للاستفادة من قدراتك الروحية .

: كتر خيرك يا " محمد" .. عملت بأصلك .. طبعا تربية المقدم "عماد" أخطر رجل في المخابرات العسكرية!!

: من فضلك .. إوعى تخوض في الذات الملكية !

: قلبك أبيض .. الطيب أحسن.. وربنا يكفينا شركم !

: تعرف يادكتور "محمد" .. إنت مؤكد لا تعرف القلق على مستوى حياتك الشخصية !!

: والسبب ؟!

: لأنك أكيد عارف ما سيحدث لك في المستقبل، وتستطيع أن تتفادى أي شر .

: الخير والشر قدر من عند ربنا ، ولا نملك حيلة أمامة ، والحـذر يـا صديقى لا يمنع القدر .

: يعنى أنت لا تعرف ماذا سيحدث لك؟

: والله إنت أدرى " مش إنتم الحكومة".. وعموما اطمئنوا تماما.. فقريبـا سوف يتوقف قلمى عن الكتابة ،وإن كنت لاتعلم فالحق أقول لـك.. إن نهايتى أقرب مما تتصور ، والتأخير حتى هذه اللحظة كان بسبب إصرار إلهى على أن تستمر حياتى، وطاشت من حولى سهام كثيرة ، أكثر ممـا تتصور !!

: ياسيدى .. ياسيدى .. حماية آلهية !!

: وجعت دماغى ياأخى .. قوم إعمل القهوة .

****

وقام محمد وتركنى أمدد ساقى على "الكرسى" الذى أمامى وأنـا أفكر فى أشياء كثيرة ..

ترى .. هل إحساسى بدنو النهاية يمكن أن يَصدُق !!

ماذا لو تحققت نبوءتى فيما يتعلق بحياتى !

هل سيلاحقنى دوما هاجس الموت هذا !!

أليس هناك شكلاً أجمل للحياة يمكن أن يطاردنى بعض الوقت، حاملا فى يدة باقات الورود !!

لو كانت النبوءة خليط من العقل والإحساس فهى فى حالتى تلك خليط من العقل والتوجس ..

اللعنة على كل الأشياء !!

أنا لا أملك الوقت لتتبع جذور هذا الهاجس القذر ... كنت أظن وأنا أكتب الجزء الأول من مذكراتى منذ أكثر من ربع قرن مضى، أن فترة تجنيدى بالقوات المسلحة هى السبب الرئيسى وراءة.. ولكن ما باله اليوم وبعد كل تلك السنين.. كيف قاومت تلك الجرثومة عوامل الفناء كل هذا الوقت!!

أتكون هناك أسباب أخرى أتت لتوقظ النائم وتضيف إليه؟!

من المؤكد أننى سأصل إليها وأنا أكتب الجزء الثانى من مذكراتى ..

ومن يدرى .. ربما أكون مفرطا فى الخوف على حياتى، وبالتأكيد سيكون هذا الخوف، من عوامل الشوشرة والتشويش على الإحساس، الذى هو الشق الثانى اللازم لاكتمال نضج النبوءة بشكل طبيعى، وعلى هذا فقد تصدق نبوءتى فيما يتعلق بالآخرين.. أفرادا كانوا أو مجتمعات،

وهذا لايحتم بالضرورة صدقها فيما يتعلق بحياتى أنا، بل النقيض هو الأكثر احتمالا!!

والمسألة ببساطة شديدة أننى إذا اعتبرت النبوءة فعل عقل، عَظُمَ من فعاليات الإحساس، فأنا فى حالتى فقدت شرطا من شروط إتمام المعادلة لتكون النتائج صحيحة، حيث دخل التوجس بدلا عن الإحساس ليفسد عمل العقل، ولو كتبت المعادلتان بشكل رياضى فستكون الأولى هكذا

(عقل منظم + إحساس معافى = نبوءة صحيحة) . .

أما المعادلة الثانية فستكون.

(عقل منظم + توجس وخوف = نبوءة خاطئة)

وعموما صدق ما أتنبأ به حول نهايتى القريبة من عدمة متروك للقدر ..

ولو كانت النهاية قريبة ....فالأصل فى هذا أن يثير فى نفسى نوازع السعادة .. لأنه يعنى أن الله قد حقق بى ما خلقنى من أجله، وأن رسالتى فى الحياة بلغت مداها، ولم يعد أمامى ما أؤديه للإرادة العليا، التى يحق لها كل الجلال والتقديس والطاعة والرضا ، ولتذهب بشريتى الضعيفة إلى الجحيم !!

وعموما هناك منظور آخر لأحاسيسى بتلك الأيام ..

ألم أرسل الجزء الأول من سيرتى الذاتية إلى مكتب الكومبيوتر منذ فترة ..هذا العمل الطويل الذى سيأخذ بضعه أشهر حتى يكون جاهزا للنشر .. وكدأبى دوما يظل شبح الموت يحوم من حولى فى مثل تلك الأحوال وحتى يخرج الكتاب إلى النور، فيختفى هذا الشبح المعلق، ويكثف من هذا الشعور الآن، أننى بدأت بتلك الصفحات القليلة الماضية، كتابة الجزء الثانى من مذكراتى .

كنت قد توقفت فى أحداث الجزء الأول حتى عام (١٩٨٤م) وأريد الأن أن أتابع ماحدث حتى اليوم .

فى الجزء الأول أنهيت آخر كلماتى يوم(٨٤/١٠/٦ م) بمدينة طوخ، وبعدها قررت التوقف عن الكتابة لإحساسى بعدم جدوى أى شىء ، وأيضا لرغبتى فى الزواج والاستقرار الذى لايتفق والاستمرار فى الكتابة .. وها أنا أعود اليوم وفى(٩٨/١٠/٥م) وبعد أربعة عشر عاما إلا يوما واحدا..

ما أطول ماكانت أيام الصمت تلك !!

وما أجمل أن أعود أخيرا لأبدأ رحلتى مع القلم، الذى دخل الكهف لينام

مع أهله حتى ملّ منيم، وأفاق ليعود بكل وفاء وإخلاص .. عاد يرقص طربا وينفض غبار السنين..كما بات قلبى يتألم فى سعادة ، باحتواء تلك الانفعالات التى طال بعادها ، أيام صمت الحملان التى التهمت أجمل السنوات!.

ربما لو فتشت أوراقى فسأجد شزرات مكتوبة هنا وهناك .. وربما بعض اليوميات فى السعودية، وقد أجد قصصا قصيرة وأفكارا مدونة كنت أظن أنها تصلح لأن تكون مواضيعا أكتب عنها يوما ما،وقد أتعثر فى عناوين عنت لى فى لحظة، وتمنيت لو تكون عناوينا لأعمال سوف تأتى بظهر الغيب..

وبالطبع كل هذا لايرقى إلى أن يكون نشاطا أدبيا أو فكريا .. باستثناء كتابى عن العلاقات العربية الإسرائيلية الذى حمل اسم " الرحلة الشاقة " الذى تحدثت عنه فى بدء كلامى، وكنت أتخيل وأنا أغزل خيوطه الأولى أنه سيكون دراسة موسوعية عن علاقتنا بإسرائيل ، وتاريخ اليهود بالمنطقة عبر آلاف السنين ، كنت أريد أن أرصد كل الحروب منذ أيام "داوود" وحتى الآن ، كنت أرغب فى تحميله بتشوفات مستقبلية للسلام فوق الأرض التى أثخنتها الجراح..

هذا الكتاب الذى خرج إلى الحياة مبتسرا لأسباب عديدة أصابتنى بالغثيان، وتوقف قلمى عن الاستمرار، فى العمل، حائرة قلقة تكففت أن يمضى فى هذا الجهد المضنى من أجل من أشهروا سيوفهم فى وجهه لأسباب لا يعرفها، وحين أعيانى البحث عن الأسباب **لم أجد إلا تفسيرا** واحداً .. وهو أن أجهزة الأمن نفسها لم تكن تعرف **سببا لما أقدمت** عليه!!

****

مضى الآن نحو عامان منذ منتصف عام **(٩٧م) وحتى تلك** اللحظة- ونحن بأواخر عام (٩٨م) – أخرجت لى **المطابع خلالها أحد** عشر عملا أدبيا كانوا على الترتيب رواية " **أمل لايموت** " ثم المجموعة القصصية "**حين نفتقد اللغة**" ثم رواية "**جسر الموت الكئيب** " ثم "**المسرحيات الثمانية**" والتى أصدرت كل مسرحيتين **منها فى كتاب**، والآن وفى تلك اللحظات التى أمسك فيها بقلمى **لأكتب الجزء الثانى من** مذكراتى، تعمل الأيدى الدؤبة فى مكتب الكمبيوتر **لإعداد الجزء الأول** وتلك.. هى أصعب المراحل .. ورغم الجهد والمراجعات **لايصدر كتابا** بدون أخطاء.. وكيف لا وكل العاملات بالمكاتب يرسمون **الكلمات** دون

فهم لمعناها ، وما تصححه لهم فى المراجعة الأولى والثانية تكتشفه وأنت تقرأ الصورة النهائية،وحين تعدل فيها ما استطاعت عيناك أن تقع عليه ، تكتشف أخطاء أخرى فى كتابك، بعد أن يُطبع ويوزع بالأسواق ..

ورغم ما أشرت إليه من جهد، إلا أنه كما يقولون " فى الفاضى".. فالأولى بعرق الكاتب.. إبداعاته الجديدة ... أما أن يجرى وراء المطابع ومكاتب الكمبيوتر ويمقق عينه ويهلك عمودة الفقرى فوق أحد الكراسى المهترئة وهو يبحلق فى الشاشات بحثا عن خطأ لغوى أو إملائى أو إخراجى فى مئات الصفحات، فهذا عمل آخر، له من يجيدة أفضل من الكاتب نفسه ، ليوفر الكاتب جهده فى شىء جديد يقوله للناس!!

كل ماصدر لى من كتب حتى الآن ،كان من مخزون الكراتين التى تحتل ظهر الدولاب أو بطون الأسرّة ..وتلك هى المرة الأولى التى أمسك فيها بقلمى لأبذل جهداً فى "المليان" ... وأنا أخط الكلمات الأولى فى الجزء الثانى من سيرتى الذاتية .. الآن فقط أشعر بالسعادة التى أفتقدتها منذ نحو خمسة عشر عاماً !!

الخراب العام

قبل أن يمضى عام (١٩٨٤م) عدت من رحلة قصيرة لفرنسا ، لأستلم أول عمل لى مع شركات القطاع العام ، وكان الدكتور" سعد حلمى" رئيس قطاع الكيماويات وعضو مجلس الإدارة فى شركة الجمهورية لتجارة الأدوية والكيماويات والمستلزمات " ،هو سبيلى لدخول تلك الشركة التى تختص باستيراد، تقريبا كل الكيماويات والمواد الخام التى يصنع منها الدواء فى مصر، من خلال مناقصات عالمية تدخلها الشركة بناء على خطط الإنتاج فى الشركات المصنعة للدواء ، وأيضا كانت هى المسئولة عن تسويق منتجات شركة النصر للكيماويات، فضلا عن قيامها بتسويق عدة الآف من أصناف المستلزمات الطبية التى

تستوردها لسد احتياجات المستشفيات والصيدليات والمعامل والعيادات

عُينت أخصائى تسويق بالدرجة الثالثة فى تلك الشركة العملاقة ، وقمت بتلقى تدريبى بإدارة الشركة بمنطقة السواح بالقاهرة ، وأشرف على تدريبى الدكتور"سعد حلمى" بمكتبة ، كما أوفدنى للعمل ببعض فروع القاهرة تمهيدا لشيىء لم أكن أتوقعه .. فبعد شهرين من بدء تدريبى، جلس معى يحدثنى بأبوة عن المهمة التى سيوكل بها إلى ... وأخبرنى أنه استصدر قرارا بتعيينى مديرا لفرع وجه بحرى بطنطا ، ذلك الفرع الوحيد الذى يمد كل محافظات الدلتا ، وفهمت منه أن عملى سيكون بفرع المستلزمات بميدان الساعة ،وأن مخزن الكيماويات الذى يبعد قليلا سيكون تابعا لى ، وأفهمنى أنى ذاهب إلى وكر عصابة منظمة من الموظفين تسيطر على العمل لتحقق مصالحها الشخصية ، والغريب أنه أرسلنى إلى هناك بخطاب تسلمته باليد لأتولى القيام بمهام عملى، بدلا عن المدير القائم بالعمل وقتها .. وذلك المدير الذى تربع على كرسيه أكثر من عشرين عاما، ولم يرسل معى لجنة للقيام بعملية التسليم ... وكان هذا أول اختبار لى !!

كانت الساعة التاسعة صباحا حين وصلت إلى ميدان الساعة،

ودخلت فرع المستلزمات الذى يحتل الدور الأول من العمارة التى تتصدر الميدان، وقابلت الدكتور سمير، وسلمته الخطاب الذى أوفدتنى به الشركة ..

ويالها من ثورة عارمة حين استحال الزميل فى لحظة إلى وحش كاسر، وهو يهدد ويتوعد ويقسم أن يحرق الشركة بمن فيها ، وتدخل حشد من العاملين لتهدئته ، وحين لان بعض الشيىء ، بدء يتحدث بشكل مفهوم، وهو يقترح علىّ إدارة مخزن الكيماويات ، لأنه هو الوحيد العليم ببواطن الأمور فى الشركة ، والمكاتبات الخاصة والعملاء والطلبيات ، وهو يشير إلى أننى لن أتمكن من إدارة العمل .

وبهدوء وود حاولت أن أفهمه أننى تلقيت تعليمات من الشركة أحاول تنفيذها، وأن تلك التعلميات موضحة بالخطاب ولاسبيل للشوران حولها ، وأن مصدر الأمر هو الدكتور" عبد المنعم خزبك" رئيس مجلس الإدارة ، وأنهم أفهموني بالشركة أن مثل هذا القرار يُسمَّى " قراراً سياديا " ولا سبيل إلى إلغائه إلا من سلطة أعلى من مُصدره ، وأنه فى حالتنا تلك سيكون الوزير هو السلطة المنوط بها إلغاء مثل هذا القرار.

وأحسست بالحزن والأسى من أجل زميلى الذى أُسقط فى يدة وأنا أراه يتراجع عن ثورتة كطفل صغير، وهو يقول لى أنه خدم الشـــركة أكثر من عشرين سنه ، ليُلقى به أخيراً فى مخزن الكيماويات، مفضلين عليه صيدلى آخر حديث التخرج، عمرة بالشركة ربمـــا كـــان بضعـــة شهور.

فى اليوم التالى كنت أقف أمام الفرع فى تمام الثامنـــة صباحـــا، لأفض أختام الشمع من فوق الأقفال، بحضور رئيس الحسابات ، لنفتـــح ذلك الباب الضخم الذى نُغلقه ونُشمعه كل يـــوم فـــى الرابعـــة مســـاء.

عرفت فى هذا اليوم معنى النفاق للرؤساء، وبـــاع الموظفيـــن الطويل فى السيطرة على رؤسائهم.. كانت الحفلة معدة لاستقبالى مـــن تبرعات الموظفين، وجاءت صنـــاديق المشـــروبات وأنـــواع التورتـــه والجاتوهات ، وتبارى بعض الفصحاء فى إلقاء الكلمات التـــى أنـــهوها بتقديم هدية رمزية، قبلتها وأنا مضطر وسؤال يلح على ذهنـــى.... أيكون من الأفضل أن اعتذر عن قبولها ؟!

تحدثت إليهم لأبين لهم قيمة العمل عندى، والجهد الذى ينتظرنـــا جميعا لنرقى بهذا الفرع ، ليكون فى الشكل المثالى لأداء الخدمة.

كان الكل سعيداً بهذا المدير الصغير الذى سيضعونه فى أصغر حيزبيهم ، ولم يكونوا وقتها يعلمون أنهم سيعضون معظم وقتهم فيما بعد.. يدعون الله أن تحل بى مصيبة تبعدنى عن طنطا ، وما أكثر ما تباكوا فيما بينهم على أيام الدكتور / سمير الطيب الأمير والمكاسب التى كانوا يحققونها فى تربحهم من عملهم .

كان راتبى ستون جنيها ، وكنت أقوم كل خميس بالسفر إلى القاهرة لأستكمل ما ينقص من المخزون، وأُطَّلِعُ على كل جديد لأمد به الفرع ولأطلع الدكتور / سعد حلمى على كل خطوة أقوم بها.

كانت الشركة تحسب لى خمسة عشر جنيهاً عن كل مأمورية كبدل انتقال ليصل إجمالى راتبى إلى مائة وعشرون جنيها ، وكانت أمى تكمل من " معاشها" لمدير فرع وجه بحرى ما يمكنه من إكمال الشهر، فضلا عن إطعامه مجانا . كنت احتاج إلى المظهر اللائق بالمدير ، وانتقل يوميا من طوخ إلى طنطا غير المواصلات داخل مدينة طنطا وأصبح للسجائر والشاى ميزانية خاصة لزوم لقاء العملاء بالفرع، وأيضا ما أكثر ما كنت انتقل إلى مواقع العملاء لدخول مناقصات هنا وهناك ، ولم يكن راتبى يكفى لكل هذا . كان أسلوب

العمل عقيما بالفرع قبل أن أتولى إدارته ، فأعطيت لنفسي سلطات رئيس مجلس الإدارة ، وخالفت كل القوانين المعمول بها على مسئوليتى الخاصة..

ومن الشواهد التى لها دلالاتها على ما وصل إليه حال العمل .. اختناق الفرع بالنسخ الكربونية لفواتير الصرف والتى كانت تتراكم عاما بعد عام ولأكثر من عشرين عاما حتى، أنها كانت تملأ المخزن التابع للفرع فضلا عن ثلث المساحة المتاحة للعرض بصالات البيع!!

وراسلت الإدارة وانهالت اشاراتى التليفونية لرئيس قطاع المخازن ليخلصونى من هذا المخزون الورقى الذى أحال الفرع إلى معرض للفواتير القديمة، تلك التى أصبحت مع الأيام فى قدسية المماوات الفرعونية ... ولكن لاحياة لمن تنادى !!

ترى أين سأضع الأجهزة والمستلزمات التى أطلب منها المزيد كل يوم وقد نشطت حركة الفرع وشعر العملاء بحركة التطوير التى أقوم بها ؟ !

وأخيرا أتى يوم كان صباحه مختلفا، وقد تعافت الرياح وعلا صوتها ، ومع الساعات الأولى للعمل أتت إلى الفرع إحدى سيارات

النقل التابعة لمخازن الشركة بالقاهرة محملة بالبضائع،ولم أقبل أن تعـود السيارة غير محملة بهدية تليق بمخازن الشركة.. فحملتها بكل فواتير الفرع عدا السنوات الخمس الأخيرة.، وأرسلت معها مندوبا حملته بخطاب لرئيس قطاع المخازن اشكره سلفا على تعاونه معى فى حل تلك العقبة الكؤود التى كادت أن تقف حائلا أمام تطوير الفرع فضلا عن تهديدها له بالدمار إن تعرضت للاشتعال لأى سبب من الأسباب، لتحرق معها الملايين من الجنيهات .

وهناك بمقر الشركة بالسواح بالقاهره كما روى لى شهود العيان كان الدكتور " المنوفى " رئيس قطاع المخازن، يشد فيما تبقى برأسه من شعر، وهو يرى جبلا من الأورق لا يعرف أين يخزنـه، وتطاير الكثير منه هنا وهناك، مع الريح التى كانت تزمجر فـى هـذا اليـوم المشهود .

أصابت الصدمة العقول التى ترى أن تلـك الأوراق الباليـة، أخطر من ملفات أرشيف المحاكم بالقاهرة ، والقانون يحتـم أن يمضـى على الفاتورة أكثرمن خمسة عشر عاما حتى يمكن بيعها إلى شركة "راكتا" للمنتجات الورقية، للاستفادة منها وإعادة تصنيعها ، وروى لـى

أيضا أن الدكتور / سعد حلمى أغرق فى الضحك، حين استمع إلى الدكتور " المنوفى" وهو يلعن اليوم الذى وقّعَ فيه على قرار تعيين هذا الصيدلى المشاغب. وفى نفس الأسبوع قمت باستبدال كل أرفف صالات العرض الخشبية المتهالكة ، والتى أصبحت مع الوقت مرتعا للصراصير والفئران وكل أنواع الزواحف واللافقاريات .. استبدلتها بحوامل معدنية على الطراز الذى نشيد به فروع القاهرة، بالتعاقد مع فرع " صيدناوى" - كما يلزمنى القانون - باعتبارة أحد شركات القطاع العام بطنطا، رغم ارتفاع أسعاره عن القطاع الخاص آنذاك .

****

كانت الأوامر المستديمة بالشركة تلزمنا بعدم التعامل مع شركات القطاع الخاص، التى تدخل مناقصات مع المستشفيات الحكومية. وتستكمل ما ينقصها من أصناف تحتكر استيرادها شركتنا.. والحقيقة أن أمناء العيدة كانوا يخرجون لتلك الشركات، كل ما تحتاجه بأسماء صيادلة وأطباء من عملاء الفرع، والذين نحتفظ بصور من بطاقاتهم الضريبية من وراء ظهر الشركة والعملاء ، وفى مقابل مصالح خاصة بالطبع، وكان الحل بسيطا لايحتاج إلى عبقرية، حين قمت بفتح

باب التعامل مع القطاع الخاص على مسؤليتى الشخصية، وأصدرت بهذا قرار إداريا كتب وعُلق على الحائط مع الإشارة إلى أن التعامل سيكون من خلالى فقط.. وهكذا تمكنت من تصريف رواكد الفرع التى كُنت بلغة التسويق - أُحَمِلها على طلبات تلك الشركات.

ربحت الشركة الألوف، وانتهت مشكلة كانت تعانى منها كل فروع القاهرة، ، وبدلا من أن يتربح الموظفين على على حساب الشركة ،ارتفعت معدلات البيع إلى أربعة أضعاف ماكان عليه من قبل ، والإدارة بالقاهرة تكاد لا تصدق ما يحدث فى فرع طنطا .

كانت هناك عشرات الأمثلة التى رسّخت فى ذهنى فكرة فشل القطاع العام إداريا .. كان أبسطها قرار رئيس قطاع المخازن برفع الأسعار (٥%) سنويا على المخزون بالشركة، وهكذا لو كان بالشركة مخزون قدرة ثلثمائة مليون جنية فإنها تحقق بهذا القرار زيادة قدرها خمسة عشر مليونا من الجنيهات، لتصير قيمة المخزون ثلثمائة وخمسة عشر مليونا .. ولو أعلنت الشركة أن أرباحها خمسة ملايين جنيها فكان هذا يعنى فى حقيقة الأمر أنها منيت بخسارة قدرها عشرة ملايين من الجنيهات.. كان الجميع يوهم نفسه بأن الأرقام التى يضعونها فوق

الأوراق تعد مكسبا حقيقيا ، وكان المردود العكسى لهذا الفعل يشكل خرابا حقيقيا للشركة ، حين هرب المتعاملون معها لارتفاع أسعارها عن القطاع الخاص، الذى كان يبنى نفسه وسط عشرات القوانين المعرقلة ، والتى كانت تحاول الإبقاء على القطاع العام بعض الوقت، ومع الأيام كانت الأصناف تتحول إلى رواكد غير قابلة للبيع .

بدأت أشعر بقيمة ما أقدم للشركة من أفكار جديدة للإدرة ، وأحسست أن هذا النجاح لابد أن يقابل براتب متميز، وكشاب له احتياجاته طلبت من إدارة الشركة أن تتعاقد معى تعاقداً خاصا لا يلزمها تجاهى برواتب الحكومة ، وطلبت راتبا قدرة خمسمائة جنيها شهريا، وهو ما كان يساوى راتب مدير صيدلية خاصة مساحتها لاتتجاوز خمسة وعشرين مترا مربعا.. وكان هذا شرطى للاستمرار بالعمل مقابل الألوف التى أحققها للفرع من أرباح لم تكن موجودة من قبل ... وبالطبع قُوبل طلبى بالرفض !!

ومن المفارقات الطريفة أننى فى تلك الأيام، رفضت عرضا لبيع أربعة كليو جرامات من بودرة " الإفدرين" فى مقابل سيارة بيجو " وكان بإمكانى أن أطلب كميات كبيرة من المخازن الرئيسية لأوزعها

على الصيدليات بالطريقة التى أراها، ولا رقيب إلا ضميرى ، وكانت مادة الإفدرين تدخل فى تصنيع العديد من المخدرات وحقن"الماكس ".

رفضت محاولة الشيطان الذى أتى إلىّ بصيدلية الهدى الحديثة بطوخ، تلك التى كنت أمضى فيها بعض الوقت وأنا أشرف على العمل بها امتنانا لصاحبتها التى حملتنى أمانة متابعتها خلال فترة عملها بالكويت، وشعوراً بالحب لذكرى الأيام الجميلة التى عملت خلالها بتلك الصيدلية قبل عملى بالشركة ... وهنا عرفت لماذا يتمسك الناس بالعمل فى القطاع العام والحكومى رغم المرتبات الضئيلة، وهناك التربح المذهل فى بعض المواقع !!

كانت الأيام تمضى وأنا أحاول التماسك، واضعا نفسى فى اختبار صعب لإصلاح حال الدنيا ...إلى أن كان يوم أتى فيه إلى أحد العملاء يخبرنى أن "إبراهيم".. أمين وحدة المستلزمات يساومه ليسهل له شراء بعض احتياجاته.. كانت تلك الوحدة بآخر الفرع، بجوار دورة المياه ، وكان هذا الموظف يستبدل كل لمبة جديدة بالرواق الذى أمامه ، بأخرى محروقة لتظل المنطقة مظلمة، ويدعى أن هناك خطأ ما بالكهرباء بتلك المنطقة ، فضلا عن رائحة " البول" التى تزكم الأنوف داخل وحدته..

كان هذا الموظف مريضا بالبروستاتا ، ولا يكل وهـــو يعلــن يوميـــا للجميع بأنه لا يتحكم فى خروج البول ، وكان الدخول إلى وحدته شـــيئا مقززا ،ولم تفلح معه أى محاولة للإصلاح !

أعرف من قراءاتي أن سمكة " الحبار" تنشر نوعا من الحـــبر الأسود حولها بالماء إن شعرت بالخطر.. لتعمـــى عنـــهما الأســـماك المفترسة .. وأعلم أن هناك بعض الحيوانات مثل الثعلب ، تفرز رائحة منفرة من غدة عندها لتعافها الحيوانات المتوحشة.. وكم ســـألت نفســـى أيامها إن كان يجوز للإنسان أن يقتبس الحيل من المخلوقات الأخرى؟!

استدعيت الموظف المذكور وطلبت منه أن يسلم عهدته لزميـــل له، وأن يستعد لاستلام عمله الجديد بفرع الكيماويات .. فرفض وتشنج، وهو يقسم أن يقتل أى إنسان يبعده عن وحدته، وأنه سوف يرفع قضيـــة بالمحاكم من خلال نقابة العمال إن تم نقلة .

كنا يوم الأربعاء ، وفى اليوم التالى كالعادة كنت فـــى زيـــارتى الأسبوعية للإدارة بالقاهرة ، وطلبت إرسال إشارة لفرع طنطا لنقل هـذا الموظف، ولم أجد أذنا صاغية لما أقول .

لم أكن حتى هذا الوقت أعلم أن هناك موظفين كبار ومديـــرى

عموم بالشركة يمتلكون شركات بأسماء زوجاتهم، ويعملون بنفس مجال عمل الشركة، ويدمرونها من الداخل ،وأنهم يقومون بحماية بعض الموظفين المتعاونين معهم، ونصحني الدكتور / سعد حلمي أن أطيل بالي وأصبر بعض الوقت ،وأن أحاول تصيد الأخطاء بالشهود والوثائق لهذا الموظف ... وهنا سقطت القشة التي قصمت ظهر البعير...وتركت استقالتي قبل أن أعود إلى طنطا في نفس اليوم لأسلم مفاتيح الفرع للمحاسب ، وقمت بطلب المدير القديم من فرع الكيماويات ليتولى إدرة الفرع ، وحتى تصدر الشركة قراراً برجوعه لعمله ، أو تكلف مديراً آخر بالعمل .

ومرة أخرى عدت إلى القطاع الخاص.. مديرا لصيدلية المهدى الحديثة ، بثلاثة أمثال راتبي مع القطاع العام ، وبدون أن أتحمل نفقات السفر إلى طنطا يوميا ، فضلا عن وجبه الغداء التي عدت أتناولها في موعدها ببيتي .

****

وفي إحدى الأمسيات أتى إلى الصيدلية بعض الزملاء، ليخبروني أن فرع بنها بالشركة المصرية لتجارة الأدوية يفتقد المدير

الجيد لخدمة محافظة القليوبية ، واقترحوا علّى أن أتولـى إدارة هـذا الفرع ، خصوصا وأننى مستوفى لكل شـروط الشـركة لتولـى هـذا المنصب، حيث أننىلا أمتلك صيدلية خاصة، ولى خبرة سـابقة فـى العمل كمدير بالقطاع العام ، وأكدوا لى أن المرتبـات مجزيـة بتلـك الشركة ، هذا غير العلاقات المتشعبة والخبرة الكبيرة بمجال الـدواء ، التى سوف يوفرها لى هذا العمل .

وهناك بالقاهرة .. كنت التقى مرة أخرى بالدكتور / سعد حلمى الذى ذكّانى لدى الشركة المصرية، واستلمت عملى " بقطاع التخطيط والمتابعة والمعلومات" بمكتب الدكتور / على حمـاد رئيس القطـاع، وبدأت تدريبى بوسط القاهرة ، بفرع التوفيقيـة ، ومضـى شـهران ليصدر قرار بايفادى للفروع التى تعانى من مشـاكل فـى إدارتـها ، وعدت إلى طنطا مرة أخرى مديرا فعليا للفرع، بجوار الزميل / كمـال علام الذى كان قد ترقى إلى درجة مدير عام، واستمر بـالفرع لعـدم وجود أماكن أخرى تستوعب درجته الجديدة.. وكم كانت سعادته وهـو يرانى نجده من السماء، لتولى كل مشاكل الفرع.. كان الفرع قـد وصل إلى ما هو أدنى من الحضيض، وباتت الشكوى هى الكلمـة

الوحيدة على لسان صيادلة محافظة الغربية، رغم وجود الفرع على بعد خطوات من مقر إدارة وجه بحرى ، التى يترأسها وحتى تلك اللحظة التى أكتب فيها مذكراتى الدكتور / محمد البطش

كان بالفرع نحو ثلاثين موظفاً.. كانوا تقريبا ضعف العدد الذى عمل معى بشركة الجمهورية بنفس المدينة من قبل، وكنت قد اكتسبت الخبرة المطلوبة للتعامل مع المرءوسين، وعرفت بالاعتماد على نفسى، كيف أُغلف القبضة الحديدية بنسيج من الحرير، وانضبط الفرع خلال شهر واحد.. وقد تفانى الموظفون فى عملهم ، وكانوا سعداء رغم الجهد الذى أكلفهم به.. حتى أن طلبات الصيادلة من الأدوية والتى كانت تتأخر أكثر من شهر لتصل إليهم، كانت تصلهم أسبوعيا إن كانوا من خارج المدينة، وفى نفس اليوم إن كانوا من داخل المدينة.

وبدأت بعد ذلك فى غزو الشريط الحدودى للمحافظات المجاورة، وقفزت مبيعات الفرع بشكل أدهش الدكتور/ على حماد رئيس القطاع، ولست أنسى اليوم الذى طلبنى فيه تليفونيا ليقول لى أننى رفعت رأسه، وأنه جعل منى دليل إدانة لقطاع التسويق ، حيث الأصل فى إدارة

الفروع لقطاع التسويق لا لقطاع التخطيط الذى اتبعه، وأننى حققت ما لم يتمكن منه رئيس قطاع بدرجة وكيل وزارة، ومدير فرع بدرجة مدير عام.

كان الفرع عبارة عن بضع شقق بأحد العمارات السكنية ، فُتِحَتْ على بعضها، وكانت الأدوية تحتل أماكنها فوق الأرفف وعلى الأرض بإرتفاع السقف ، ووسط تلك التلال كان عمل الموظفين يشكل تهديداً مستمرًا لهم. لو انهارت فوقهم لأى سبب، وكانت أسلاك الكهرباء تخرج من كل مكان، وتعبر الأجواء إلى أهدافها، تتعرى منها أجزاء كثيرة ، وكأنها ترغب فى عمل ماس لينتهى بحريق يدمر كل شئ.

وفى أحد الأيام.. أتى لزيارتى نقيب صيادلة الغربية ليشكرنى على الجهد الذى أقوم به من أجل الصيادلة بمحافظته .. كان الرجل يمتلك "صيدلية الشعب" بأحد أهم الميادين بطنطا، وحدثته عن أهمية بناء فرع يليق بعاصمة الدلتا وثالث أكبر مدينة فى مصر ، وفاجأنى الرجل وهو يقول أن الأرض موجود ، وأنه طالب بهذا من قبل .

وخلال أسبوع كنت أرسل تقريرا مفصلا للشركة عن المشروع، وقد عثرت على أرض مساحتها ألف متر بسعر مناسب وفى موقع

متميز ... وبالطبع قامت العراقيل لتقف أمام الاقتراح الذى لو نفذ بعد ذلك بسنوات لتضاعف ماكانت ستتكلفه الشركة وقت تقديمى لهذا الاقتراح.. هذا غير معاناة العاملين والصيادلة، إن كان لآدميتهم اعتبار في حساباتنا، التى ستهمل بالتأكيد ضمن تقديراتها وقف نمو الفرع كل تلك السنوات.. وللناس فيما يقدرون مذاهب!!

أنهيت مأموريتى بطنطا وانتدبنى قطاع التخطيط للعمل مرة أخرى بفرع التوفيقة بالقاهرة ، وقد طلب مديرة أجازة لـيرافق زوجه المعارة للعمل بالسعودية ، وبدأت عملى بأكبر فروع القاهرة آنذاك.. ذلك الذى يخدم وسط القاهرة وشمالها وأيضا منطقتى شبرا الخيمة وشبين القناطر التابعتين جغرافيا لمحافظة القليوبية.

كان الفرع يبعد مسيرة دقائق عن مقر إدارة الشركة الواقعة أمام " المعبد اليهودى" بشارع عدلى،وكانت مشكلته تكمن فى أمناء الوحدات.. وقد أغراهم مندوبو الدعاية ليطلبوا فوق طاقة الفرع من بعض الأصناف التى يروجون لها، فما أسهل أن يطلب أمين الوحدة خمسة آلاف علبة دواء من أى صنف راكد لدى الشركة، ليرسل لكل صيدلية عشرة علب بالإكراه، ويساوم المعترض من الصيادلة على قبول

الصنف مقابل توفير بعض الأدوية الشحيحة بالأسوق.. وبالطبع كان أمين الوحدة يقبض الثمن كما يقولون " من تحت الطربيزة ".

كان المنحرفون يحققون ثروات هائلة، سواء لعبوها وحدهم أو بالتواطؤ مع مديرى الفروع.. ومنذ اليوم الأول الذى قمت فيه بإدارة الفرع ، توليت بنفسى التعامل مع المناديب.. لم أكن أسمح لأى مندوب بالدخول إلى صالات العمل الداخلية بالفرع لمقابلة أمناء الوحدات.. أصدرت بهذا أمرا إداريا وكتبته بيدى وعلقته بمدخل الفرع فكان مندوبو الدعاية يأتون إلى مكتبى، لأقوم باستدعاء أمين الوحدة، وموظفة الكارت التى تطلعنى على حركة الأصناف التى يروج لها المندوب ، وكان الالتزام الذى يحكمنا جميعا هو ألا يزيد المخزون من أى صنف عن الحد الذى يمكن تصريفه خلال ثلاثة أشهر، وعلى ضوء متوسط المبيعات لهذا الصنف.

كنت أتلقى الهدايا من الأدوية بنفسى، واحتفظ بها فى دولاب بغرفة مكتبى، وأكلف أحد الموظفين بتسجيلها ليكون من حق كل العاملين بالفرع أخذ احتياجاتهم وأسرهم، فالأصل فى قبول الهدايا من الأدوية أن تكون للاستعمال ... لا للاتجار فيها على حساب الشركة!!

عرف مندوبو الدعاية النظام الجديد والتزموا به . وحين عرفوا أنني سأنتقل قريبا إلى فرع بنها، همسوا فى أذنى عن حيتان الفرع هناك.. الذين يوقفون .مبيعات أى صنف، وحتى يرضخ لمندوب لطلباتهم من عينات أدوية قابلة للبيع ، وحدثتنى الدكتورة " كلودى" مندوبة شركة " بوتس" الإنجليزية عن أمين الوحدة الذى يطلب نقودا وبارفانات، وأنه كان يدعو بعض المناديب للقائه على المقهى القريب من الفرع، ليأخذ حقة " ناشف" –على حد التعبير الدارج – بعيدا عن الأعين، ومن الطريف الذى عرفته عن أحد مندوبى الدعاية.. أنه كان يحمل فى حقيبته قطعا من القماش لزوم كسوة الشتاء والصيف . وبالفعل كانت الرشوة سيد الموقف والسبيل الوحيد أمام الشركات لتصريف منتجاتها فى مثل تلك المواقع الموبوءة ، ولكن ما أذهلنى حقا هو سماعى أن الأمر كان يتعدى الصغار إلى الكبار، وكانت الشركة آنذاك تحتكر استيراد ألبان الأطفال ، وكل الأدوية المستوردة ، والتى كانت تمثل نحو(٢٠%) من إجمالي استهلاك الدواء فى مصر، هذ غير التزام جميع الشركات المنتجة للأدويه بتسليم الشركة نصف إنتاجها من الأدوية، وكل إنتاجها من أدوية المخدرات والسموم، مما

كان يجعل منها دينا صور توزيع الأدوية في مصر، وكل ما عداها أقزام، والكبار في شركة بهذا الوصف، كانوا قادرين على الكثير، وأكثر من الكثير .. وكان الكثيرين في "الهوى سوا" كما يقول المثل، وشكلت أنا النقطة الصغيرة في خضم هذا البحر.. جبهه مستقلة لا يقف فيها غيري!!

ومن المبكي المضحك أنني الآن أشعر بالسخرية من نفسي وأنا بتلك الأيام الخوالي ، وقد صرت أكثر واقعية مع الوقت، وسؤال محير يدور في ذهني..

ماذا كنت أريد أيامها ؟!!

أكنت أطمع في إصلاح القطاع العام بمصر !!

أعرف الآن أنني كنت أتمتع بقدر كبير.. لست أدري أمن البلة أم من الغرور !!

كنت أحارب في طواحين الهواء !!

كنت أحارب قدر استطاعتي ، وبقدر علمي ، وكانت تفوتني الكثير من الحقائق !!

انتقلت للعمل بفرع بنها الذى من أجله دخلت الشركة، ولم تمض أياما طويلة حتى داخلنى إحساس قاتل بعدم جدوى ما أفعل، وأنا أسمع أن كل فرع أتركه يعود سيرته الأولى، "وكأنك يابو زيد ما غزيت!" ورسخ يقين فى داخلى بأننى لا أخدم مصر، ولا أخدم نفسى. وضاق بى الفرع المتسع .. شعرت أن الآخرين اختاروا الطريق الأصوب حين رفضوا العمل مع الحكومة والقطاع العام، وفضلوا السفر إلى السعودية والخليج .. إنهم على الأقل يقدمون خدمة لأنفسهم ولأولادهم فى المستقبل، أما أنا فلا أفعل شيئا لنفسى، ولا لبلدى، ولا لأولادى إن قدّر أن يكون لى أولاد.. كنت فقط أحرث البحر..

وأخيرا تركت القطاع العام محملا فقط براحة الضمير!!

السعودية ... سقيا رحمة أم سقيا عذاب !!

كنا فى عام (١٩٩٦م) حين جمعتنى الأقدار بلقاء مع اللواء الطيار/ فؤاد فخرى، وكنت فى زيارة لأقارب أمى بمنطقة الخرنفش بالقاهرة.

كنت أجلس مع بعض الأقارب بأحد أركان مقهى المعلم " هاشم حصان " الذى كان فى شبابة فى الأربعينيات من فتوات تلك المنطقة .. هذا الرجل الذى سمعت فى صباى عن بعض مغامرات شبابه التى تذكرنى بروايات " نجيب محفوظ"، التى دارت أحداثها بتلك المنطقة العتيقة من القاهرة، هذا الرجل الأسطورى وقد تجاوز الثمانين من عمره فى تلك الأيام، كان مايزال متماسكا ناضراً لم يهزمة الدهر. كنت

أدعوه خالي.. وهو بالفعل ابن خالة أمى .. أما اللواء فـؤاد ابـن الحاج / فخرى خال أمى رحمة الله، وكان الشقيق الوحيد لجدتى. كما كان شيخا للحارة فى حقبة ما قبل ثورة (١٩٥٢م) .. والحقيقة أننـى لا أذكره بالخير أبدا، وكل ما أعرفه عنه أنه استطاع أن يـأخذ بالتحـايل بصمة جدتى على حجة بيع لتلك الأرض التى يقام عليـها الآن أربعـة عمارات، وتحتل مقهى " هاشم حصان" الـذى يطـل علـى شـارع الخرنفش الدور الأول من إحداها .. هذا المكا ن المُحَمل بعبق التـاريخ ، والذى تغيرت معالمه الآن كان به "طابونه" تمتلكها جدتى، وحـوش متسع، وكان به ماروت لى أمى أنه كان يسمى "الحريم الجوانـى" والحريم البرانى ".. مصطلحات لم يعد لها وجود الآن، وطـرز فـى العمارة بادت مع الأيام ... وأخيرا مات الظالم ومات المظلوم ودائما يبقى وجه الله،الذى حذرنا من مقابلته يوم القيامة حاملين ذنوبنا !!

ترى .. كيف سيقابل خال أمى خالقة وهو يحمل تلك الأرض ؟!؟

ومن صلب هذا الرجل كان اللواء / فؤاد فخرى الذى جلس إلـى جوار أخى يحدثانى عن اللواء/ سامى و العميد / مصطفـى كـامل.. وكانا يعملان بالمخابرات العسكرية قبـل أن يحـالا إلـى المعـاش،

ويفتتحا مكتب "الشروق" لإلحاق العمالة المصرية بالخارج.

وهناك وبعد أيام بشارع عرابى بالمهندسين كنت التقى والعميد/ مصطفى كامل .. كان الرجل سمينا ومرحا يكسب ودك فى دقائق، وأعربت له عن تخوفى من التعامل مع السعوديين لما سمعته عنهم، وعن تعمدهم الإساءة للمصريين العاملين فى بلادهم !

كان يجلس معنا وعلى "الفوتية" المقابل لى شخص ثالث .. أصلع، ويرتدى بدلة كاملة، لايبدو أنيقا فيها ، كان صامتا طوال الوقت ويضع ساقا فوق أخرى، توحى إليك تعبيرات وجهه بأنه فى ورطه أو مأزق ما.. لا تدرى كنهه.

كنت أحسبة مصريا ممن أفاء الدهر عليهم بلا مناسبة، وبدون مقدمات، فحشروا أنفسهم فى الملابس التى لم يألفوها لم تألفهم .. وصدق ظنى فى كل شئ، عدا أن الرجل لم يكن مصريا ... لم يكن الجالس معنا سوى الشيخ / ضيف الله تركى الصالحى حربى، من بدو شبة جزيرة العرب.

وتكلم الرجل أخيراً ليقول بلكنته السعودية..

ما هتخسر شئ يا دكتور.. جرِّب يارجَّال ، وإذا ما عجبك الحال فى

ساعتين نرجعك الطيارة لبلدك.

عرفت منه أنني سأعمل في صيدلية بقرية تسمى "عقلة الصقور" وأن المستوصف الخاص به يقع في مدينة "الرس" بمنطقة القصيم، وتوسمت فيه الذكاء حين حاول أن يقرب الأشياء إلى ذهني، وهو يردف على كلماته..

:الرس بالنسبة للقصيم ذى طوخ بالنسبة للقليوبية.

قلت له أنني لن أدفع نقودا للمكتب في تلك المجازفة ، وكان رده بأنه سيدفع عني في مصر، وسيحصل ما دفعه من راتبي بالمملكة، وسألته كم سيدفع للمكتب، ليخبرني بأنه سيدفع ألف ريال، وبتلقائية قلت له.. خمسمائة فقط .. ووافق الرجل على الفور وهو يخبرني أنه سيسوى هذا الأمر مع العميد/ مصطفى.

وعرفت منه أنه سيعطيني ألفان وخمسمائة ريال راتب شهرى نظير عمل ٨ ساعات يوميا، وراحة يوم كل أسبوع، وأجازة سنوية شهرا كاملا مدفوع الأجر، وأن لي عموله (١%) من إجمالي المبيعات، وأنه سيتحمل تذكرة الطيران ذهابا وعودة، وسيوفر لي سكن مستقل مفروش بما يليق بالأطباء.

وقّعت العقد وقام المكتب بإنهاء كل الإجراءات، ولم ينته الشهر حتى كانت الطائرة تهبط بى فى مطار جدة، وتكفل الطيران الداخلى بنقلى إلى مطار مدينة بريدة عاصمة القصيم..

كان الليل قد أرخى سدوله ، وشعرت بقلق طفولى من غياب الشمس، فسارعت باستئجار سيارة لأقصد بها مدينة "الرس "التى تبعد نحو ثمانين كيلو متر عن المطار.. كنت أنظر حولى من نوافذ السيارة، وبصعوبة كنت أتبين الصحراء المترامية.

وهناك على حدود المدينة كان " مستوصف الشرق" يحتل الركن الأيسر من قطعة أرض فسيحة مُسورً عليها، وكانت الصيدلية تحتل أقصى يسار المستوصف. طلبت من السائق أن يقف أمامها، ونزلت لأجُر حقيبتى إلى الصيدلية، لأرى أول المفاجآت .. الدكتور/ مصطفى والدكتور/ على والاثنان من نفس دفعتى بجامعة الزقازيق ومن أهالى محافظة الشرقية بمصر.

عرفت فيما بعد أن كل العاملين المصريين بالمستوصف تقريبا من محافظة الشرقية ، حتى أننى بدأت أتساءل بينى وبين نفسى.. لقد سافرت عن طريق مكتب الشروق بالقاهرة، لأعمل بمستوصف

الشرق بالسعودية، مع صيادلة من محافظة الشرقية بمصر.. وبدأت أكرة المكان حتى قبل أن أستلم العمل.. بسبب كلمة الشرق التى تتكرر حولى، وتوحى إلى عقلى الباطن بالكتلة الشرقية والحرب الضروس التى شنها ضدى الشيوعيون بمصر!!

لم يكن هناك شئ يوحى بالأمل إلا وصولى لتلك البلاد مع "غروب الشمس".

كان الهنود يحتلون المرتبة الثانية بعد العمالة المصرية، وفيما بعد عرفت أن عائلة "الحربى" التى ينتمى إليها صاحب المستوصف لها أصول هندية .. قبيلة قديمة استقرت بشبه الجزيرة فى زمن الهجرات.. وبالفعل كان الرجل يشبه الهنود فى ملامحه، وكان أيضا يحبهم ويفضلهم على الآخرين.

عملت أسبوعين مع الدكتور على والدكتور مصطفى سكنت خلالهما فى شقة بالدور الرابع من عمارة الأطباء التى خلت من سكانها تقريبا ومعظمهم فى أجازات بمصر،أو فى أجازات لأداء فريضة الحج.

والحقيقة أننى شعرت مع صدمة اللقاء الأول مع تلك البلاد بالاكتئاب والوحدة، سواء فى السكن أو العمل، وكان ثقل دم الدكتور/

مصطفى، وصمته المصطنع، وحاله الرعب التى يحياها- بلا عناسبة -
وتنتقل عدواها إليك فى لحظات، مما " زاد البلة طين" !

لم يكن هناك ما يخفف عنى غير وجود الدكتور/ دسوقى طبيب الأسنان والمدير الفنى للمستوصف.. كان يسكن الطابق الثالث، وكثيرا ما كنت أزورة لأبادله الشكوى.. أنا من اصطدامى للمرة الأولى بقسوة الصحراء، وجفوة البشر، وبعدى عن أهلى وبلدى .. وهو من اضطراره لمفارقه أسرته وأولاده ، وكان" عدنان سندس" ابن مدينة "جنين" وصاحب المطعم المجاور والفلسطينى الجنسية يبثنا مظالم أهل الدنيا من الإسرائيليين والسعوديين.

كنا نمضى أوقاتنا مع الأفلام الهندى المنتشرة فى كل مكان، وأيضا مع شرائط راقصة مصرية تدعى " سحر حمدى" تلك التى لم أسمع عنها بمصر، وذهبت إلى المملكة لأعرف أنها نار على علم !!

بدأت محاولاتى لاستيضاح المجتمع من حولى وبالطبع تركزت تحرياتى حول مصدر القلق والخوف.. كفيلى المرعب .. وعلمت أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة وإن كان ماهراً فى توقيع الشيكات.. بدأ حياته عاملا بأحد المستوصفات الحكومية، واستطاع أن يحصل على

قرض قيمته مليون ريال، جهز به مستوصفا صغيرا،كان يستأجره بوسط المدينة،وبدء العمل ببضع أطباء مصريين، وفى بضع سنين حقق أرباحا كبيرة ، ثم منحته الدولة بضعة أفدنة ليقيم على بعضها مستوصفه الحالى الذى تتجاوز قيمته مع الصيدليات التابعة له عشرون مليونا من الريالات السعودية.

لم يكن / ضيف الله يحظى بحب أحد من العاملين معه لفرط قسوته وكبرياءه وغُشمة، وحاولت من جهتى أن أبحث فى الرجل عن شئ يحسب له.. فلم أجد.. إلا فى إطار عمله، وما حققه من نجاح ملموس يغبطه عليه أمثاله.

كان إداريا محنكا ،شديد الذكاء الفطرى والدهاء، لا يطمئن إلى أحد، ولا يثق بمخلوق، صاحب قرارات فجائية تحار فى فهمها إن حاولت ، حتى أنك تشك فى النهاية أن الرجل نفسة يكن يفهم مايأتى به من قرارات !!

وكان الكل يعتقد أن هذا الرجل لديه جهاز مخابرات من الموظفين وأن لدية وسائل سمعية بصرية للتجسس على الآخرين ، حتى أنك لو ذكرته فى خلوتك، فسوف تجده فى لحظة واقفا أمامك كالعفريت الذى تنشق عنه الأرض ، وكان الكل يروى عنه أساطير أكثر مما قيل فى

"جنكيزخان" .

والحقيقة أن كل هذا لم يكن يعنيني في شيء، وأنا أعرف أن الطائرة لاتستغرق أكثر من ساعتين لأكون بالقاهرة مرة أخرى، كما سبق وقال لي هو نفسه بمكتب العميد / مصطفى كامل بالقاهرة .

ومضى أسبوعان ليستدعيني كفيلي المُرعب، ويخبرني أنني لن أتقاضى مرتب عما مضى من أيام، وأنني سأنتقل إلى الصيدلية التي سوف أديرها بقرية "عقلة الصقور" التي تبعد عن "الرس" بنحو ثلثمائة كيلو متر على طريق "المدينة المنورة" ، وأنه مطمئن بعد أن أنهيت تدريبي، وحين حاولت أن أجعله يفهم أنني أتيت من بلدى مديراً جاهزا للعمل، ولم أكن بحاجة إلى تدريب وقد أدرت مؤسسات دوائيه في مصر أصغرها أكبر من كل صيدليات المدينة التي نعيش فيها مجتمعة.

ولكنه لم يفهم !!

وكانت حلاوة الحرام في فمه أقوى من مرارة لقاء الله وعرق الناس في حلقه يوم الدينونة!!

وفي اليوم التالي مباشرة كنت في طريقي إلى عملي الجديد، ولأول مرة رأيت العواصف التي تحيل نور النهار إلى ظلام دامس.. فكان سائق السيارة يضطر للتوقف وحتى تمر العاصفة، ليرتد إليه بصره

من جديد .

وعلى مشارق القرية توقف السائق أمام " فيــــلا" مــن طــابقين بأسفلها الصيدلية التى سأديرها، واستقبلنى الصيدلى الــذى قُمــت معــه أسبوعا علمنى فيه أخطر شيىء فى الغربة!!

كان هذا الزميل قد تخرج بعدى بنحو أربعة سنوات، وهو خريج جامعة الزقازيق أيضا، ومن أهالى محافظة الشرقية ، وأخبرنى ونحـــن نتناول طعام الغذاء فى اليوم التالى وكان قــد أعـده بنفســه،أن النســاء يضحكن علينا بإدعائهن عمل المعجزات فى تجهيز الطعــــام، وأن كــل أنواع " الطبخ" له طريقة واحدة.. وماهى إلا بصلة مبشورة تقلــى فــى معلقتين من السمن، ثم يضاف إليها عصير الطماطم لتصبح مايســمى " تسبيكة " يضاف إليها أى خضار فى الدنيا مع الماء وقطع اللحم، لتحصل على وجبة ممتازة.

كانت الحكاية سهلة وممتعة، وشعرت أننى حصلت على شـــهادة لاتقل خطورة عن " البكالوريوس". إلا أننى فى نهاية الأسبوع الذى قضاه معى الزميل الذى لايحضرنى اسمه، كنت قد قررت تقديـــم اســتقالتى، والعودة الى مصر، وأنا أرانى معزولا فى الجبل على مشارف قرية.. بلا جيران أو حتى محلات مجاورة، سوى جزار واحد ســودانى الجنســية،

ولايذبح إلا الجمال .

أتى لزيارتى بعض المدرسين المصريين، وهى المهنة الأكثر شيوعا هناك بين المصريين، ومدير المستشفى الحكومى هناك المصرى الجنسية، ليقنعوني بحاجتهم إلى وجودى معهم، وطلبوا منى أن أمضى أسبوعا آخر بعد سفر زميلى، وإن لم أرض عن إقامتي ، فيمكننى طلب الرحيل .

مضى أسبوع تلاه ثاني وثالث، واعتدت المكان وألفت الناس، وصار لى أصدقاء من البدو والمصريين، والكل يشعر بأهميتى وأنا الصيدلى الوحيد فى دائرة نصف قطرها ثلثمائة كيلو متر، فأقرب صيدلية إلىّ كانت بالمدينة المنورة أو بمدينة الرس، واكتشفت ميزة وجودى بهذا المنفى مع الوقت.. حيث لاكفيل ينغص عليك حياتك بلا سبب، إلا رغبته المريضة فى ذلك !

بيت الأشباح

المؤمنون بوجود الله على وجه العموم ،

يؤمنون بما حدثهم به الله

والله حدثنا عن الملائكة والجان ..

وكما خلقنا من طين ..

خلق الملائكة من نور..

وخلق الجان من النار..

وعلى مستوى شخصى الضعيف .. لاتقف علاقتى بتلك القوة المهيمنة ، الحنونة ، الرحيمة ، عند حدود الإيمان فقط.. فأنا عاشق ولهان لتلك الذات العليا ، أذوب فيها حباً ، وأشعر أننى غير مستحق لنعمة أن خلقنى هذا الإله، فى صورة إنسان، وفضلنى على الملائكة، وجعل الشمس تشرق علىّ كل صباح

سامحني يا الله إن كنت قد تجرأت فتحرك قلمي بالحديث عنك!!

ومن أنا حتى أتجرأ على هذا !!

وكما أومن بالله.. أومن أيضا بملائكته.. وبأن الجان من خلقه..

ربما كان لهذا الجان حضور أكبر منذ مئات أو ألوف السنين، سواء في عقول الناس، أو على أرض الواقع، إلا أنني وليسامحني الله.. لا ألق بالاً إلى هذا المخلوق، ولايعنيني في كثير أو قليل ، وحتى مشاعر الرهبة التي قد تتملك البعض من تلك المخلوقات، لاتعرف طريقها إلى قلبي لسببين :

أولاً أنني من الأساس كما أسلفت أفتقد الإحساس بوجودها، ولولا أن الله حدثنا عنها ... ما اعترفت بوجودها .

وثانياً : بسبب هذا اليقين الراسخ في داخلي، بأن أي نوع من أنواع الجان، سيحترق إن اقترب مني، ، وسيندم إن تهور ودخل دائرتي الخاصة.. فمجرد إشارة من إصبعي إليه وأنا أذكر اسم الله، كفيلة بإنهاء الموقف في حينه !

وأنا أعرف سلفا كيف سيكون مكنون قلبي في لحظة كتلك ، وأعرف أن الله معي يسمع ويرى !!

ولكني لا أعرف على وجه الدقة، حجم تلك الورطة التي سيقع فيها هذا

الجني المتبور، وما إذا كان هناك أطباء من الجان متخصصون في علاج الحروق التي ستشوهه وهو في طريقه للهرب، أم أنه سيلقى حتفه في الحال ؟

كنت معتادا أن أغلق الصيدلية في نحو التاسعة أو العاشرة مساء، لأصعد إلى الطابق الثاني حيث أسكن، ولا أحد يقيم معي ، ونادرا مايزورني إنسان.. أتناول عشائي كل ليلة وأشاهد التليفزيون لبعض الوقت ، وأنام وضوء خافت ينبعث من لمبة صغيرة بالصالة .

ومن الثوابت في حياتي أنني أروح في سابع نومة، بمجرد أن استلقي على سريري ، ولا استيقظ إلا في الصباح.. عرفت الأرق ليلة واحدة في حياتي، لست أدري متى أو لماذا.. ولكني عرفت ليلتها قدر معاناة المصابين بالأرق.. تلك التي خزنها عقلي، وإن كان قد أسقط تاريخ الواقعة وملابساتها.

وهناك في قرية " عقلة الصقور" وفي ليلة ليلاء ، استيقظت بعد منتصف الليل على صوت في الغرفة.. وكأنها ستتهدم فوقي ، وفتحت عيني فاختفت الأصوات ، ولم أعد أسمع شيئا !!

أغلقت عيني مرة أخرى لأنام.. فعادت الأصوات مرة أخرى !!

كانت الأصوات تبدو وكأن بضع مئات من الفئران الضخمة تجرى فوق " موكيت" الغرفة، وعلى الجدران والستائر، وهى تمزق بأظافرها ماتجرى فوقه!!

وفتحت عينى لتختفى الأصوات مرة ثالثة، وقمت أفتش الغرفة والشقة كلها ، فلم أعثر على شيء !! .

صعدت سريرى مرة أخرى، وبمجرد أن أغلقت عينى عادت معركة الفئران سيرتها االأولى ..

استدرت لأنام على جنبى الأيسر لأواجه الحائط وأنا أرغب لو أخفى عينى التى يرتبط بغلقها دوما بدء المعركة !

وتكرر ما كان من قبل ؟!

إذا فعيناى مرئيتان حتى وأنا أواجه الحائط!!

وخطر لى أن أخفى وجهى " بالكوفرتة".. وماحدث ووجهى مكشوف، حدث وهو يختبيء تحت الغطاء!!

استمرت المداعبات حتى أصابنى الإجهاد، ورحت فى شبه إغماءة ، لا إغفاءة!

ومضى يوم وتانى وثالث وعقلى يعمل بلا توقف محاولا تفسير

هذا الذى يحدث لى ..

وقلت لنفسى أننى أمام أحد احتمالين..

الأول: أن هناك من يداعبنى بمؤثرات صوتيه كما فى الأفلام البوليسية !!

ولكن كيف يرى عينى حتى وهما أسفل الغطاء؟!

وعدت أقول لنفسى إن من لديه من التقنية لما كان فى إطار تصـــورى، يمكن أن يملك ما لم أتصور حتى الأن !!

ولكن ماذا يقصد من هذا ؟!

و أجبت :

ليقصد ما يقصد .. طالما أننى فى (الطراوة) كما يقولون ، فلا ضير،وما يعنينى فى هذا أن عقلى غير قابل للانفجار، وأن قلبى فى صلابة حجـــر الصوان ، ولما الأفندى يزهق... فسوف ينصرف إلى حال سبيله غـــير مأسوف عليه !!

والاحتمال الثانى:

أن يكون هذا من فعل الجان !!

ياإلهى الرحيم !!

كم سمعت عن الجان وأخيرا هاأنذا ألقاه ...وأين !!هنا فى الســعودية !!

ولكنه جان غير لطيف.. وإلا فكيف يتجاسر على إزعاجي حتـــى حـد الإعياء .... اللعنة !!

لو كان راجل كان طلع لى !! .

هكذا حاولت مداعبة نفسي، وأنا لا أجد من أتحدث معه، وحتـــى لو وجدت ... فماذا سأقول لناس لم يعرفونى الإ منذ أسابيع قليلـــة ... ومن يدرى ... ربما ظنوا بى الظنون، وأعتقدوا أنــــى مـــن أصحـــاب الهلاوس والضلالات!!

لا بأس .....

لاحتفظ بهمومى لنفسى ومن خلقنى أرحم بى من الدنيا ومن فيها !!

إن هذا الخالق الذى زرع محبته فى قلبى أقوى من الدنيا ومن عليها !!

أنا مع ملك الملوك ،وليس من حقى أن أخشى شيئا!!

وانطلاقا من لا معقوليه الموقف ، قلت لنفسى.. لابأس.. لأكـــن أنا أعقل من هذا الجنى التعس، ولأعقد معه معاهدة صلح....

وعدت أسال.. وماذا لو كانت جنية قليلـــة الأدب ؟!.وضحكـــت من هذه المزحة وأنا أقول لنفسى سيكون "نقبها على شونه" فأنـــا لا أملك أى وقت فى تلك البلاد إلا للعمل الجاد، وقررت أن أبدأ بمبـــادرة

سلام كما فعل السادات مع إسرائيل.. فأغمضت عينى وأنا مستلقى على ظهرى وكالمعتاد بدأت معركة الفئران.وابتسمت ابتسامة عريضة وعيناى مغلقتان، ثم مددت يدى اليمنى وأنا أسحبها خارج الغطاء على هيئة من يريد أن يسلم باليد ... ولما لم توضع "يد" أخرى فى يدى قمت بالتسليم على الهواء ، وأنا أقول"**باسم من خلقنى وخلقك عاهدنى كما أعاهدك على السلام، وسيبنى فى حالى**" ثم عدت بيدى مرة أخرى إلى مكانها أسفل الغطاء.

وتلك كانت النهاية.. وعالم الأسرارعلم اليقين، كشف عنى الضر فى لحظتها.. فتحت عينى وأغلقتها عدة مرات وأنا لا أسمع شيئا.. كانت فرحتى غامرة وأنا أشعر بسكون وسلام العالم كله يستقر فى قلبى ... أحسست أن الله قريب جدا وبدأ أمامى وكأن اللسماء تجدد العهد معى ، على رعايتى فى كل حين وأينما كنت !!

عظيم أنت يارب فى كل زمان ومكان !!

ياترى يا هل ترى !!

أين الحقيقة فيما كان !!

... علمها عند ربى !!

وأنا لاأذكى عليك ياربى أحدا!!

أحيانا أتذكر هذا الذى كان ... وأقول لنفسى .. ما أعظم دور الإيمـــان فى حياتنا !!

****

مضت الأيام المتراخية فى "عقلة الصقور ...تأتينى التعزيات مـن السماء ، وتؤنسنى تلك الغابة الصغيرة المورفة الظلال وسط الجبال والرمال بأحد الوديان ، تلك التى كنت أراها أمامى من صيدليتى ، ومن شرفة شقتى .. كنت أنظر إليها وأتذكر قريتى الجميلة فى دلتا النيل العظيم.

فى تلك الأيام جمعتنى الصداقة بأحد المصريين .. كـــان يعمـــل مقاولا ويملك سيارة نصف عمر يسافر بها مساء كل خميس إلى مدينة " الرس" حيث يلتقى بأصدقائة ويشترى احتياجاته ويعود مساء اليـــوم التالى ، محملا بالخضار والفاكهة واللحم البقرى... حيـــث لا تعـرف قريتنا سوى الجمال لتذبحها ،فضلا عن الأسعار الملتهبة فى تلك القريـــة النائية .

واعتدت أن أذهب معه وأعود فى اليوم التالى، وقد اشـــتريت كل ما يلزمنى.. وفى إحدى الزيارات، حضرت اجتماعا بالمســـتوصف،

مساء الخميس بعد إنتهاء العمل ..كنا فى نحو العاشرة، وكان الاجتماع لكل الصيادلة والأطباء العاملين بالمستوصف ، ورأيت ما هزنى فى تلك الليلة وأنا أنظر الزملاء من الأطباء البشريين الحاصلون على الماجستير والدكتوراه يجلسون وكأن على رؤوسهم الطير، بينما الشيخ/ ضيف الله يجلس على منصة أعلى منهم يوجه ملاحظات من كل شكل ولون، ويتكلم من " طرطوفة منا خيره " وهو يضع ساقا فوق الأخرى وحذاؤه فى مستوى عيون الجالسين!

ولما كنت بالصف الأول ، فقد شعرت أن حذاء الرجل فوق رأسى ، وضاق صدرى ، وغلى الدم فى عروقى ، وتمنيت لو كان بيدى " كرباج سودانى" لأنهال ضربا فى المصريين، أصحاب الشهادات العالية والنفوس الوضيعة !!

قمت كمن لسعه عقرب وأنا أقول للشيخ:

:لو سمحت ممكن تنزل رجلك لأنها فى خلقتى ، لو كنت عايزنى أكمل الاجتماع !

أنزل الرجل رجله وقام يقف وهو يمسك الميكروفون ويقول

:أنا وكل إنسان بالدنيا ما نساوى جناح بعوضة أمام الله العظمة لله

وأنا ياجماعة الخير أحدثكم كأخ .....

واستمر يحكى عن التواضع .. ثم أبدى بعض ملاحظاته على العمل في بعض العيادات وانصرف... والتفت حولى فوجدتنى محاطا بنظرات العطف والشفقة من الزملاء ، فلم ألق بالا إليهم ، وخرجت لأذهب إلى حيث أنام بالمستوصف ، إلا أن السائق الخاص بالشيخ / ضيف نادانى وأخبرنى أن الرجل يريد مقابلتى فى مكتبه بالدور الثانى.. وهناك كان الشيخ يجزعلى أسنانه وهو يسألنى عما أتى بى من عقلة الصقور.. فقلت له أننى لا أحب لحم الجمال ، لذلك آتى كل أسبوع لشراء ما يلزمى من لحم البقر، والخضر والفاكهة، التى لا أجدها بالقرية ، وأن أحد بنود العقد ينص على أن يوم الجمعة أجازة ، وأننى أعوض الساعتين اللتين أغلقهما قبل موعدى يوم الخميس، بساعات يصعب حصرها وأنا أحيا بالجبل حيث لا عمل لى إلا الصيدلية ،وأننى أفتح باب بيتى لأى طارق فى أى ساعة من الليل أو فى ساعات الراحة أثناء النهار.

وابتسم الرجل وهو يقول :

:إحنا مالناش بركة غيرك يابكيرى!!

ولفظ بكيرى فى اللغة العربية هو تصغير لاسم " البكرى "
والتصغير على ما أعلم فى لغتنا الجميلة يعنى التدليل الذى يوحى
بالمحبة والارتياح .

وخرجت من عنده ليلقانى بعض الزملاء وسألونى عما قاله
الرجل ، فقلت لهم . .

: لاشئ الرجل أخذ الموقف باعتدال.

وسألنى أحدهم إن كان قد قال لى مالناش بركة غيرك.. وأمنّت
على كلام الزميل وأنا أرد عليه بالإيجاب ... وهنا ضج الجميع
بالضحك ... ولما أبديت دهشتى من ضحكاتهم وسألتهم عما بهم ..
أخبرونى أنه علىّ الآن أن أحزم أمتعنى وأهيئ نفسى للعودة إلى
مصر .. وكان الرجل معتادا أن يقول تلك العبارة لكل من قرر
طرده من العمل وترحيلة خارج المملكة !

عدت أدراجى إلى عقلة الصقور فى اليوم التالى كالمعتاد، وبنظام
"الأتوستوب" بعد أن اعتذر لى المقاول المصرى الذى يصطحبنى
معه فى رحلة الذهاب والعودة، والحقيقة أننى لم أره مرة أخرى بعد
هذا ،وكأن الأرض انشقت وابتلعته !!

أمضيت أسبوعان آخران فى "عقلة الصقور" لتكتمل أيامى ثلاثة أشهر، أحببت خلالهم القرية وأهلها، وعرفت الكثيرين من أهل النجوع المجاورة من البدو البسطاء، وأكثر من مرة دعونى لتناول العشاء معهم، لنأكل " الكبسة السعودى" وأيدينا تمتد بلا معا لق لتكور الطعام وتدفعة إلى الأفواه ..أحببت الأطفال وطريقة نطقهم للغة العربية..أذكر أحد الأيام وأنا أهم بغلق باب الصيدلية،وإذا بطفلة تجرى وهى تلهث وتقول لى.. لا تسكر الصيدلية إنقذ طفلة مسكينة. أعطيتها الدواء الذى تحتاج، وحين أرادت أن تشكرنى بطريقتها..قالت لى ..

: صيدليتك جميلة.وانبهرت بحرف الذال، والجيم المعطشة، ونظرت إليها مندهشا من تلقائيتها فى نطق الحروف، مثلما ينبهر أطفالى الآن وهم يرون الأطفال الأمريكان فى المسلاسلات التليفزيونية، ينطقون الإنجليزية بطلاقة، فى الوقت الذى يعانون فيه الأمرين لحفظ الكلمات، فى المقررات الدراسية ويسألونى عن ذلك وأقول لهم ... لأنها لغتهم ...

كان هذان الأسبوعان هما آخر أيامى بعملى ، ومع نهايتهما داهمنى فى صيدليتى سائق الشيخ وقد أتى بسيارة كبيرة ليخبرنى بقرار غلق الصيدلية ،وإنهاء نشاطها، وأنه يتعين علىَّ تشوين الأدوية وتسليمها

للمخزن الرئيسى بالرس.. وفى عصر اليوم التالى كانت السيارة تنهب بنا طريق العودة .

لم أملك دقيقة لأودع أحداً ممن عرفتهم، ولكننى أذكر ذلك الصبى الصغير الذى كان يجرى وراء السيارة ، وقد بدأت المسير وهو ينادينى يادكتور .... يا دكتور... وحين توقف السائق ، أخرج الصبى سبعة ريالات وهو يقول لى : هذا دين علىّ للصيدلية ..

أصرّ الصبى على رد ما عليه .. وأخذت النقود وأنا أقول لنفسى.. ربما كان الشيخ / ضيف الله فى طفولته بمثل براءة هذا الصبى وبدلته الأيام !!

وفى الرس علمت أن إجراءات تأشيرة الخروج ستكون جاهزة خلال أسبوع.. وشعرت بسعادة يشوبها الحزن !! سعادة لأننى سأعود إلى بلدى لأول مرة وأنا أمتلك بضعة الأف من الجنيهات حسبتها كثيرة جداً !! وحزن لأنى ألفت الأماكن والناس بالقدر الذى جعلنى أشعر أننى سأفقد شيئا ما !!

وفى صباح اليوم التالى قابلنى رجل فلسطينى، فى أواسط العمر، جمعنى به ذات يوم حوار سياسى طويل بصيدلية عقلة الصقور.

شعرت بالحزن يملأ عينيه وقد عرف من "عدنان " صاحب المطعم أنى سأغادر المملكة. جاء الرجل خصيصا ليقابلنى بالمستوصف ويخبرنى أن إدارة الصيدلة "ببريدة" تحتاج إلى صيدلى للعمل ، وأن الذى يرأس تلك الإدارة هو الدكتور/ أحمد السبكى، وأن هذا الدكتور سعودى من أصل مصرى ، وقبل أن أبدى دهشتىمما أسمع، أوضح لى محدثى أن والد الدكتور/ أحمد كان طبيبا مصريا، وأنه أتى إلىالمملكة فى أواخر الأربيعينات، واستقر وتزوج قبل اكتشاف البترول من امرأة سعودية وأخذ الجنسية ، وأن الدكتور/ أحمد يميل كثيرا إلى المصريين ويحميهم من جبروت بعض السعوديين، وتأكدت من صدق كلامه وقد تذكرت الدكتور/ أحمد.. وكان رئيس اللجنة التى أختبرتنى لإعطائى تصريح مزاولة المهنة بالمملكة، وبالفعل كان كما وصفه.

وفى اليوم التالى مرّ علىّ محدثى الفلسطينى بسيارته وأوصلنى إلى بريدة ، وهناك تركنى أمام مبنى إدارة الصيدلية لأقدم طلباً للعمل بها ... حيث لا كفيل يمتلك الكثير من الغطرسة والقرارات المجنونة.

وكم سعدت بلقاء الدكتور/ أحمد الذى هش للقائى وهو يبدى ترحيبه بأن أعمل معه، وهو يشير إلى أن هذا لن يتم قبل سته أشهر ..

قال هذا وهو يمد يدة إلى التليفون يطلب صاحب إحدى الصيدليات الجديدة، والذى سبق له أن طلب عونه فى العثور على صيدلى ليديرها، له وافهمنى الدكتور أحمد أننى سأستمر بتلك الصيدلية وحتى يخلو مكانى بالإدارة، وبعد قليل حضر / سليمان الصالح السلوم.. كان شابا صغيرا حاصلا على الثانوية العامة، ويريد أن يبدء حياته بمشروع يدر عليه دخلا يضمن له الاستقرار، وأخذنى معه ليرينى الصيدلية التى أنهى تجهيزاتها ولم يبق غير الدواء والصيدلى ...

كانت الصيدلية بحى الصفراء .. أرقى أحياء المدينة، بشارع الأربعين، على مقربة من " فندق السلمان" الشهير، وقصر الأمير " عبد الإله آل سعود".. أمير منطقة القصيم. كان حجم الأبهه وروعة التأثيث بالصيدلية، يتضاءل أمامها كل ما رأيت من صيدليات باريس ولندن ، أما مكتب الصيدلى فكان يدفعنى للاعتقاد بأن مكتب رئيس الوزراء فى مصر، الذى لم أره من قبل، لن يكون أفضل مما رأيت. كانت جدران الصيدلية مغطاة بالقطيفة والمرايا، والأرض من أفخم أنواع الموكيت ، واستُخدم الألوميتال والأخشاب المكسوة بالفورميكا البيضاء لباقى التجهيزات.لم يكن أمامى مجالاً للتفكير أو التردد، وقبلت العمل، كما

قبلت دعوته لى على الغذاء "بفندق السلمان".. وهنـــاك وقعــت العقــد واحتفظت بصورة منه ، وأصرّ كفيلي الجديد على إيصالى إلى مدينـــة "الرس" التى عاد منها دون أن ينزل من سيارته.

عوضنى الله عن القرية الصغيرة، بمدينة كبيرة.. وعن الصيدلية المتواضعة بأخرى لا تقبل المقارنة بها.. وعن الكفيل الشـرس بـآخر يفيض طيبة ووداعة .

وبالرس أخبرت الشيخ /ضيف بما كان، وطلبت منه أن يتنازل عن كفالتي، ولكنه رفض متعللا بأن ذلك يقف عثرة فى سبيل موافقـــة الإدارة على استقدام صيدلى آخر، وأراد الرجل أن يثبت حسن نيته مــن جهتي، وسعادته بتوفيقي فى الحصول على عمل أفضل، وهـــو يعدنـــى بمرافقتى لزيارة كفيلى الجديد حين يخبرنى أنه أنهى إجـــراءات عمــل التوكيل،الذى يعطينى حق الحصول على تأشيرة دخول الســعودية مــن مصر. وبالفعل أوفى الشيخ ضيف ورافقنى بسيارته.. وفى طريق عودتنا فتح لى قلبة هو يروى لىعن جهادة وعذابه فى طريق النجاح، وكـــانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها الجوانب الإنسانية فـــى شــخصيته، وحاول أن يمتدحنى وهو يقول لى بلكنته الخاصة ..

:إنت راجل يا دكتور بكرى ... وأنا برأيى إنك أكثر رجولة من إخوانك المصريين المنافقين اللى يعملون معى بالمستوصف، واللــــى ينقلــون أخبار إخوانهم. ويشى كل واحد منهم بالثانى ، يجينى الواحد عنهم مكتبى لجل ما يعمل دسيسة على زميلة اللى ياكل معه عيش وملح، واللــه يــا دكتور.. حِنا (بمعنىنحن) إحترنا مع النجاســة اللــى فــى المصريــن وماندرى كيف نعالجها ، نجاسة ما هى فى أى جنس من اللى يعملــوا معى بالمستوصف.

خرمت الكلمة أذنى وألهبت قلبى سياطها وتحفزت لســيل مــن الكلمات وأنا أقول له ..

:إنتم اللى علمتوهم الخوف وأفسدتم نفوسهم واستغليتم الفقر اللى شــوه أخلاقهم.

وقاطعنىالشيخ حتى لا أسترسل فى كلامى، وهــو يحــاول أن يفهمنى أنه غير غاضب منى فى شئ، وأنه فضّل أن يعيدنى إلى مصر حتى لا أُفسد عليه كل شئ ،وأخبرنى أنه سيرسل معى سائقة بســيارته الخاصة مساء الغد، لأصل إلى المدينة المنورة مــع الخيــوط الأولــى للفجر، لأسافر بالطائرة فى رحلة مباشرة إلى القاهرة .

وبالفعل حزمت أمتعتى صباح اليوم التالى، وودعت زملائى الذين أدهشهم كيف سيرسل الشيخ سيارته الخاصة لمسافة ستمائة كيلو متر، رغم حرصة عليها حتى فى تحركاته الخاصة.. ومن أجل من !!

أتى عدنان الفلسطينى ليودعنى بدموعة،وهو يشعر أنه سيفقد نصيرة الوحيد بالمملكة؛ وفى رحلتى المسائية إلى المدينة، توقفت بقرية "عقلة الصقور" لنستريح بعض الوقت، ولأودع القرية النائمة فى هذا الوقت من الليل.

****

رغم قصر تلك الزيارة للمملكة.. فقد كان لها أثرا بعيدا فى نفسي.. قبلها كانت فكرتى النظرية.. أن السعوديين ليسوا كباقى البشر.. وأنهم أشرار بالفطرة ، وأن بلادهم صحراء تصعب الحياة فيها..... وهناك اكتشفت غير ذلك .. إنهم بشر يمكن أن نقع فى حب الكثيرين منهم كما نقع فى حب المصريين، وربما يحسب لهم أنهم أكثر صدقا مع أنفسهم ومع الآخرين، ولم يعد المناخ بالمملكة بالشئ المرعب الذى يقتل الأحياء.. فهناك أجهزة التكييف تحل المشكلة ببساطة، كما تحلها فى أوروبا.. والمفارقة الطريفة أننى كنت أسافر إلى أوربا لأرى أجهزة

التكييف تدفئ البيوت وأماكن العمل بينما الشارع غارق فـــى الثلـــوج ، والوضع معكوس بالمملكة حيث تقوم نفس الأجهزة بتـــبريد المنـــازل وأماكن العمل والجحيم يسيطر على الشوارع- وكما تحمى القوانيـــن العمال فى بلاد الدنيا ، وجدت القوانين تحمى نفس الطبقة من الجـــور والظلم ، ولم يعد الثوب الأبيض والعقال والغُطرة رموزاً للتخلف والجهل ومجافاة الحضارة .. واعتادت عينى على هذا الزى.. ومع الوقت بدأت أحسة جميلاً ومريحا.. كان يبدو لى أن السواد الأعظم من السعوديين قد انتقلوا من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة، وكنت أقول لنفســـى أنهـــم سينتقلون للأسف ... فى آخر المطاف إلى فساد المدينة..ذلـــك الفســـاد الخارق الحارق لكل الدروع التى لن تمتلك صمودا طويلا أمام الطوفان!

(العـودة الأولـى)

هبطت الطائرة في مطار القاهرة، ورأيت أخـــى عبد الله بانتظارى ، كنـــا فـــى أواخـــر اكتوبـــر (١٩٩٨) خرجت من المطـــار أجـــذب حقيبتـــى بيدى، وفى قلبى كانت مشاعر مـــن الارتيـــاح والحب تجاه من تركتهم على أرض المملكـــة، ولأول مرة كنت أشعر بتعاطف حى يسكن قلبى ويحاول أن يثبت وجودة وهو يسبح مع تيار الدم ليصل إلى عقلى في أوقـــات كثـــيرة ... دخلـــت بيوت الفلسطينيين المقيمين بالمملكـــة ، وأكلـــت معهم تلك الوجبة الشـــهيرة باســـم "المنســـف" واعجبتنى "المقلوبة" و"الكبيبة". وكان أكثر مـــن أثرفى نفسى هو"عدنان سندس" صاحب المطعـــم وأوضح مثال للشخصية الفلسطينية بكل ما وقع عليها من جور الأيام ، وعاديات الدهر !!

كان يحدثني عن المرار الذى يراه من الإسرائيليين كلما ذهب للاطمئنان على أهلة بمدينة " جنين"بالضفة الغربية، وحين يعود إلى المملكة تبدأ معاناه أخرى مع الكفيل الذى لا يترك له من أرباح المطعم إلا ما يكفية بالكاد .

استطاع " عدنان " أن يعيدنى بسهولة إلى طفولتى فى قرية "بلتان" وتلك العجوز الفلسطينية، التى اعتادت أن تهدينى برتقالة مما يتصدق به الناس عليها ، وتروى لى عن حقول الفاكهة التى تركتها فى"رام الله"، وكانت تشعرنى بالسعادة وهى تعدنى أن أمضى معها أياما فى فلسطين، وسط الحقول والحدائق، حين تعود إلى بلادها .!!

كنت أعيش معها أحلامها وأتخيل مغامراتى الجميلة فى تلك البلاد، وأشعر بسعادة يخالطها الخوف من " اليهود " ،حين تروى لى عن مذبحة " ديرياسين" بعيون ملؤها الدموع !!

****

علاقتى بأمى لها خصوصية رائعة، فأنا أكبر الأربعة الذين عاشوا معها بعد وفاة أبى ، ولم تكن حياتى سهلة ولا ممهدة، مما كشف من مشاعر الأمومة فى قلبها تجاهى، وتزوج أخوتى وانفصلوا عن

البيت بعد التخرج مباشرة ، وبقيت أنا إلى جوارها لتمتد فترة رعايتها لى... كل هذا مما زاد من ارتباطى بأمى، وعمق إحساسها تجاهى.

كانت كل همومها مركزة فى أن يباغتها الموت، وهى المريضة دائما، قبل أن استقر، وعدت من المملكة لأجد فتـــاة زرقــاء العينيــن، كستنائية الشعر، ممشوقة القوام فى انتظارى ..كانت وقد انتهت لتوها من دراستها الجامعية ،وفى صباح اليوم التالىأتت لزيارتنا وقد أعــدت كــل أسلحة المرأه لتغزونى بسرعة وعلى قدر ما يسمح بــه الوقــت الــذى سأمضيه فى مصر .

قالت لى فى أول لقاء أنها تعرفنى جيدا، ولما قلت لها أن هـــذا طبعا كان من خلال أمى، أنكرت كمن جُرحت كرامتها ، وهى تؤكد لى أن ما تعرفه عنى رأى شخصى لها ... وتعجبت من قولها ونحن لــم نلتق من قبل ، وتحدثت وقد أدركَتْ ما تعنيه نظرتى لها قائلة ..

:أنا عرفتك من قصايد الشعر الرقيقة اللى إنت بتكتبها.

:أنا بكتب شعر !!

وابتسمت وهى تقوم إلى المكتبة وتفتح أحد "الدوسيهات" وتخرج منه بعض الأوراق ... وبالفعل كانت مجموعة من الأبيــــات التـــى

كتبتها وأنا بالجامعة في الإسكندرية والزقازيق، ولأنها شعر عاطفي..فلم أكن أريها للآخرين ،وكنت أيامها أرى أن عواطف الإنسان سر من أسراره ، لا يجوز أن يطّلع عليها آخر.. وهكذا أوقعني الشعر في الحرج .. لقد كتبت ماكنت أعتقد أن له شكل الشعر السياسي وجاء معظمه أيام السجن، والمحاكمات الظالمة التي تعرضت لها،وكنت أيضا لا أطلع علية إلا القليلين..والسبب هنا مختلف.. فقد كنت أعتقد أن الشعر شئ مخيف وأن إدعاء أى إنسان أنه شاعر ليس بالشئ الهين ولا البسيط.. إنها منطقة حرام، وعلى كل من يحترم نفسة ألا يقتحم تلك الحدود إلا إذا كان أهلا لذلك، وأنا أرى أنني أكتب بعض الكلمات الموزونة والمقفاة لأعبر عن شئ في قلبي في أوقات قليلة، قد تكون محملة بالمعاني والمشاعر، ولكنها تفتقد إلى الكثير.. فأنا لست شاعرا بمعنى الكلمة ، والشعر له ناسة ممن امتلكوا نواصية وتمكنوا من أسراره، ولكن لا ضير في أن نعرض على الدنيا محاولاتنا الشعرية، كتعبير عن موقف إنساني ... بصرف النظر عن جودتها طالما أننا لا ندعي لأنفسنا أننا محسوبون على الشعراء .

المهم أن المُحارِبة الحسناء عثرت على بعض القصائد حين

أعطتها أمي الحق لتدخل غرفة مكتبي لتقرأ من مكتبتي ما تريد ، واعتبرت المحاربة الحسناء أن تلك القصائد هي أنا وأحبتها وأحبتني معها غيابا قبل أن تراني .

والطريف أنها عثرت أيضا مع تلك الوريقات على محاولتين كنت أظن أنهما تصلحان لأن تكونا من الأغاني ، وأيضا على زجل كتبتة بمناسبة مولد "محمد" بن أخي عبد الله ، فضلا عن صورة كربونية من رسالة كنت احتفظ بها كما هي عادتي مع كل خطاباتي التي أُرسلها للأخرين.. تلك الرسالة التي كنت قد أرسلتها بعد تخرجي من الجامعة إلى فتاة تعرفت عليها خلال الشهور القليلة التي عملت خلالها بصيدلية الأمل بطوخ ،ولأن تلك الكلمات في جملتها تعبر بصدق عن مواقف عشتها من قبل فسوف أنقلها إلى مذكراتي لتقدم شهادتها.

(١) الكذب حرام

فجَّـــرتَ فـــىَ عوالـــمَ

مـــاكنـــتُ .. أعلَمُهـــا

فقلـــت فِيـــك قوافـــى

مـــاكنـــت .. أفهمُهـــا

فـــلا كنـــت ولا كـــانـــت

أكـــاذيـــب لســـت أهضمهـــا

(٢) دمـــوعـــك

دمـوعـــك ... لا أُصدِّقُهـــا

وأشـــواق بقلبـــى

يـــومـــاً سأُغرِقُـــهـــا

غـــداً أعطِيـــكَ مناديلـــى

ترديهـا بالكـــذب مبللـــة

... ولســـوف أحرقهـــا

(٣) الأغنية الأخيرة

وإليـــك آخـــــر أغنياتـــى

ليـس الــوداعُ وإنه لو تعلمين

.... مــوات الكلمـــات

أنا للإساءة لا أكون مودعـــــاً

فيقينى أن الوداع يكون للحسنات

إذهبى غير مأســوف عليـك

وإنما..آسى ..لكثــرةُ العثرات

(٤) زهور الحب

يامن يقلبــى حيرتـى حيالهـم

شكوى بنفسى من قساوة طبعهم

يامن بهم لو هم تساموا للعلــى

وطنى سيعبر همه ..بحماسهـم

هيـــا إلـــى حـــب ..

يبــــدد أحزان المســـاء

نطـــوى المرارة والعداوة

.... للصفاء

نحفر بوادى النيــل أنهار

..............الرجاء

نزرع أزهارا نشم عبيرها

ننسى بها أحزان الحياة

.... ومرها

(٥) الأديان والحب

هــى الأديـــان ترنــو فــــى قداستها

لتـــزيــل أدران القلـــوب بنـــورهـــا

وبـــالأرض.. شعوب تأبى عن جفاوتها

أن تغـــزو أجـــواء السمـــاء بهديهـــا

(٦) مشاعر إنسانية

شاغلتنــــى .. طيبتـــك الفطـــــريـــة

واقتربـــت منـــك.. أقـــرأ هويتـــك

.... ووجدتها

ففى جيدك كانت .. قلادة قبطية

يا بلادى المصرية

هل السماء فيما بيننا

تُنكِر مشاعرَ الإنسانية !!

يا بلادى المصرية

متى تموت فى قلوبنا

... أحاسيس قبلية

ومن عقولنا .تسقط

.... عداوات جاهلية

يا بلادى المصرية

ما رأيك فى دعوتى القلبية

للحب .. والتسامح .. والإنسانية

(٧) أنت ... وأنا

أنـــــت .. وأنـــــا

كــــل شــــىء حولنـــــا

أنـــــت .. وأنـــــا

عالـــمٌ صغيـــرٌ يضمنـــــا

بعمـــرى ... يـــاحبيبتـــى

يكفينـــــى .. قربنـــــا

ففــــى حبــــــك

أنانـــــى .. أنـــــا

مــا للــدنيــا .. ومالنــــا

ألا يكفــــى الآخـــريـــن

أن يكــونـــوا مثلنـــا

أن نعلمهـــم حبنـــا

مـــا أعظـــــم .....أن

يكونوا .. مثلنا

فنحن ياحبيبتى

نعلم الحب

من حولنا

(٨) لست الأخريات

لست أنت

مثل كل الأخريات

وهل رأينا النيل يوما

مثلما كان الفرات

لست أنت الأخريات

أنت شعر

فى بلاد النيل

.. أحلى الأغنيات

لن تكونى مثلما كانوا

وفى عينيك للحب لغات

أنت سرٌ

لا يقال في كلمات

في قلبك المسكون بالنشوى

حنان الأمهات

لست أنت الأخريات

لا............

فأنت شيء يختلف

يحيا ....

كما في دنيا النحل

.. تحيينا الملكات

لا تكوني شيئاً

غير ما كنت

فعطي دربك أنت

يوما تسير الأخريات

(٩) نبـدأ مـن هنـا

فـى حبـك .. أنظـم القصائـد الطويلـة

وأذكر دوما فى عينيك ... رحلتى الجميلـة

ليتنـا .... أنـت وأنـا

نبـدأ مسيرتنـا مـن هنـا

مـن لحظـة أن ضـاع منا معنى الزمـان

مـن لحظة أن أطلقنـا فى وادى النسيـان

مخاوفنـا مـن الجـان

مـن لحظـة أن شعرنـا أننـا

نمتلك فـى الدنيـا...... الأمـان

مـن لحظـة أن صـار قلبينـا

بالحـب يمتـلأن

ليتنـا .. أنـت وأنـا

نبـدء مـن هنـا !!

(١٠) حبــــك

حبـــــك شــــىء قـــوى

أقــوى منى ...... يــرهقتــــــى

يجـــــرى أمـــــام عينـــى

.... يخيلنـــــــــى

حبـــك ......يـــاحبيبتــــى

..........شـــىء يبهـــرنـــى

فى حبـــك

..............عرفت أشياء جديـدة

...........دومـــا تحيرنــــى

فى حبـــك

......عرفــت كيــف يكون السهـــر

......فــــى ليـــل المحبيــــن

......طويـــــلا يؤرقهــــــم

....عرفـــت كيـــف يكـون الوجـد

فـــى قلـــــب العاشقيـــــن

ثقيـــــلاً يعـذبهـــــــــم

فــــى حبـك

عرفت ......وعرفت ....وعرفت

أشيـاء مـا كـان أعـزيهـــا

وجـرت فـى قلبـى المجنـــون

.....................أوهامـــــا

مـــا كنـــــت أرهبهـــــا

ويـــت أشقــــى بمخـــارف

تجــــرى مــن حــولـى

وأشيــــــاء أخـــــرى

مـــا كـــان أغربـهـــا

حبـــك

يشقينـــى ويسعدنـــــى

يقربنـــــى اليــــك

ثـــــم يبعدنـــــى

يعطينـــى الأمان والسلوى

وأيضـــا ...منها يسلبنـــى

حبيبتـــــــى.....

مـــن حيرتـــى أنقذينـــــى

ومـــن قلـــب بصـــدرى

صـــــــار يلهبنـــــــى

حبيبتـــــى ......

صمتك فوق احتمالــــــى

فتكلمـــــــى.......

وقولى شيئا منك يقربنى

.........أو إبعدينى عنك

يـــــادنيـــــا...

فيها رأيت الأحزان تغرقنى

أريحينـــــى...

فحبـــك يلهـــو بقلـــــبـــى

ينشـــب فيـــه الأظافـــــــر..

كـــــى يعذبنــــــــــى!!

(١١) لا تحزنى

لا تحزنى

فالحزن منك حـــرام

وافرحى بالحـــب

عيشى للغــــــرام

لن يكون هــذا مستحيلا

إن عرفـــت الآن

...أنـــى لا أنـــام

أنـــت أطيـــاف السماء

روحـــك الحلـــوى

تحـــوم فى دنيـــاى

تلهمنـــى الرجـــاء

عدت .. فهرب الحزن

وقد كان أخلص الاصدقاء

(١٢) حبينى أكثر

حبك .. أعرف فيه مكانى

.... فوق الأرض

حبك ..... كان لقاءاعرف منه

.... معنى الجد

حبـــك...... عانق قلبـــى

كموج بحر يعانق الشطئان

حبك ...

أنسانى حكايات الأحــزان

حبك ...

في عينى أفراحـــــا

تملأ حولى كل مكان

حبينى ...

أكثر.. أكثر.. أكثر

فأنا فى حبك

أكبر .. أكبر .. أكبر

(١٣) بحثت عنك

كم بحثت عنـــــك

قبل ذاك اللقـــــاء

كم مضى الدهر طويلاً

لايـــــروم إلى انتهاء

وتأخرت ...

فمرت الأيام ترهقنى

تمـــزق أحلامــــى

أشـــلاء.... أشـــلاء

كم حبست الأنفـــاس

.........فى صدرى

فصار يخنقنى الهواء

والهوى...

يعصف بأفكـــارى

فيحرمنـــى الرجـــاء

وتجـــئ الشمــــس

وتذهـــب كى تنـــام

وأظـــل يقظانـــــا

مــــع الغربـــــاء

آه .. ياحبيبتى

فى عينيـــــك

تسكن فرحتى

وفى لمس يديك

كانت يقظتــــــــــــى

حتى أفكارى فى حبـــك

مع الأيام صارت سلوتى

أنفاسك ...

فـــى نومـــــى تلاحقنـــى

فأصحو .. أنشق النسمات

كلماتك ...

تزقــزق فـــــى أذنـــــى

فتنثر فى نفسى الزفــرات

عودى اليوم غيــر ذاهيـــة

وأبقى معى .. حتى الممات

أغنية (١) ما تقوليش

متقوليش

ليه اللى بينا انتهى

متقوليش

لية اللى كان اتنسى

متقوليش

فين ذكرياتنـــــا

ومتحكليش

عن اللى فاتنـــا

وأسألى نفســـك

كنت فين ؟!

لما سيبتى الحب اللـــى

كبرناه فى قلوبنا سنين

يدبل

كنت فين ؟!

لما ناديتك بخوف قلبـــى

وأنا شايف مسافات البعاد

بتوصل بعضها

واتولد بينا طريق طويــل

مليان قساوة وجفـــــى

أحســن لنا د لوقـــــت

منقلــش اللى كــــان

أحســن لنــا نبعــــــد

وننسى فى قلوبنا الحنان

أحسن لنا ألــف مـــرة

نبدء من جديــد

بـــس البدايـــة

متكنش ويا بعضنا

يمكن قلوب تانيـــة

تحـــس بنبضنـــــا

واللى مقدرناش علية

لمـــا مشينـــا ســوا

طريق الحب أيامه الطويلة

يمكن فى غيرنا نلاقيــــة

نقدر علية

لما نفتح لقلب تانى

يدخل حياتنا ويقطف الأشواق

ومتقوليش

لية اللى كان اتنسى

متقوليش

فين ذكرياتنـــا

متقوليش

عايزه اللى فاتنا

واسألى الحب اللى لازم بكره جاى

اذاى يعيش ويكبر

جــوه فى قلبنـــا

من غير ما نغفل عنه

لحظة فى عمرنـــا

اغنية(٢) كم تمنيت

كم تمنيت يا أمــلا

لو تطرقى لى بابا

.... سأغلقــه

فى وجه حب

ربما يشقينى

فأنا فى هواك أخــاف

من حب مضى

زكراه تؤلمنى وتضنينى

وها هو حبك

يأتى بشكل لا مثيل لــه

وأعرف الأن أنه

يغزو حصونــى

تعالى ..

واكســرى لى بابا

إن كنت أغلقـــة

ولا تدعىالأبــواب

عن الأشواق تثنينى

هل تدركين

أنـــك اليــوم

إن تأخــــــرت

فسوف أقبل أنا

فإن أتيتـــــك

فلا تصدينــــى

ولا تدعى خوفى

عنك يفصلنـــى

فأنت الآن صرح

.....منه تكوينى

فما للحياة

بدون حبك رونق

ومن يدرى

فمن جراحى ربما يشفينى

تعالى ...

وإن بيتِ الغدر .. ياأملا

فربما الأيـــام .. تدريك

.... كيف تبقينــى

* زجل *
يا واد يا مودى

محمد ياابن عبد الله .. ياتـــواره

يابسمة حلوة جوه العيلة .. دوارة

ياكلمة حب فى يوم كانت

بين أخويا وبين جـــارة

وجيت للدينا ياصغيـــر

لجل ما تفرح الحـــارة

****

جيت حداتا

مرحب ومرحبتين يامودى

يا وردة حلوة

فرشت لنا الدنيا هنـــــا

وآدينى بفرش لك وعودى

قدام كل اللى جلنا هنـــا

بشهدهم على جهـــودى

إنى أخليها تمهد لك طريق الحب

وتخلق فيك بكرى يحب الصعــب

راجل يحب فى الدنيا

أنوار الإيمان

راجل يحس بالإنسان

فى كل مكان

ويزرع فى ريف بلتان

أعواد الريحان

* ***** *

جيت وهليت بعد سنين

تضم اسمك لاسم أبوك

ولو تصدق يابنى .. قبل ماتيجى

أهلك هنا .. عرفـوك

واستنوك

ذى حلم جميـــــل

هييجى يملى دنياهم

ذى قمــــــر الليل

هيطلع يضوى فى سماهم

****

ياواد يامودى

فى قلبى كلمة واحــــدة

نفسى أقولها للسيدة مامتك

وبعد ما معزتها فى قلوبنا
زادت كمان قناطيـــر
فيها آية ياست الهوانم
لو تسعفى النونو بأخوة
يكبر معاه ويتربى فى عز أبوه
ويكون له فى مشوارة سنـــد
دا أكيـد هيطلع ولـــد
وساعتها هتشوفى معزتك
فى قلوبنـا .. تزيد إزاى
بس انت يلا إجمدى
... ومتقوليش ازاى

****

وإوعى يابنت الناس
من صورة الشيطان
دى اللى بيسموهـا .. تليفزيون
وهو فى السما ملعون
بيقولـوا فيه رواية عن أخيـن
محمدين واحد منهم
والتانى كان حسنين

وقالوا فيهــا كلام

يخلى العقول تتوه

آه م -المؤلف

صدق اللى قال أهلة ما ربوه

ووالله لولا الملامة

لكنت ألعن أبـــوة

بيقول كلام للناس

يفتح عليهم م – الجحيم أبواب

بيشكك الدنيا فى حبكة ربهــا

هو الكريــم يانـــاس

ينسى عبادة فى يوم

وإذا كان مقيش حد منا

يعرف بكرة آية يكون

ليه بس يفتى

ويعرض نفسه لكلمة لوم

****

جيبى ياسونيا العيـــال

واغلبى جوزك .. ليغلبك بالمال

وكلفتيه بالتانى .. ياأميــرة

تبقى صحيح عقله وخبيرة
ويبقى إيمانك مهواش كلمة تقوليها
لكن عقيدة واجب عليكى تطيعيها

****

بديتى بحمد ..... الحقية بيسلال
تلاقى رزقة فى السما .. كوام وتلال
واتوكلى وع ـ الأربعين تكونى حامل
يسعد زمانك وتسعد معاك الدنيا ياسونيا
وساعتها عن قلبى جوزك لايمكن تبعدى ثانية

****

قرأت الغازية الحسناء تلك الوريقات والتهبت مشاعرها وأحست أمى لأول مرة بقيمة ما كنت أكتب ، وهى تـرى آن الشعر سيكون طريقى للزواج والاستقرار، وحين وصلت الغازية الحسناء إلـى الزجل أسعدها كثيرا أن ترى ثورتى على تنظيم الأسرة وحبى اللأطفال الذى شعرتة يوافق مزاجها ووجهة نظرها فى الحياة وهى الفتاة الريفيـة كحالى أيضاً.

ولما انتهت إلى تلك القصاصة التى لم تكن سوى صورة الخطات الذى أشرت إلية من قبل وصل حبها إلى الزروة وهى ترى فى أشياء لا أراها أنا فى نفسى .كنت أفترض أن يخيفها الخطاب الذى أعتقد أنه يبرز

جوانبا غير ديمقراطية فى علاقتى بالجنس الآخر.. تلك الجوانب التى تنبع جذورها من تكوين الرجال فى الشرق عموما وهم حديثى العهد بدور المرأة الذى تجاوز ما كان مرسوما لها فى مجتمعاتنا ، لهذا أضمن مذكراتى صورة من هذا الخطاب الذى قد يعده البعض وثيقة اتهام لى .

قلت فى خطابى

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتى :(ن)

فضلت أن أكتب إليك ، لعلك بعيداً عن ثورة النقاش والرغبة الفطرية فى كل إنسان لتبرير تصرفاته تستطيعين إدراك مافيها .

أكتب لك ولا أنتظر أبداً أن تأسفى على شيئ ، ولست أحب هذا منك ، فقط أحب أن تتعلمى المعنى من الأشياء التى تجرح حياتنا .

تعرفين أننى كنت أحاول أن أخلق فيك روحا قويا ،يجعلك فوق أن تفرض عليك الأخطاء من خارج ذاتك ، فبداخلى كان شيئا يصدق أنك من طبيعة لا تحب الخطأ ولاتستسيغة ، وحتى فى خطأك سيكون العيب كل العيب عند الحياة وملابساتها التى قد تجور على أصحاب النفوس الشفافة .

ولكنى لست أفهم .. لماذا فعلت مافعلت !!

ليتك تتذكرين بذهن صاف ماكان ..

إنه شيئ لا يفسر ..

شيئ ربما يصدمك وأنت تتجولين فى ثنايا عقلك لتعرفى دوافعه !!

(ن) .. يزعجنى فى الحياة كثيرا أنها خلقت صنفين من البشر يختلفان كل الاختلاف رغم أنهما شيئ واحد فى الأصل

الصنف الأول : له "روح السادة " .. وهى روح بها عزة نفس ، وحدثتنى أنت عنها كثيرا ، وأردت أن أذكى فيك تلك الروح .. ولكن أين كانت عزه نفسك فيما كان !!

هل عزة النفس أن تعصى المرأة من ارتضته زوجا لها !!

هل عزة النفس كانت فى تصرف صبيانى لا يعرف المسئولية ؟!

لست أدرى ماذا كنت تقصدين بعزة النفس ، وما مفهومها فى ذهنك الصغير الشاب ، الذى قد يشوهه وهو عود أخضر المشوهون ممن يعيشون حولنا فى كل مكان ، هذا التشوة الذى أحاول حمايتك منه، لأخلق فيك معنى العزة والكرامة كما يفهمها الأصحاء من البشر والمعافين من كساح النفس .

أما الصنف الثانى من البشر ، وبغير ذنب فى ذواتهم ، فقد ملكوا " روح العبيد "

إنها الحياة التى قد تحابى البعض على حساب الآخر ، لتخلق عبيداً وسادة فى نفوس البشر.

كان أملى أن تعى أننى لا أحب توجيه الأوامر لأحد فالأوامر إنما توجه للعبيد .. كنت أحب ألا تضعينى فى موقف آمرك فيه بشئ ، لأن

من اعتاد أن يتلقى الأوامر ، سوف يتلقاها يوما ممن لا يجب أن يأتمر بأمرهم ، ولكنك للأسف ترغبين فى تحديد هذا الشكل لحياتنا من الآن

لعلك تقرأين كلماتى أكثر من مرة لتعرفى ماأجهد نفسى فيه بالقول والفعل من أجلك ، ولتأمرى أنت نفسك بألا تفعلى شيئ .. أى شيئ أنا لا أرضاه.

أود ألا أنهى خطابى قبل أن أضمنه أمرا لك لتعرفى أى فارق ذلك الذى يكون بين الأمر، ومحاولاتى الطويلة لتأخذى أنت قرارا أريده بنفسك. أفعل هذا حبا لك وعدم بخل منى بأى مجهود من أجلك .

فأنت تعرفين أننى ومنذ شهرين اقترب بك برفق إلىقرار ترك الشغل .. كنت أذكر لك هذا تصريحا مرة وتلميحا أكثر المرات ، ودائما فى غلاف جميل لا يمس إحساسك .

أما الآن حين يصلك خطابى عودى للعمل فى اليوم التالى لتخبريهم أنك ستتركى العمل خلال " ثلاثة أيام " بحد أقصى ، وابدأى فى تسليم كل متعلقاتك من اليوم الأول .. وإن كان هناك من يحاول تأخير ذلك بالضغط عليك سواء فى دائرة العمل أو خارجها ، فأخبرينى لأزيل من طريقك أى عائق .

تذكرى عزه نفسك لتقولى لا..

ولاتنسى أن الطاعة الحلال إنما تكون لخالقنا ولزوجك .

ترى ماذا يدور بعقلك الآن وأنت تقارنين بين ما كنت أفعل بالصبر

والجهد أياما طويلة ، وما أنهيته الآن بكلمة كلفتنى دقيقة واحدة فـــى عمر الزمان .. **لأقول لك لا تفعلى كذا بالامر!!**

محمد

****

نهاية القول أن الغازية الحسناء بعد أن قرأت ما قرأت وكونت فكرتهـــا عنى ، أخذت قرارها بأن تتزوجنى، بتشجيع من أمى ، ولكنهـــا بعـد أسـبوعين تقريبـا أحسـت باليـأس، ولـم تعـد إلـــى زيارتنـــا.

حكايـة كتـاب

مضى شهر نوفمبر فى مصر ، ووصلنـــى خطاب من كفيلى الجديد يخـــبرنى بأنـــه لـــم يستطع تدبير المال اللازم لشراء الأدوية التى سنبدأ بها العمل، وأن الافتتاح قد يتأخر بضعة أشهر، وفكرت فى استغلال هذا الوقت الضائع فى شئ مفيد.

قلت لنفســـى ... لقـــد كتبـــت الروايـــة والمسرحية والقصة القصيرة وكتبت فى علـــم الأديان المقارن، ولى خواطر ورؤى فلســـفية شملت العديد من جوانب الحياة.. فلماذا إذا لا أكتب فى السياسة ؟!

أعرف أن كل القوالب الأدبية التى جربتها حوت موضوعات تفوح منها رائحة السياسة،ولكنى أريد كتابا سياسيا صرفا،يتحدث

عن موضوع سياسى بعينه، يحلله ويناقشه ويبدى وجهة نظر فيه. كم أتوق أن يكون لى عمل كهذا.. خصوصا وأننى أرغب فى تناول السياسة من وجهة النظر الإنسانية، لا كما يفعل المحترفون والضالعون والمتشيعون لأفكار وجماعات هنا وهناك..أريد أن أكتب كإنسان تمس السياسة حياته بشكل مباشر، وتؤثر فى أحاسيسه ومشاعره.

كانت مشاعرى الجديدة تجاه الفلسطينيين تجعل موضوع العلاقات العربية الإسرائيلية يطفو دوما فوق السطح ، وتدفقت أحساسيى بحماس لأكتب القصة الفلسطينية، كإنسان لا كسياسى محترف، وبعيدا عن المزايدة ...

كنت أرغب فى أن أكون صادقا، لتصل كلماتى إلى كل القلوب، وتمنيت أن تكون كتاباتى بقلم الأديب والفيلسوف ، وقد غدوت أعتقد أن امتلاك القلوب فى الفكر السياسى، لا يقل أهمية عن امتلاك العقول.

كنت أعرف أن مجال العقل فقط فى البحث بتلك القضية، لن يسمح لى بأن أكون كاتبا متميزاً، وسط هذا الزخم الهائل من المتخصصين.. وباتت عقيدة راسخة تملأ كيانى، بأنى لو سلكت فى

السياسة مدخل القلب، فسأكون لونا مختلفا ومذاقا جنيدا فاتحـــا لشـــبية الراغبين فى إدراك ما هو أعمق من السياسة، ومـــا هـــو أصـــدق مـــن الساسة، ومن مجرد التشدق بالكلمات لأغراض كثيرة أغلبها باطل.

وبدأت أجرى وراء المكتبات استعير وأقرأ.. وكأن حمى الرغبة فى المعرفة قد أصابتنى وأعادت إلىّ الشباب الذى ولىّ.. وهكذا بدأت معركتى الجديدة بأكلة" منسف" مع بعض الفلسطينيين ، وبضع حوارات وملاحظات وانطباعات أيقظت كل ذكريات الطفولة، وانتهت بكتـــاب كاد أن يدخلنى السجن، ويلصق بى تهمة "الخيانة" فى مجتمع لا يعـــرف غير هذا المصطلح، ويكثر من استعماله ويلصقه بكل من فكر مســتقلا فى لحظة تألق روحى، ولست أدرى لماذا يحضرنى قول المتنبـــى حين أسخطه كافور الإخشيدى فقال:

" يا أمه ضحكت من جهلها الأمم"

وقوله فى مقام أخر

ما مقامى بأرض نخله إلا .: كمقام المسيح بين اليهود

أنا فى أمة تداركها اللـــه .:غريب كصـــالح فى ثمود

وسأنقل إلى مذاكرتى بعض صفحات من مقدمة كتابى "الرحلة

الشاقة" ..الذى كتبته سنه ١٩٨٨م لأنها تحكى عن واقعـــة لا أحـــب أن أغفلها فى مذكراتى، ولا أحب أن أعيد صياغتها.. سأنقلها كمـــا هـــى، كما نقلت محاولاتى الشعرية السابقة لأحفاظ على نفـــس الانفعـــال الأول بكل ما فيه من صدق وتلقائية.

سيطر موضوع الكتاب على عقلى ووجدانى، وأصبحت أســـيراً للفكرة .. تملى علىّ فأطيع وأنا صاغر... كـــانت المعرفـــة تســـعدنى وتحيلنى إلى عصفور مغرد لا يقف على غصن ، وينتقل فى حبور مـــن فرع إلى آخر، منتشيا تلعب بقلبة أهازيج الفرح، كلما عـــرف شـــيئا جديداً. كانت تزعجنى تلك الفترات الغامضة فى تاريخ اليهـــود، ولـــم تكن المكتبات ولا حتى الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة، تضم بين ضفتيها ما يشفى غليلى إلى المعرفة، وبات جليا أن المكتبـــة العربيـــة تفتقـــر بوضوح إلى كتب تعالج هذا الموضوع، ولست أدرى أين عثرت على الثقة التى بها قررت أن استقى المعلومات من أرضها!!

إن مجرد القراءة لايكفى، حتى ولو وقعت بين يدى كـــل كتـــب العالم التى تناولت هذا الموضوع، أريد أن أرى بعينى ..أن أحكم علـــى هذين الشعبين اللذين يعيشان على أرض واحدة، وقد نبتت بينهما كـــل

أنواع التناقضات !

لا أريد وصفا من كتاب.. فكل معرفة مكتوبة هي في النهاية حصيلة فكر لإنسان غيرى، أضاف إليها من مشاعرة وأخرجها بما أحس ووقر في قلبه.

سأسافر إلى هذه البلاد التى خضنا معها كل تلك الحروب، واعتبرنا أن بقاءنا مرهون بالقضاء عليها .. وهناك سأنفق كل ما حصلت عليه من نقود نظير عملى بالسعودية .. ليس كثيراً أن أنفق كل ماعندى لأهدى للدنيا بضع كلمات ،ربما أضافت شيئا جديداً للمعارف الإنسانية.

لقد رأيت فلسطينيين من قبل ..

ولكن ما بال اليهود ؟

ترى.. كيف يكون عقلهم ؟

هل يحسون ويشعرون على طريقتنا نحن فى مصر ؟

"السادات " كسر الحاجز النفسى بزيارته!!

وكان كسر على مستوى القمة!!

ولكن.. ماذا عن الناس الذين أنتمى الى عامتهم !!

ماذا عن الانسان العادى الذى إن أمسك بالقلم ليقول شيئا، فلن يراعى غير إنسانيته هو، بلا تكليف من حزب أو جريدة، بلا مصـــالح تُملـى عليه كيف يتكلم ويشعر ويحس ، وكيف يحقق مصلحة من كل مايقول!!

وسافرت إلى القاهرة ، وهناك فى ميدان التحرير كنت أسأل فى إحدى الشركات السياحية.

أين سفارة إسرائيل؟

كانت الساعة الثامنة مساء الثلاثاء ١٩٨٨/١/١٩م.. وتكهـرب الجو فى لحظات، وتلعثم الموظف وهو يخبرنى أن آتى صبـــاح اليـوم التالى لأسأل من تدعى مدام " إيمان"، وتعجبت من الفزع والهلع اللذان تملكا الرجل.. والغريب أن نفس الشيء حدث فى شركة أخرى تلى هذه الشركة، حتى أننى لم أجد مفراً من زجر الشابة الصغيرة التـى كـانت تحدثنى، وأنا أستنكر الرعب الذى أصابها ، وتخلصـــت هـى منـى.. برجائى أن آتى صباح اليوم التالى لأسأل موظفى الصباح.

وفى الصباح كان الموظفون الثلاثة بالشركة يحاولون التخلـص من خفافيش خوف تسكن الخراب الذى فى قلوبهم ، وللأسف.. حتـى النور الساطع والدفء فى صباح بلادى المشرقة، لم يستطع أن يطلـق

الخفافيش من عقالها لتبحث عن الظلام فى مكان آخر!

لم يكن لديهم أى معلومات عن عنوان سفارة إسرائيل، أو حتى تليفونها ، وبصوت مبحوح خفيض، كانت إحدى الموظفات تحاول الإتصال بالاستعلامات لتعرف شيئا منهم .. وحتى الاستعلامات لم تكن بأعلم من السائل !!

ولما ألحّت الموظفة على من تسأله إرضاءً لى ،أحسست من شكل الحديث بينهما، أن على الطرف الآخر من التليفون إنسانٌ يستغفر ويحوقل ويدعو الله بالستر فى الدنيا والآخرة، وأخيرا طلب منها مهلة ليحاول الحصول على المعلومات المطلوبة .

وبعد دقائق حصلت على العنوان ورقم التليفون، واتصلت من الشركة السياحية بالرقم لأتأكد من العنوان ، ولأسأل عن امكانية الحصول على تأشيرة سياحية إلى إسرائيل، وأخبرنى محدثى أن هذا الأمر يتطلب حضورى للسفارة بعد الساعة الثانية عشرحيث يبدأ العمل.

كان أمامى أكثر من ساعتين ، ولم أكن قد تناولت إفطارى بعد، فتوقفت بعد قليل أمام أحد محلات الفطائر، وقد أستوقفتنى الرائحة الموحية، وعلى إحدى موائدة كنت أتلكأ فى مضغ الطعام.. لأضيّع

الوقت. وبعد نحو نصف ساعة خرجت بعد أن طلبت من أحد العمال أن يلف لى نصف الفطيرة المتبقى ووضعته بحقيبتى .

وفى طرف الميدان أمضيت نحو الساعة بمقهى "أسترا الشهير"، وخرجت بعدها قاصداً شارع بن مالك بالجيزة.

وهناك بمدخل العمارة التى يحوى طابقها الثامن عشر والأخير سفارة إسرائيل، وقفت أسأل أحد جنود الأمن المصرى عنها، فأشار إلى الأسانسير الخاص بالسفارة . طلبت منه أن يحتفظ بحقيبتى وحتى أنتهى زيارتى للسفارة، فأشار إلى مكتب الأمن ، وهناك سألنى الضابط المسئول عما بالحقيبة.. فأخبرته أنها بعض الأوراق ومدسى المرخص واحتفظ الرجل بالحقيبة وهو يشير إلى الأسانسير.

****

والحقيقة أننى كنت أنوى الرجوع من القاهرة الى "عزبة بلتان" لزيارة أختى الكبرى / أسماء ، كانت عائلة زوجها فى تلك الأيام تحيا أحداث ثأر رهيبة ،بعد أن قُتِل الحاج/ محمد أبو شعير عم زوجها وعمدة البلد، وكان سامحه الله قد قتل حتى تلك الآونه كما هو شائع بين الناس، أكثر من عشرين رجلا ، كثير منهم قُتل فى عز الظهيرة

وأمام الناس، بطلقة واحدة فى الرأس، وليس هناك من يجـــرؤ علـــى الكلام!!

استمرت حوادث القتل حتى قُتل الحاج / عفيفى ناظر المدرســـة والمنافس لمحمد أبو شعير على العمودية، ومات بنفس الطريقة.. طلقة واحدة فى الرأس من مسافة قصيرة وأُتُهِم فيه/ محمد أبو شعير ولـــم تمض شهور حتى قتل/ محمد أبو شعير نفسه بأكثر من ثلاثين طلقة من رشاش آلى، وعلى باب قسم الشرطة بيلتان ..

فى تلك الظروف كانت أختى نفسها تحمل سلاحا ناريا تضعة فى متناول يدها وهى نائمة إن غاب زوجها ليلا ، وكنـــت أفضـل حمـل مسدسى حين أقوم بزيارتهم ..

****

وعند مدخل السفارة أطْلعت أحد العاملين على جواز ســـفرى.. وكان يحدثنى من خلف زجاج شفاف وبجهاز مشابه تمامـــا لمـــا كـــان بمكتب الأمن المصرى، بردهة العمارة. اتصل بمكان آخر فى الســـفارة ليسأل عن السيد/ دفيد سجيب.. الملحق الثقافى ،وأتى الرجـــل ليقابلنى بصالة السفارة..

كان مهذبا للغاية، مجيداً للغة العربية، ينطقها بسلاسة ودون لحن كما يفعل المذيعين منا والمذيعات، فى تليفزيون مصر وأيضا السعودية، فبحكم عملى بالمملكة عرفت هذا، وأحزننى أن يلحن أيضا أهل اللغة بشبه الجزيرة ، وأحزننى أكثر من هذا وذاك، إجادة السيد/ "دفيد سجيب " للغتنا على هذا النحو !!

لم يبدُ الرجل اعتراضا لمنحى تأشيرة دخول، رغم الانتفاضة التى كانت فى أولها، ولكنه أبدى تشككه فى أى تسهيلات لى من الجهات المسئولة بمصر، وكدت أوجه إليه لوما يصاحبه تقريع واستنكار لتشككه المريض!

قلت لنفسى

: إن هذا الأحمق لايعرف "بلادى الجملية".. ربما لأنه أتى من بلاد لاتعرف الحرية، ولاتحترم مواطنيها متعددى العروق والأصول، لهذا يظن أن كل بلاد العالم مثل بلادة!!

وفضلت أن أنتظر حت تبدد له الأيام شكوكه وتجنياتنه، على "بلادى الجملية "!!

كان الرجل واثقا من أنه لن تكون هناك معوقات فى إسرائيل

أمام الحصول على أى معارف، قد أراها مفيدة لتكوين فكرة عن مجتمعهم، وأحتاجها فيما أنوى الكتابة عنه. شكرته و .. أنصرف وأتركه لأعود إلى الأرض .. أرض بلادى الجميلة !!

ويالها من عودة!!

كانت الدنيا قد قلبت على مابدا لى خلال تلك الدقائق !!

وكان فى انتظارى الإخوة الأعداء ،وبدأت رحلتى إلى مباحث أمن الدولة فرع الجيزة ، وهناك بدأ العقيد/أحمد رمزى تحقيقة معى.. وسألنى إن كنت أعرف فلسطينيين أو إسرائيليين.. وأجبته بالنفى.. وأوضحت له أننى أعرف أسماء فقط.. وزملاء الجامعة من الفلسطينيين ليسوا معارف بالمعنى المعهود لتلك الكلمة، ولم يكن بيننا غير ما يسود بين الطلبة من تبادل للمحاضرات.. كانت زمالة ومضت لحالها ولا أذكر إلا أسماءهم بالكاد، والسيد/ دفيد سجيب الذى رأيته قبل دقائق ليس من معارفى بطبيعة الحال، وفى السعودية حيث أعمل ليس لى صداقات متينة مع الفلسطينيين ..هناك مترددين على الصيدلية التى أديرها كزبائن أو كموزعين للدواء أتعامل معهم، وهناك صاحب المطعم "عدنان سندس" الذى كنت أفضله على غيرة.. فقط لأنه قريب

من عملى ولأنه يتعامل بأسعار خاصة معى، ومع العاملين بالمستوصف الذى كنت أنتمى إليه بشكل عام، وأيضا كنت أخص المدعـو "عدنـان سندس" بمشاعر حب، مصدرها شفقتى على أحواله ومعاناتـه، ولأنـه اختارنى ليشكو لى مما يضايقه فى الحياة.

والحقيقة أن أسئلته تلك تذكرنى الآن وأنا أكتب تلـك الكلمـات بفتاة إسرائيليةُ تدعى "سارة " من "تل أبيب".. رأيتها بالاسكندرية فـى بيت الشباب بالشاطى، فى تلك السنوات التى أعقبت تخرجـى.. كنـت أيامها أقوم بعمل سياحة داخلية فى مصر، لأعرف بلدى التى يأتى اليها السياح من كل الدنيا، ونحن نجهل عنها مايعرفه "الخواجات" .. كنـت فى تلك الأيام "زبوناً" لمعظم بيوت الشباب.. خصوصا بيت الإسـكندرية .. المدينه الجميلة التى وقعت فى حبها ، والتى لاأستطيع أن أكتب شيئا إلا فوق أرضها .

وذات مساء وأنا أجلس بركنى المفضل بالصالة السفلية .. كنت أيامها أكتب رواية "جسر الموت الكئيب" ، وجاءنى مدير البيت يقول لى أن بآخر الصالة مجموعة شباب من إسرائيل ، وأنه حدثهم عنى كشاب مصرى مهتم بقضايا الفكر والأدب ، وأنه صورنى لهم على أننى مفكر

وأديب مصرى.. وأنهم أبدوا رغبتهم فى الحديث معى .

وضحكت من مبالغات محدثى، وطلبت منه أن يدعوهم نيابة عنى للجلوس على مائدتى، وذهب إليهم بما قلته فأتى أحدهم يدعونى إلى مائدتهم ، فقمت ألملم أوراقى وذهبت أرحب بهم فى مصر.

لست أذكر شيئا مما دار، إلا عبارة واحدة لصقت بذهنى ، وهى من الكلام الغير قابل للنسيان عندى حين قلت لهم..

: يمكننا أن نعيش معا فى سلام .

كان الحوار بالإنجليزية والترجمة الحرفية لهذه العبارة فى لغتنا العربية تكون على النحو التالى

: " يمكننا أن نعيش مع بعضنا البعض فى سلام "

لحظتها سارعت "سارة" الفتاة الوحيدة ضمن المجموعة، تنكر ما قُلت وعدلت الجملة بقولها:

: يمكننا أن نعيش بجوار بعضنا البعض فى سلام.. وهكذا استبدلت لفظ with بلفظ "Beside" أى من "مع" إلى "بجانب".

يومها اعتقدت أن الآنسة /سارة.. متشائمة.. كنت أكثر ثقة منها بالإنسان وإنسانيته ونزوعه الأصيل للحب والسلام.. وقلت فى نفسى

أنها حتما ستغير أفكارها يوما ما .. لأن طبيعة الحياة، ووضع منطقتنا عربيا وإسرائيليين تجاه أوضاع كوكبنا الصغير، تدعونا إلى هـذا الآن، وربما تجبرنا عليه فى مستقبل الأيام.. وأكتشف الآن وأنا أكتب هـذه الكلمات، أننى نسيت أن أسألها يومها، إن كان هذا الذى قـالت.. هـو موقف شخصى ليس أكثر أم أنه رأيهم هناك فى إسرائيل..

وإن كنت أتمنى ألا يكون هذا هو موقف جيـل " الصبـاريم.. " فالأمل فى السلام معقود ولا شك بشـخصية العـبرى الجديـد . جيـل "الصابرا" الذى وُلد فى إسرائيل ، وله الآن أن يتولى مقاليد الأمور فى بلادة.

وانتهى اللقاء الذى تحدثت فيه لأول مرة مع كيان من لحم ودم، لهؤلاء الذين ظلوا فى عقولنا وأحاسيسنا أشياء نسمع أو نقرأ عنها، لا كبشر يمكن أن يُحس ويُفكر ويَحزن ويَغضب ويَتألم ويملك من الأحـلام والآمال مثل ماتملك.. كانوا دوما أشياء.. أشـياء فقـط.. وأبـداً لـم يتجاوزوا شيئيتهم تلك!

ورغم السلام المزعوم ..هاهو إسم إسـرائيل .. مجـرد ذكـر الإسم .. يرعب أصحاب الشركات السياحية وموظفيها ؟

ومتى ؟

بعد عشر سنوات من اتفاقيات السلام ومحاولات التطبيع!!

أليس من حقى أن أقول ..لى الله.. وأنا أفكر وسط كل هذا فى زيارة إسرائيل، والكتابة عن رؤية إنسانية لهذا الشعب، محاولا إخراجه من شيئيته تلك فى عقولنا العجيبة .

****

طلب منى العقيد/ أحمد أن يَطَّلع على محتويات حقيبتى، وتفحص كل الأوراق والأشياء ،ومن الطريف أن اللفة المبهمة التى كانت تحوى بقايا الفطيرة، التى كنت أتناولها فى الصباح ..استوقفته.. وحين أخبرته عنها، لم يحاول التأكد من كلامى، ووضعت نفسى مكانه وقلت .. لو كنت مكانه لفتحت تلك اللفة لأتأكد مما بها.. طالماأن الشك هو سيد الموقف.

وبعيدا عن محاولة تحليل هذا الموقف وربطه بأشياء حدثت قبله وأخرى تلته، فهناك على العموم مايحملنى على الاعتقاد بأن/ أحمد بك .. كانت لديه معلومات مُفَصَّلة عن تحركاتى منذ الصباح، وربما منذ مساء الثلاثاء -اليوم السابق- وأنه كان يعلم صدق كلامى بشأن لفة

الطعام ..

وأحسست بالإعجاب !!

ليس طبعا بالقائم علي التفتيش ، وقد فاته أمرُ بسـيط كشـف حجـم معلوماته .. ولكن بجهازنا الأمنى ككل..ولما لا ..وقد صار له أكثر من ثلث قرن من الزمان ، وتلك السنوات ليست بالشيء الهين فـى عمـر أجهزة الأمن!

وردا على هذا الاستنتاج الذى أبرزة إلى ذهنى أسلوب تفتيـش العقيد/أحمد لحقيبتى.. قررت – بلغه أولاد البلد–أن أُلاعب هذا القـائم على التفيش كما يلاعبنى هو بمعلومات سبق له معرفتها.. فأظهرت له تلهفا بدا عفويا على ورقتين بحقيبتى .أحدهما كـانت قصيـدة "يـاليل الصب" لأبى الحسن على الحصرى القيروانى.. الذائعة الصيت والشهرة فى دنيا الأدب العربى .. تلك التى غنتها " فيروز" وغناها "عبد الوهاب " والتى تبدأ بالبيتين القائلين .

يا ليلُ الصب متى غَدُه ∴ أَقيامُ الساعةِ مَوعِدِة

رَقَد السُمَّارُ فأرقــه ∴ أَسفُ للبين يـردده

والقصيدة مكتوبة بخط طالب وزميل لى بكلية الآداب جامعة بنها

قسم اللغة العربية ،وهو نفس القسم الذى انتسب إليه منذ ثلاثة سنوات، لدراسة آداب اللغة العربية، وبالطبع ليس بهدف الحصول على شهادة ولكنى كنت أرغب فى التعرف على الطريقة التى تدرس بها لغتنا فى جامعاتنا، ولأتلقى أصول النحو على أساتذة اللغة ، وإن كنت أشك أننى استفدت شيئا يعتد به خلال دراستى تلك !!

أما الورقة الأخرى فكانت قصيدة من تأليف هذا الزميل "محمد الكشك" كتبها تحت عنوان من معارضات قصيدة ياليل الصب.. والمعارضه معروفة فى الأدب العربى القديم، حيث كان فحول الشعر يكتبون قصيدة ، وحين يذيع صيتها وتتناقلها الألسن، يسرع شعراء آخرون يبارونهم فيها ويعارضونهم بقصائد من نفس التفعيلة وذات القافية.

وكان " محمد الكشك" قد بدأ معارضته ببيتين يقول فيهما :

إلهامى ينضب موردة .: والقلب غيوم تقصدة

يحيا بسراب من وصل.: يخبو حينا ويعاودة

واستلفت هذا التلهف المصطنع صاحبنا، فضم الورقتين إلى أوراق أخرى وأجندة التليفونات والعناوين.. وباعتبارهما اكتشاف له

أهميته وأبعادة وربما- فى ذهنه فقط بالطبع - خطورته القصوى !!

وقام يترك الغرفة ، ويخرج بما معه .. بالطبع ليصورة.

أحسست بالأسى من أجل أشياء كثيرة .. ورددت فى قلبى ..

لك الله يامصر !! .

ودخل العميد / صلاح رئيس المكتب يترقب الموقف ويلومنى على محاولة قضاء أجازتى فى إسرائيل، وينصحنى أن أسافر إلى اليونان أو لندن أو أى مكان آخر، لأن من يأتون من عند الرسول ، ومكة والمدينة- على حد تعبيرة - لايجب أن يفكروا فى رؤية اليهود وحيفا والقدس، وتعجبت من ذكر اسم القدس .. تللك المدينة النابضة فى قلوب كل أصحاب الديانات والملل، وقد يرغب فى رؤيتها حتى الكفرة من السائحين الروس، وأردف أنه سيصادر مسدسى باعتيار أن هذا الإجراء هو أقل ما يمكن أن يفعله كنوع من العقاب !!

أعطى الرجل لنفسه الحق فى الفتوى باسم الإسلام، الذى لم يكن يوما ضد تقارب البشر ، ولم يجرم من يحاول أن يحقن دماء خلق الله، إن أمكنه إلى ذلك سبيلا.

****

رُحلتُ إلى قسم الشرطة بالدقى سيراً على الأقدام، كعقوبة مبدئية للجسد ، رغم أننى عَرضتُ على من كُلف بتوصيلى، أن نستقل سيارة أجرة على نفقتى، ولكنه رفض، وإن كان لم يفته أن ينصحنى باصطحاب طعام يكفى ليومين، وكذلك سجائرى تحرزا لما يمكن أن يحدث.

احتجزت وحدى بغرفة كبيرة رطبة تحت الأرض، وبعد نحو ثلاثة ساعات، استُدعيت لمكتب النوباتجية، وبعد قليل أتى أخى مصطحبا زوج شقيقتى، وكنت قد اتصلت بأخى تليفونيا فور وصولى للقسم.

ذهبَ شقيقى عبد الله إلى مباحث أمن الدولة، وبحكم وظيفته كوكيل للنيابة العسكرية أنهى الموضوع ، وعاد ليصطحبنى معه إلى مبنى أمن الدولة بالجيزة ..حيث مجموعة البكاوات التى التقيت بها من قبل، ولكن بتلك المرة كان هناك من يُدعى الرائد/طارق فى انتظارى، وجلست إلى جوارة ليملى علىَّ صيغة تعهد بعدم التردد على سفارة إسرائيل، وعلى مكتب مقابل كان العميد/ صلاح يحدثنى ويحاول التأكيد على أن تكون تلك هى زيارتى الأخيرة لهذه السفارة ..

وأجبيته وأنا أكمل ماكان يمليه علىّ الرائد/طارق دون أن التفت إليه..

: الموضوع ده قابل للنقاش!!

وقمت بعد إنهاء إقرارى يملؤنى الغضب المكتوم.. سلمت علـى الرائد/ طارق وشكرته وانصرفت متجاهلا وجود العميد/ صلاح.. فقـد كان حجزى بقسم الشرطة على نحو لم أكن أتصوره، وكانت المواقـف فى إجمالها تثير فى نفسى الغضب !!

كانت هناك أشكالا أكثر لياقة مما حدث، لايصال رسالتهم إلىّ .. خصوصا وأنى بت أشعر فى نهاية الإجراءات، أن كل شىء كان معروفا قبل حدوثه، ولم تصطدم به مباحث أمن الدولة بالجيزة، حتى أننى كنت أعتقد وما أزال، بأن أجهزة الأمن كانت تضع كـل التفـاصيل ضمـن حساباتها قبل وقوعها، وأن الترتيب لخلق المشكلة التى افتُعِلـتْ كـان متخذا من قبل، وأن "السيناريو الخاص " بالأحداث كان منتظراً مسبقا !

وضاق العميد/ صلاح برد الفعل عندى، ذلك الذى لم ينبىء عن خوف كان يود أن يزرعه فى قلبى، وجرح كبرياءة شكل انصرافى من مكتبه.. فأمامـه يجـب أن ينحنىالنـاس ليقبلـوا الأيـادى الكريمـة

والأعتاب!!

ولست أدرى أى قُدسية يمكن أن يدعيها لنفسه، ليتصرف الناس أمامه على هذا النحو!!

والحقيقة أن تلك هى عقلية عدد ليس بالضئيل من العاملين بهذا المجال،وليس ثمه وسيلة أفضل من أن يشعرهم بعض ضيوفهم بالاستياء، ولو دفعوا ثمنا لهذا جروحا من سيف مصر الذى يمسكونه بأيديهم!!

وسرعان ما دفعت الثمن !!

فقبل أن أصل إلى نهاية الغرفة، وبسرعة البديهة، شيعنى صلاح باشا بعبارة تعطل إجراء انصرافى.. حين قال

:وعموما انت هتستنى عندنا لحين وصول رأى الادارة !!

لم أعلق وكأننى لم أسمع شيئا، وانصرفت لا ألتفت إليه،وهكذا لم يسمح بمغادرة مباحث أمن الدولة، وبالطبع لم يأت رد الإدارة ، وذهب صلاح باشا إلى منزلة ليستريح تاركا إياى حتى الصباح!!

كان ضيقى من أجل نفسى محتملا، ولكن فوق طاقتى كان ضيقى من أجل شقيقى الذى بلع هذا الموقف دون أن يرد عليه بما يستحق

إكراما لى، وحرصا على عدم تعقيد الموقف.

ولم تستطع رعونه الباشا وتجاوزاته دفعنا للخطأ، وكلانا يكظم غيظة من أجل الآخر ، ويلوى ذراع طبع أصيل فى أسرتنا، توارثناه وسنورثه للقادمين من حاملى جيناتنا الوارثية.. طبع أورثنا سلوكا يلخصه بيت من الشعر القديم يقول..

فإما يجهلن أحدٌ علينا .. فنجهل فوق جهل الجاهلين

والمقصود بالجهل هنا نزق وغُشم الآخرين ورعونتهم وتجنيهم الظالم.

مضيت تلك الليلة بغرفة ، المفتوح منها أكثر من مبانيها ، وسقفها الصاج يصدر أصواتا وهمهمات ذكرتنى بقصة الرجل الذى استأجر غرفة متهالكة من إعرابى يصدر سقفها أصواتا توحى بقرب الانهيار.. ولما خاف من سقوط السقف عليه، شكا للإعرابى لكى يصلحه فرد الأعرابى يقوله.

: يارجل لاتخف.. إن السقف يسبح بحمد الله !!

فرد الرجل قائلا :

: والله إنى لأخشى أن يدركه الخشوع فيسجد.

وترك السكن ومضى إلى حال سبيله ، ولكن أين لى أنا إن خفت سجود

السقف علىَ من هروب إلى سكن آخر!!

كنت بلاغطـاء أو وسـادة بـالطبع، وفـوق صندوقيـن مـن الخشب،كنت أجلس ممدداً ساقى. لم أستطع النوم .. وكيف ينـام مـن يستشعر الظلم والغباء من حوله،وأيضا الخوف على مسـتقبل بـلادة وأمن أهله ومواطنيه.

لم تكن لفحة خيبة الأمل فى سلام حقيقى يمكن أن يسود منطقتنا - إن كان هذا منطقتنا- بأقل برودة من زمهرير طوبة فى تلك الغرفة .. وابتسمت ساخراً حزينا وأنا أنكمش فوق الصندوق، ناظرةً إلى فتحـات الغرفة شبه المهدمة ، وأنا أتمنى لو كان فى عقول من يديـرون ذلـك المكان، مثل تلك الفتحات المنتشرة، فربما دخل منها شىء مفيد!!

وهناك أسفل المصباح القوى بتلك الغرفة ، كـان اثنيـن مـن الحرس فوق صندوق آخر عن مدخلها، الذى لم يصمم أساسا ليكون له باب .. كل منهما مسلح ببندقية آليه، وقد مالت رأساهما بعد أقل مـن ساعه ،وعلا شخيرهما فى سيمفونية تُزيد وحشة المكان !!

شعرت بضربات قلبى تسرع أكثر فأكثر.. لتمد أطرافى المقبلـة على التجمد بمزيد من الدماء ، وحتى أتى الصباح أخيرا، ومع الصباح

أتى أخى وزوج شقيقى مرة أخرى، يحملان إلىَّ بعض الحلــوى وعلب العصائر، وفى نحو الحادية عشــر صباحــا سُــلمت مسدســى ورخصة حيازته وجواز سفرى، وكتبت إقرارين باستلامهما، وعدت إلى طوخ .. أرقب رحلتى المقبلة وأشعر أنها سوف تكون رحلة شاقة!!

فإن كانت تلك هى البدايه!!

فكيف سيكون مايلى!!

لقد دفع "السادات" حياته ثمنا لرحلة حاول من خلالها أن يحقــن الدماء، ويجنبنا مزيداً من إراقتها.. ومزيداً من التخلف!!

ومن يدرى !!

ربما كانت حياتى ثمنا آخر يطالبنا به السلام الذى نرجــوة لأولادنــا ، وليس هذا بالثمن الغالى أو الكثير.. وسوف يأتى آخــرون يحــاولون نفس الشىء ، ولن تكون حياتهم فى مأمن.. ولكنهم سيعملون آنــذاك فى ظروف أفضل، وسيمشون فوق طرق خشَّناها لهم.. ليكونوا أكــثر ثباتا على الطريق الواضح والمحدد المعالم .

علينا ألا ننزعج من دماء تسيل من أجل السلام، حتى ترتــوى ذئاب الحرب.. فإن تراق الدماء من أجل السلام ، أفضل من أن تــراق

من أجل الحروب ، حتى ترسخ فى الأذهان فكرة أنه، ليس هناك حرب جيدة وليس هناك سلام ردىء، والمؤكد أن تلك الدماء بشير بنهاية الحروب فوق أرض السلام !!

ومهما كان الثمن فلن تقف الشعوب متفرجة على مسرح الأحداث، وحتى نرى أولى القنابل الذرية تهدم أحلامنا جميعا فى مستقبل له معنى!!

وعلى النابهين منا أن يتصدوا لسلوك العدوان عند البنى آدم .. حتى لايخرج هتلر آخر هنا أو هناك، هذا القائد الذى لم يفتقر إلى أرض أو ثروة ليسعى بكل التصميم وبكل ماهو مشروع وغير مشروع، حتى يبسط يده على الأرض كلها والبشرية معها!!

كنت أتمنى أن ينتهى صراعنا مع إسرائيل.. وكنت أتساءل..

هل سيكون لنا جميعا مخرجاً من سوء المصير؟!

ربما كان كل المطلوب منا جميعا أن ندعو الله بروح خاشعة وقلب كسير، واثقين من أنه سيمن علينا بالخلاص من الحروب .

ماذا كسبنا جميعاً من الحرب؟!

وحتى ماكسبناه ظلما نحن أو غيرنا.. فإلى متى يدوم !!

إن تلك الحروب التى تكتنف منطقتنا ليست إلا عرضا من أعراض الإنهيار الإجتماعى، كما كانت الحروب الدينية من قبل، وفى القرن السادس عشر.. تلك الحروب الشرسة التى تغلبت عليها الحركة المناصرة للتسامح الدينى فى أوربا.

إن جدوى الحروب والتى يراها من أصابهم قصر النظر شيئا عظيما ليست، بالتأكيد كذلك، وليسأل التاريخ من لا يعلم !!

إن النزعة الحربية التى تبقت فى النفوس من بعد الحرب العالمية الثانية.. تلك النزعة الانتحارية الكريهة، يجب أن تموت .. إن شبح الخوف الدائم من الحرب التى لا تنتهى يتصاعد إلى أشكال أخرى خطيرة، ويلقى ظلالا قاتمة على مستقبلنا.. فيخدرنا نفسيا، ويدفق فى عروقنا مايصيبنا بشلل روحى يتحكم فى كل شىء، حتى أعمالنا اليومية التافهة .

إن داعى الحرب فى نفوسنا.. ذلك الذى أحببناه طفلا صغيراً لاهيا وبريئا، يثير فينا نوازع الرجولة وأحاسيس البطولة، ونراه مفيدا ونُحملهُ من أحلامنا وأمالنا الكثير .. قد صار الآن كهلا فانيا قميئا شائها لا يُرتجى من ورائة شيئا .. ولايُقدم للدنيا إلا الخراب والاهتراء

، ولنا أن نكف الآن عن حبه واحترامه.

إن الحرب التى نكرهها نحن الأسوياء ، لم تعد مثلما كانت الحروب فى الماضى ، لقد صارت شيئا آخر تماما يختلف عن حروب الماضى، كما يختلف غسق المساء عن ألق الفجر.. فتلك الشريعة البشعة التى أوجدت بالأمس مجالا لممارسة الفضائل الحربية، لم تعد اليوم كذلك، قلبت فى حروبنا صفات الفروسية.

إنها الآن حقد دفين، يتحول إلى نزعة عسكرية ليس بها أثر للفضيلة أو الجمال.

أين الاسبرطيون الآن !!

أين أنت يا ملك آشور وقد نعست رعاتك واضجعت عظماؤك وتشتت شعبك على الجبال !!

أين المقدونيون !!

بل أين العرب !!

بقى الفكر وبقيت الإنسانية، وبقيت كلمات الملك(خيتى الثالث) لابنه " يابنى .. قوة المرء فى لسانه، والحديث الطيب أقوى من الحرب والقتال"..

وهلك بالسيف الذين أخذوة !!

****

والآن عود على بدء ..

كانت أجازتي بمصر وراء هذا الكتاب الذى أوردت مقدمته فى الصفحات السابقة، وكاد أن يوردنى موارد التهلكة !.

أنهيت " البروفة" الأولى لكتابى.. " المسودات "،وذهبت أصورها لأرسل نسخة منها إلى رياسة الجمهورية ، يصاحبها شكوى لرئيس الدولة من تجاوزات أمن الدولة بالجيزة .

كانت الملابسات التى أحاطت بهذا الكتاب تدفعنى لأن أنهية على وجه السرعة وبأى شكل .. وقد تخليت عن أحلامى له بأن يكون بحثا موسوعيا أضمنه رؤيتى الخاصة بهذا الصراع ،وبمجرد انتهائى من مسوداته ،كان كفيلى بالسعودية يخبرنى تليفونيا أنه أرسل " التأشيرة " للسفارة السعودية بالقاهرة ، وأنه يحتاجنى فى المملكة على وجه السرعة، وأنه دبر النقود اللازمة للافتتاح .

وبعد أيام كنت ألملم أوراق كتابى لتأخذ مكانها فى حقيبتى ، وبينما كانت الطائرة تخترق السحاب والقاهرة تصغر أمام عينى شيئا فشيئا ، كنت مشغولاً بكتابى الجديد، وأنا أستحث الطائرة أن تسرع لتصل

بى إلى الأرض، لأعيد صياغته بشكل أفضل،وأتمنى لو عثرت بالمملكة على المراجع التى احتاجها ،والوقت والصفاء الذهنى، الذى ضاع منـــى فى مصر!!

كل الطرق تؤدى إلى ..الزواج

وصلت إلى بريدة ، وأضافنى كفيلى ثلاثة أيام عند بعض المصريين الذين أحسنوا وفادتى ، وفى اليوم الرابع عثر السمسار على شقة ضمن " فيلا" من دورين بشارع الأربعين بحى الصفراء . كان هنك قصراً منيفا على الناصية المقابلة لى ،تزيده بهاء وروعة تلك الحديقة الرومانسيةالفضفاضة التى تحوط عليه ، كان يضم أسرة سعودية لا يظهر منها إنسان ، ولا ترى به من مظاهر الحياة إلا تلك السيارة المبهرة التى تدخل وتخرج من بوابة القصر، وخلف سكنى كان المبنى الخاص بكلية الزراعة والطب البيطرى، يليهما أحد أفرع محلات

السوبر ماركت الشيير.. " باندا".. ثم " صيدلية الأسرة " التي سأعمل بها .

كانت شقتي بالدور الأول ، وإلى جواري شقة يسكنها " خالد السحران" .. وهو شاب سعودى متزوج حديثا، وكان موظفا بالتليفونات. ، وبالدور الثانى كان المدعو "سيد".. وهو شاب سورى الجنسية وصاحب مطعم بأهم شارع تجارى بالمدينة، وإلى جوارة كان "مبخوت".. وهو سعودى من أصل حضرمى ، يعمل موظفا حكوميا فى الصباح ، وفى آخر النهار يتابع المؤسسة التى يمتلكها ، وكان السعوديون يطلقون على مواطنيهم ذوى الأصول الحضرمية.. " يهود السعودية " .. لما لهم من مهارة فى إدارة الأعمال وتكوين الثروات الضخمة ، وكانوا يؤكدون جميعا أن السعودى الحضرمى إذا عمل لدى سعودى من القبائل فى أحد المشاريع أو المؤسسات، فسينتهى الأمر بعد بضع سنوات إلى الحضرمى وقد اشترى المشروع، لينقلب الحال ويصبح صاحب العمل مجرد واحد من العمال، وكان لمبخوت هذا طفلة لا أذكر اسمها وولد يصغرها بعام.. اسمه " عبد الإله " .

***

أمضيت أياما ثلاثه.. وأنا أُعد الطلبيات اللازمة علـــى الــورق ، وأسأل عن عناوين شركات الأدوية والوكلاء، ومن خـــلال الصيدليــات المجاورة كنت أحصل على المعلومات التى أحتاجها عن طبيعة المنطقــة وماتحتاج إليه أكثر من الأدوية والمستلزمات .

كنت فرحا بسكنى لقربه من عملي.. خصوصا وأننـــى لا أملــك سيارة، فيأجواء لاتحتمل المسير على القدمين .

وفى مساء اليوم الثالث، طرق باب شقتى ثلاثة مــن الرجــال .. رحبت بهم، وعرفت منهم أنهم جيرانى في نفس " الفيلا"، وأنهم أتوا لمأمورية محددة.. لإنذارى بترك السكن ، وحددوا لى مهلة ثلاثة أيام لأبحث عــن سكن آخر.

قالوا لى أنى عازب ، وأنهم علائلات ، وأنهــم يخرجــون إلـــى أعمالهم مبكرين لأظل أنا وحدى فى وجود " الحريم "، وأن هذا لايصح ، وطلبوا منى أن التزم خلال تلك الأيام الباقية لى بـــالخروج مــن البـــاب الجانبى للفيلا.. حتى لا أقابل صدفة إحدى الســـيدات فـــى دخولهـــا أو خروجها، وأنه يتعين علىّ أن أضع لوحا من "الأبلاكاش" على باب شقتى من الخارج.. ليطمئنوا إلى أننى لن استعمل العين السحرية، وأن استعمل

باب الشقة الجانبي الذى يفضى إلى الحديقة، ومنها إلى البـــاب الجـــانبى المؤدى إلى الشارع،وأضافوا أن الوضع الذى نحن عليه، يخالف تعليمات هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

حاولت تأخير إجراءات طردى من السكن وأنـــا أعدهـــم بـــأننى سأعود إلى مصر بعد سته أشهر لأتزوج، وأعود مصطحبـــا زوجتـــى، ولكنهم عادوا يؤكدون استحالة الوضع الحالى!!

كنت أعرف أن هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـــر لهـــا سلطة شبه قضائية، وأنهم قادرون على كل شىء، والأهم أنه نما لدى فى لحظات – رغم كل مزايا سكنى – إحساس بأنى أرفض الاستمرار فـــى مسكن يرفضنى فيه كل جيرانى، ويعتـــبرونى شـــراً مســـتطيراً يجـــب الخلاص منه.. وأنا متهم بالعزوبيـــة وتحـــاصرنى شـــكوك ومخـــاوف المتزوجون فى الأرض!!

كان كفيلى خلال تلك الأيام يسعى فى البحث عن سكن قريب ولم يوفق، وأمضيت الليلة الأخيرة منتظراً " الهاجانة" ليطردونى قسراً مـــن سكنى !

وبالفعل طرق بـــابى مســـاءً جـــارى بـــالدور الاول .. "خـــالد

السعران".. رحبت به، وقبل أن أعتذر عن بقائى، سارع هو بالإعراب عن أسفه، وباقى الجيران الذين أوفدوه، ليبلغونى رغبتهم فى استمرارى معهم وحتى أتزوج، واستقدم زوجتى من مصر، وقبل انصرافه دعانى لتناول الغذاء فى بيته فى اليوم التالى، وتصورت أنها دعوة وعدت، ولكنه ولمدة إسبوع كان يصر على أن أتناول معه الغذاء، وكان يضطر لترك زوجتة تأكل بمفردها.. مما حدا بى أن أرفض بشكل قطعى استمرار تلك الضيافة ، واستجاب لطلبى، إلا أنه كان فى نفس الميعاد يوميا يطرق بابى حاملا صينيه عليها بضعة أطباق من أنواع الطعام السعودى وبعض الفاكهة، وكان حين تضطره الظروف للتغيب عن منزله، أسمع طرقا على بابى، وحين أفتح الباب أجد صينية الطعام على الأرض، وقد تركتها زوجتة وأغلقت عليها بابها قبل أن أخرج .

استمرت الضيافة نحو الشهر، وحتى شعرت بما لاطاقة لى به من الحرج، واضطررت إلى القسم بأغلظ الإيمان على أننى سأعيد الطعام مرة أخرى كما هو.. لأنى قادر على الطهى والعناية بنفسى .. ولأثبت صحة ما أدعيه.. أعددت وجبة سمك وجنبرى له ولزوجته، ومضت ثلاثة أيام تعرفوا خلالها على بعض الأكلات المصرية .. حتى بدأ هو

يرجونى أن أتوقف، وهو يعدنى أن يتوقف هو الآخر.. وهكـــذا أثبتـت سياسة "سيب وأنا أسيب" . نجاحها، واستطاعت أن تجمد سياسة " حـــاتم الطائى"

****

أمضيت إياما جميلة فى عملى وفى سكنى ، وكنت كلما شـعرت بالملل والضيق، أسمع طرقات على بابى لأرى طفلى جارى " مبخـوت" الحضرمى وقد أتيا ليمضيا معى بعض الوقت، استمتع خلاله بتلك اللكنة الجميلة، التى ينطقون بها الحروف، وهم يخرجون لسانهم فى الذال والثاء والظاء ويعطشون الجيم بسهولة ودون سهو .. وأضحك من سذاجتى وأنا اكتشفت أنهمً لا يسهون، لأنهم لا يعرفون غير تلك الطريقة الصحيحــة للنطق ..تعلموها بالمحاكاه فى الطفولة واستمرت معهم ، واتعجب منهـم حين يكبرون واسمعهم بوسائل الاعلام وقد أصابتهم تلك العُجمة القاتلـة التى يتحدثون بها.

ومع الأيام اتسعت دائرة معارفى فى بريدة، وعرفـت سـوريين وفلسطينيين ومصريين وأردنيين، واعتاد الجميع أن يدعونى لتناول الغداء أو العشاء معهم، ربما لشعورهم بالشفقة على ذلك الأعزب الغلبان، فـى

بلاد النعمة والأمان .. وبدأت أشعر وكأنني في مصر .

****

كانت جاراتي في السكن يلجأن إليَّ في استشارات طبية، من خلال التليفون بالصيدلية، وكنت أصطحب معي الدواء الملائم، وحين أرجع لسكني في فترة الراحة بين الظهيرة والعصر، كنت أطرق عليهن الباب وأعلق كيس الأدوية بمقبض الباب ، وكن يفتحن لأخذ الدواء حين يسمعن صوت ارتطام باب شقتي ..

كنت أتعمد أن أوصد الباب بقوة، وكأنني أتحدث اليهن بلغة "الأبواب" التي تقول" أخرجن فليس بوسعي أن أنظر اليكن" .. وكان الرجال يأتين إليَّ فيما بعد ليسددوا عن أسرهم الحساب .

بدأت أشعر بمعنى كلمة " مجتمع" في تلك البلاد، حقيقة هم مختلفون عن مجتمعي الذي نشأت فيه ، ولكنهم يشكلون مجتمعا خاصا بهم .. لهم قيمهم وأفكارهم ، وعليَّ أن أحترم ما يعتقدون فيه الصواب رغم التشدد فيما كنت أرى.

في أيامي الأولى ببريدة وبسبب هذا الفصل الكامل بين الرجال والنساء كنت اسأل نفسي..

: تُرى ما هو شكل المرأة السعودية ؟

أنا أعرف أنهم بشر.. ولكن أى صفات تميزهم؟ وهل لو وضعت المرأة السعودية وسط مجموعة من النساء سافرات الوجوه.. فهل يمكن أن نميزهن عن غيرهن من البشر كما نميز المرأة المصرية.. خصوصا وأننى خلال الأشهر القليلة التى أمضيتها فى عقله الصقور.. تلك القرية المحاطة بالنجوع البدوية.. لم نكن نرى المرأة السعودية تقريبا،وكأنه مجتمع يخلو من النساء.. كنت أراهن فقط فى السيارات وهن بالنقاب.. وكان التعامل فى حلقة رجالية فقط !!

وفى بريدة ومع الأيام، رأيت العديد من النساء السعوديات بالصيدلية .. كان بعضهن يحسرن النقاب أثناء الحديث إلىّ .. كن قريبات الشبه من المصريات ..وكان أكثر ما يميزهن جمال العيون ونعومة الشعر ، حتى أننى بت أعتقد أن كل آكلى الأرز، شعورهن سوداء ناعمة، وأنا أرى كل سكان جنوب قارة أسيا بما فى ذلك الدول العربية الواقعة فى هذا النطاق، لهم نفس الشعور وكلهم من أكلى الأرز كغذاء رئيسى.

كنت أندهش وأنا أرى أسفل العباية السوداء، أحدث صيحات

الموضة في العالم، ومنها تلك التي تبدى كل مفاتن النساء.. كانت زينتهن تبدو وهن يحاولن ضبط وضع العباءة قبل الخروج من الصيدلية، أما الشئ الثابت بينهن جميعا، والذى كان يتضح بجلاء في مطار جده.. فهو تلك العناية البالغة بالأحذية .. يختفي كل شيء في المرأة السعودية، ولايظهر إلا حذاؤها، فما من عجب إن كان له المقام الرفيع، وهو كل مايبدو من زينتها وكانت الكعوب العالية تستهويهن جميعا، ولو أرهفت السمع لاستبنت تلك السمفونية الرائعة التي تعزفها تلك الكواعب العالية،ويلفت الناظر أيضا ،أن السعوديات لا يملن في مجملهن إلى البدانة، خصوصا الفتيات قبل الزواج .

****

أنهيت إعادة صياغة كتاب الرحلة الشاقة في شكله النهائي في تلك الأيام، وأضفت إليه بعضا من تأملاتي.كما كنت أملأ أوقاتي بكتابة يومياتي بقدر ماتسمح به الظروف هناك،وربما اختيار بضع فقرات منها، ينير جوانب تلك الفترة التي أمضيتها في بريدة.

بريدة (٥ شعبان ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨/٣/٢٣)

لم أفكر من قبل فى كتابة يومياتى هنا.. فماذا عساى قائل !! إلا أننى الآن وبعد إذاعة صلاة المغرب التى أشاهدها بالتليفزيون يوميا من المسجد النبوىّ بالمدينة، وجدتنى مشدودًا إلى أصوات الطبول، والصور التى تعرضها أولى حلقات المسلسل الجديد بالقناة الأولى .. إنه يحكى لنا عن حياة الناس فى قرية على شاطىء البحر، ربما كانت من قرى دول الخليج أو المملكة، لا أدرى على وجه التحديد .. ما أجمل حياتهم وبساطتها، وقد عادوا بالرزق بعد مشقة ،وهم يحلمون بأشياء بسيطة، هى كل مايطمحون إليه. إنهم بشر مثل كل البشر الذين عرفتهم فوق أرض بلادى ، لهم عوايدهم وأحلامهم والقيم الى تحكم سلوكياتهم .

لماذا لا أ تخيلهم وأكتب عنهم كحقيقة حية !

لماذا لاأدقق النظر فى من حولى وأجعلهم مجالا للبحث والتأمل!

إن هذا هو كل مجتمعى الذى أعيشه الآن!

لماذا لا أفكر فيما يحلمون به!!

لماذا لا أعتقد فى أهمية أو جدوى ما يمكن أن يقال عنهم !!

لقد سمعت أصوات الطبول هنا من قبل، ورأيت صيادين فـــى مسلســل آخر.. .

ولكن هؤلاء الصيادين شيء مختلف!! .

لقد دفعونى لأُمسك بالقلم ..

من يدرى ....!!

ربما أنا الليلة مختلف !!

المهم أن قلمى تحرك أخيراً ليدون القشور .. دائماً تكون البدايـــة مـــن أبسط الأشياء ، ودائما أول الغيث قطرة، وغداً سيبحث عقلى عما تحت القشور !

دائما يشدنى السطح !!

ولكنى لن أرضى بعد هذا إلا بما تخفيه الأعماق!

وأنا أنهى كلماتى الآن حاولت كتابة التاريخ كما أفعل عادة عند الانتهاء من أى شيء أكتبه، واكتشفت أن اليوم هو الثالث والعشـــرون من مارس..

إنه يوم ميلادى!!

لقد عرفت هذا الآن بالصدفة! !

فى مثل هذا اليوم منذ سبعة وثلاثين عاما بدأت أصرخ وأنا أنتقل من الوضوح والأمان فى جوف أمى، إلى الغموض فى هذا الوسط الجديد الذى خرجت إليه.

كم تُسرع الأيام فى عدوها!!

لقد انقضى معظم العمر،ولم يبق إلا القليل وربما أقل من القليل !!

ترى ماذا قدمت للدنيا من حولى .؟!

هل قدمت شيئا له قيمة ربما ذكرها إنسان آخر فى مستقبل الأيام ؟!

ترى هل سأقدم شيئا فيما بقى من العمر ؟!

ياإلهى ...

ما أهون الحياة !!

وأيضا ما أعظم الإنسان !!

ما أقواه .. وأضعفه !!

ياله من حكيم وجاهل !!

ياله من كل شىء ونقيضه !!

-كم أحب البشر .. كل البشر !!

وآمل في مستقبل أفضل لهم ... رغم عشرات الألوف من القتلى

حولى فى حروب غريبة ومروعة وغير منطقية !!

تلك الحروب التى تصيبنى بالخوف أحيانا ..وبالإحباط واليأس وأحيانـاً

أخرى ،وأحياناً تفقدنى الرغبة فى الحياة بمجملها ..وأنا أرانـى شـيئا

آخر لايأتلف مع البشر الذين أراهم أحياناً مجرمون بالفطرة !! .

بريده فى ١٩٨٨/٣/٢٤

لم يمض أكثر من أربعة ساعات على كلماتى الأولى.. نحن الأن

بعد منتصف الليل ..لقد بدء يوم جديد..

خرجت الساعة التاسعة لأحتفل بعيد ميلادى وحدى .. مشيت فى

الشوارع لأول مرة بضعة كيلو مترات .

اشتريت أشياء لاأحتاجها ، وأشياء سوف استخدمها، ولكنى اسـتطيع

الاستغناء عنها ببساطة !!

هذا كل ما أمكننى عمله!!

وماذا كنت سأفعل غير ذلك ؟!

هكذا تساءلت ..

وهكذا كانت اجباتى ..

إن فى جيبى مالا احتاج من الريالات.. إذن لأنفقها فيما لاأحتاج من الأشياء.. لأفعل أى شئ...

وليكن احتفالى وقد غاب عنى الناس.. مع النقود..

ماذا يفعل الناس فى تلك المناسبات.. أليسوا يهدونا مالا نحتاج !!

إننى أفعل مثل ما كان يمكن أن يفعلوه معى.. أليسوا يحتثونا ويتمنون لنا عاما سعيداً ..

حسنا سأحدث قلمى .. وسيحدثنى!!

ولكنى أريد أن أسمع إنسانا آخر يقول لى" كل عام وأنت طيب "

واكتشفت حلاً لمشكلتى الأخيرة ..

سأتصل بأخى لأطلب منه أن يقول لى عبر الأثير تلك الكلمات ..

وبالفعل اتصلت بأخى عبد الله ورد علىّ ابنه الصغير " محمد" وضيّع علىّ العُملة المعدنية التى كانت بحوزتى، وكان مايزال يتعلم نطق الكلمات .

وعاودت الاتصال بمصر ولحسن حظى جمّع الخط معى، ولم يكن قد تبقى معى إلا ثلاثة ريالات فضية تكفى لنصف دقيقة، حدثت فيها شقيقتى أحلام، ولم أجد وقتا لأقول لها " قولى لى كل سنة وانت

طيب "

بريده فى ٨٨/٣/٢٤

الأطفال هنا يغنون لبلادهم مثل أطفال العالم .. يقولون " إنهـا أجمل بلاد الدنيا ..ما أجملك يابلادى . تعالوا شوفوا بلادى..".. إنهـم يدعون الآخرين بثقه ليروا بلادهم.. الأطفال هم الأطفال فى كل مكان ، وفى أى شعب.. الطفولة شىء جميل وإنسانى جـداً .. حتـى أطفـال الوحوش الضارية فيها البراءة والرقة .

لا أنكر أنها ستتوحش فى الكبر، وسوف تصبح مخيفة وشرسة .. لقد تعلمت من ذويها الافتراس والوحشية، ولكن كل ما لحقها مـن شر لاينفى عنها الطفولة البرئية التى كانت فى يوم ما حقيقـة تراهـا العيون!

ألسنا نرى من بين البشر وحوشا آدمية !!

لقد كانوا أطفالا يوما مـا، ومـن المؤكـد أن هتـلر وعبـد النـاصر وموسيلينى، والحاكم بأمر الله.. كانوا أطفالا يوما ما !!

ما أجمل أن يحتفظ البشر بطفولتهم مدى الحياة !!

ما أعسر هذا الأمل .. وما أبعده عن يد البشر!!

كلنا يُعلم صغارة كيف يأكلون الآخرين قبل أن يأكلوهم هم !!

إننا نحرص على سَنّ أسنانهم، وجلاء أظافرهم.. لكى ينشبوها جيداً فى رقاب الآخرين !!

أحيانا كثيرة أشعر بالثقة فى الإنسان .. ألم يخلقه الله لعمار الكون وعبادة الخالق !!

إننا الملامون فى هذا الشر الطارىء على طفولتنا !

أحيانا يغلبنى التفاؤل وتثبت عيناى على النصف الملىء من الكوب، وحتى أتذكر قابيل !!

من الذى ملَّك على قلبه الشر، حتى ارتكب أفظع جريمة عرفتها البشرية!

ترى من الذى علَّم أخاه هابيل أن يقول له ..

" لو بسطت يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك، وستبوأ بذنبى أمام رب العالمين "..

لم يكن هناك مجتمع يمكن أن يُلام، ولست أعتقد أن آدم وحواء قصرا فى تربيتهما..

يبدو أن هناك نزعات وميول نولد بها .. لقد خلق الله أدم وحواء وهما

يحملان عوامل وراثية لمختلف أنواع السلوك والنزعات ، وكانت نزعة الشر ضمن ماكان .. وللأسف قُتل الطيب وعاش المجرم، ليكون كل منا ابن المُجرم بالتواتر !!

ها نحن أمام الشر الذى ورثناه، ليحيا بين ضلعونا، وحدثنا الله بشأنه.. الفجور والتقوى يداخلنا ..... إنها عواملنا الوراثية..ويغلب الشر علينا حين تضعف الإرادة ... لقد كانت إرادة قابيل ضعيفة..فقتل أخاه، وكانت إرادة هابيل أقوى من أن يدع الشر يَمْلُك على قلبه.

من المؤكد أن هناك شعوبا تميل إلى القسوة، وأخرى إلى اللين والحب، ليس البشر واحدا.. إنهم يختلفون كما تختلف الأصابع وبداخل كل مجتمع تلعب البيئة المحيطة بالطفولة دوراً رئيسا فى تغليب نزعة على أخرى... رأيت فى حياتى أطفالا يفيضون براءة ولطفاً ، وآخرين يخنقون القطط الصغيرة حتى الموت، ويقطعون رقاب الكتاكيت بما لا يحتمله قلب رجل كبير .... إنهم حتى لم يحترموا الطفولة فى المخلوقات الأخرى واختلطت الطفولة والبراءة بالقسوة.... أهى القسوة الموروثة..أم أنه الجهل الذى دفع بهم لهذا العنف ؟!

لقد وضع موسى الطفل الجمرة فى فمه فآذى نفسه !!

أكانت تلك قسوة إذن .. وعلى من .. أعلى نفسه كانت ؟!

لا..... لقد كانت جهلا!!

ترى أيكون البشر فيما يرتكبون اليوم من فظائع دافعهم القسوة ؟! .

أم أنه الجهل ؟!

أهو الجهل الذى يضاد العلم .. أم هو الجهل من قبيل جاهليةَ الخُلق !

أتراه يكون جهلا بمعنى الإنكار لخالق هذا الكون الرحيم !!

عموما مهما كانت الأسباب ،وأياً كانت محاولات العقل للتفسير، فسوف يظل الإنسان لغزاً.. كلما فككنا بعض تشابكاته ظهر غيرها!!

وسوف يظل الشر ..وأيضا الخير، والقســـوة .. وأيضـــا الرقــة !!

سوف يظل كل شئ ونقيضة، وإلى أن نلقى الله !!

بريدة فى ١/٤/٨٨ م السبت

عدت من الرياض فجر الجمعة وكنت قد بدأت السفر منها فـــى منتصف الليل، وقد حمّلت السيارة بكل طاقتها، وما تبقى من أدويـــة ومستلزمات ستصلنى طرودها فى غضون أيام.. وإن شاء اللــه لــن أتجاوز الأسبوع لأعلن عن افتتاح الصيدلية.

اقرأ الآن فى كتاب " النقد الفنى " واستنتجت من خلالة أننى لم أوفق فى رواية " أمل لايموت " حين فاجأت القارىء بموت البطلة، وأرى الآن أنه من المناسب قبل موت البطلة أن أشير إليه حتى لا يكون مفاجئاً، وكأنه جاء مفروضاً على أحداث الرواية.

أرى أمامى أصول كتابى" الرحلة الشاقة " وأتمنى لو كان بتلك المدينة مكتبة أستطيع أن أعثر فيها على بعض المراجع التى احتاجها ليخرج هذا العمل فى الشكل اللائق، وإن كنت أعتقد أن التأمل الشاعرى سيكون خيراً من جمود التاريخ وحزلقة الفلسفة .

قد تكون كتابة التاريخ محتاجة إلى مهارة وتراكم هائل من المعلومات التاريخية، ولكننى أعتقد أن المؤرخ للماضى والمستشرف للمستقبل، يحتاج أكثر إلى نفس أرضُها غير خصبة أمام بذور الشر.. نفس قادرة على تلمس الحقائق ببساطة.. وروح مؤتلقة بلا ظلمات ،وقلب له خاصية كسر خطوط الضوء وتكثيفها فوق بؤر الغموض ليستبين خباياها.. وأنا هنا متفوق على الآخرين بحكم الخلقة، ولن أقسر نفسى أو أجبرها على شئ .. أريد أن أتحدث عن التاريخ بقلب شاعر، ولن يكون صعبا أن أسلك هذا الطريق، وأنا شقيق

النيل.. واهب الحياة لمصر، وابن عم الجبال التى تكثر من حولى هنا. أعرف أننى لا أملك مواهب المؤرخين ومهارتهم. وأعرف أيضا أننى متفوق عليهم بالفطرة.

ترى.. ما الذى جئت لأفعله فى هذه الدنيا ... هل جئت إليها ممسكا بقلمى، لأترك للناس بضع صفحات قبل أن أموت !...لست أدرى !!

ربما لولا دخولى كلية الصيدلة التى لا أحبها، ومن قبلها الحربية، ومن قبلهما القسم العلمى، لما كتبت، أو لكتبت بشكل آخر مختلف.. فدائما كانت المعاناة ..وكان القلق بسبب وجودى فى غير مكانى، وراء محاولاتى خلق الأشياء التى تعادل الحزن فى داخلى..هذا الذى أشعر أنه يداهمنى أحيانا كثيرة، ويدفعنى دفعا لأ مسك القلم .. فأشعر أننى أقوى رجال العالم، وأدعى أنه لاغنى عنى لتلك الحياة، وقد أصبحت ضروريا لاستمرارها ..

ما أجمل هذا الشعور حين يتملك الإنسان، حتى وهو يشى بالغرور، والغريب أننى كنت استبطىء الحزن أحيانا، وكان هذا يدفعنى إلى أن أخلق حولى ألوانا من القلق.. لأخلق الحافز على الكتابة، وتتفاعل الأشياء ذاتيا فى داخلى، وأنا أحس أن العالم المكتوب

يقلقنى، وأشعر بالسعادة لما فعلته بنفسى.. وأنا أثير هالات من القلق والخوف فى أرجائها.. لأرى بعد ذلك قلمى يمتلىء بالحبر، ويجرى مسرعا فوق الأوراق.

كنت أحاول دوما أن أشحذ موهبتى، وأن أسأل نفسى دوما عن دورى فى الحياة، لأجدد المسار الذى يجب أن أسير عليه والذى كثيرا ماكان يفر منى.

كنت أبحث عن قضية أعيشها.: وحين أنتهى منها أبحث عن أخرى. لم أكن أتصور إمكان قبول الحياة بدون قضية تعطى المعنى لحياتى وتملؤنى همة ونشاطا.

ترى.. هل سأتمكن وأنا بتلك المدينة التى تتوسط هضبة شبه الجزيرة من العثور على أشياء لأقولها .. سأحاول ذلك.. حتى ولو كنت مشروع كاتب ليس مضمون النجاح .

أعرف أن كثيراً من الذين أقرأ لهم، يفضلونى وقد قرأوا عشرات أضعاف ما قرأت، وتمكنوا من اللغة ومفرداتها، ولكنى سأظل متفوقا عليهم.. لأنى شئ متميز.. شئ لا يتكرر.. وقد يأتى فى الزمان مرة واحدة .. إن حياتى لم يعشها أحد .. وخيالى له

خصوصيته وتميزة .. وعقلى ومشاعرى لن تكون صورة من عقل إنسان آخر أو مشاعره .. فما سأكتب أيضا سيكون بعيدا بقدر هذا التميز عما يقول الآخرون.

لقد رأيت المئات من الجميلات حولى فى الحياة، وربما الألوف.. وقد زرت بلدانا كثيرة، ولكن اللاتى علقن فى ذاكرتى . معدودات على أصابع اليد، ولم يكنَّ الأجمل.. بل الأكثر تميزاً.

وأنا أتميز عن الآخرين.. بهذا القدر الهائل من الحب لكل البشر.. حتى صرت مع الجميع جسداً واحداً وروحاً واحدة فى عمق إحساسى، فصرت وأنا أتكلم عن نفسى .. أتكلم عنهم دون تعمد أو قصد، ودون إجبار أو افتعال .. لذلك ستعيش كتاباتى إلى آخر الزمان .. وهى ليست الأجمل.. ولكنها الأصدق والأكثر قربا من قلوب البشر، الذين سيقعون فى حبى ،كما وقعت أنا فى حبهم.. ليستجيبوا للخير الذى أود لو حدثتهم عنه، وسيحرق الفولت العالى فى كتاباتى كل الأشرار، وسيحوط الطيبين من البشر ليسيج حولهم ويحميهم من القتلة وأعداء الحياة.

****

كانت بيدى بضعة أكياس حين استوقفنى أحد الرجال وأنا خارج من السوق، أحث الخطى إلى سكنى لأعد طعام الغذاء .. كان الرجـــل سعودى كما بدا من هيأته وطريقة كلامة، وبعد أن سلم قال لى..

: أبو فيصل داعيك للعشاء. الليلة بالساحة الكبيرة.

وأسقط فى يدى بسبب أبو فيصل .. هذا الذى يهتم إلى هذا الحد بدعوتى على العشاء وأنا لا أعرفه .. من يدرى ربما أعرفه ولا أتذكر اسمة.. قد يكون أحد جيرانى أو من زبائن الصيدلية .. قد يكون أى شئ ..لاضرر .. لأشكرن الرجل وأعده بالحضور، ثم لا أذهب.. وحين يقابلنى أبو فيصل فيما بعد، فسوف أعتذر له .. وسيكون لى من حسن خلقة ما يحملة على قبول اعتذارى.. إن . هذا أهون كثيراً من أن أسال الرجل الذى بعثة أبو فيصل إلى خصيصا وأنا أقول له..

: من أبو فيصل هذا ؟!

إن فى هذا إحراج للرجل ولى أيضا ... وشددت على يد محدثى وأنا أشكرة وأقرؤه السلام لأبو فيصل.. وانصرفت وأنا أفكـــر فـــى هـــذا الفرح الكبير الذى سيقام بأكبر ساحات البلد.

وفى المساء زارنى كفيلى بالصيدلية.. وســـألته عـــن هـــذا

العُرسُ الكبير الذى سيقيمة أبو فيصل فى الساحة الكبيرة ودعانى إليه .. وسألته إن كان يعرف أبو فيصل.

أغرق كفيلى فى الضحك وهو يقول:

: آيش فيك يا مصرى.. ما تدرى إنت بو فيصل!!

وأجبته بأنى لا أتذكرة تماما وسألته إن كان يسكن على مقربة من الصيدلية .

فرد وهو يستكمل ضحكاته..

: يا دكتور بو فيصل هو الملك فهد عبد العزيز ......

: الملك !!

: نعم .. الملك ..وحنا نناديه بأبو فيصل ..اسم ابنه الكبير.

: وليه يدعونى الملك للعشاء؟!

: يا أخى ... الملك فى زيارة لبريدة وينزل بقصر الضيافة.. ولأنه الأكرم فهو يدعو البلد كلها عـ العشاء بالساحة الكبيرة قبل أن يدعوه أحد .. فطبع الملوك الكرم، وهو لازم يكون سباقً للخير والجود.. والحقيقه أنها فرصة بالنسبة لى يا دكتور.. سأكتب له طلب وأقدمة للإمارة.

: طلب آيه يا أخ سليمان ؟

: والله يا دكتور أنا أبغى خمسين ألف ريال، والله يمد فى عمر أبـــو فيصل ويعطينى إياهم منحة، وإن شاء الله أعطيهم لك تشترى أدوية ـيادة، وما يصير شئ ناقص عندنا.

: يابختكم بالملك بتاعكم يا أخى!

وفى المساء كنت وكفيلى بالســاحة الكـبرى، حيـث المـائدة العجيبة.. كانت الأرض مفروشـــة بالسـجاد فــى خطــوط طوليـــة، والصوانى تحتل مكانها فوق الفُرش البلاستيك الرقيق، أمام السـجاد، ـكانت "هبر اللحم" هى أكثر ما يميز الوليمة، وعلمت أنه ذُبح فى هـــذا ليوم أربعين جملا ومائة خروف، وإلى جــانب صوانــى " الكبســة لسعودى"، كان البرتقال والموز وزجاجات المياه المعدنية وعبـــوات لمياه الغازية، واللبن الرايب .

وامتدت آلاف الأيدى فى حركة ذكرتنى بقطار الدلتا القديم، الذى كان يمر بقريتى الصغيرة " بلتان" .كان القطار يمشى بـــالفحم، ؤترتبط عجلات القاطرة بزراع حديدى يندفع إلى الأمام والخلف فى حركة دائبة .. هكذا كانت الأيدى المسارعة إلى الطعام.. وأكل الجميع

حتى الامتلاء ، وحين انتهينا من الطعام كان ما تبقى يكفي لاطعام قرية كاملة من قرى مصر، ولست أعتقد أنني سأرى حفل عشاء في ضخامة ما رأيت مابقى لى من أيام على الأرض. تذكرني تلك الواقعة بأخرى حدثت بنفس المدينة "بريدة"... وكانت عائلة "السولو" قد دعتني لتناول العشاء، ولطرافة الموقف ومايحملة من دلالات سأروى ما كان.

فذات مساء وأنا بالصيدلية أتى إلىّ شاب كان يقود سيارة فارهة، أوقفها أمام الصيدلية مباشرة وتقدم نحوى ليقول لى أن أباه يدعوني لتناول العشاء، وأنه سيأتي إلىّ بعد إنتهاء الدوام (العمل) ليصطحبني إلى منزله... كانت هيئة الشاب مألوفة لدى.. رأيته مرة من قبل بالصيدلية، حين أتى بصحبة فتاة حسناء تحسبها إحدى الأميرات التي نسمع عنها في الأساطير التي تروى عن حياة الملوك.عجزت العباءة الفضفاضة التي تجتهد في إخفاء ما وهبها الله من نعم الحسن عن ستر هذا الجمال، الذى يدعوك إلى تخيلة من خلال أناملها الدقيقة وعينيها الرائعتين، وذلك القوام الذى وصفة الشعراء قديما بأنه سمهرى- ويقال سمهرى نسبة إلى قبيلة بنى سمهر وكان أهلها معروفون باعتدال القامة ورشاقتها التى تشبة الرمح -كانت الفتاة مريضة وعلمت أنها

تؤدى امتحانات الثانوية العامة، وأنه لا وقت لديها للمرض ... وصفت ليا بعض الأدوية وأنا أدعو الله أن تأتى بالنتيجة المطلوبة.

كان هذا الموقف القديم وراء تلك الدعوة.. فقد شفيت الفتاة وأدت الامتحانات ، واعتقد أبوها أنه مدين لى ، وأن عليه رد الجميل.

أتى الشاب ليأخذنى من الصيدلية نحو التاسعة مساء، وكانت المفاجأة حين توقف أمام القصر المقابل لسكنى، فَفُتِح الباب ودخلنا بالسيارة حتى حمام السباحة، حيث جلس أبوه، بصحبة أمة فنزلت إليهما وتبادلنا التحية ، ودخلت إلى قصر الذى تلفتك فيه كل لمسات الأبهمة والفخامة ، وفى غرفة الضيافة كان هناك الكثير ليقال عن أصناف الطعام والحلوى والفاكهة. ظننت فى بادئ الأمر أن عشرة رجال على الأقل سيأتون ليشاركونا الطعام ، ولكنه لم يكن لسوانا.

دارت بيننا أحاديث شتى أثناء تناول الطعام،وسألته عمن أعد كل تلك الأصناف، وأخبرنى أنهن أخواته البنات !!

كنت بحكم إقامتى بالمملكة أعرف ماذا يقدم المطبخ السورى والفلسطينى والسعودى، وفى تلك الدعوة رأيت أمامى مختلف البلدان .. وانتهينا من الطعام ،فما نقص إلا بمقدار ما ينقصة الدلو من البئر..

وأثناء تناول القهوة أخبرني مضيفي أن شقيقته نجحت في الامتحانـــات التي مرضت خلالها ، وأن لديها ملحق في اللغة الانجليزية، وكان علي أن أعالج تلك المادة كما عالجت وعكتها الصحية من قبل ، واعتدت فيما بعد أن يرن جرس التليفون على صوتها لأجيب على أسئلتها من خـــلال الهاتف ، والطريف أن الدرس بتلك الوسيلة غير المعهودة، أدى الغرض منه، واجتازت الفتاة الامتحانات، ولم ينس أبوها أن يرسل لي جهـــاز تسجيل كمكافأة لي، مازال عندي حتى اليوم.

****

تلك هي المنطقة الوسطى بالمملكة ،والتي يسمونها "القصيـــم" وتخاف منها العمالة الأجنبية لتشدد أهلها وتعصبهم لأصولهـــم العرقيـــة وسطوة رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذين وصل بهم الحال إلى الدخول على المتكاسلين عن صلاة الفجـــر غـــرف نومهـــم ، وضربهم وهم نيام ليهبوا للصلاة، وإلى أن انتهى الأمر بشاب ســـعودي إلى إطلاق الرصاص على أحد رجال الهيئة ليرديه قتيلا، حين دخل عليه غرفة نومه ليوقظه !

وعلمت أنه صدر مرسوم ملكي بعد ذلك ،يقصر مطاردة النـــاس

على الشوارع إن مشوا أثناء إقامة الصلاة أو فتحوا محلاتهم ولم يغلقوها، إلا أنني في الحقيقة لم ألمس كل ما قيل عن تشددهم بنفسي خلال تلك الأيام التي أمضيتها معهم، بل على العكس تماما من كل سمعت وقيل لي عن الناس هناك .

كان العاملين من مختلف الجنسيات العربية يلعنون حظهم العاثر الذي أوقع بهم في تلك المنطقة التي أحسوها فخا يودون النجاة منه، وكنت أخالفهم الرأي وأنا أحترم عقلي وأحكم من خلال ما أرى.

كان أهالي تلك المنطقة بالنسبة للمملكة كأهل الصعيد بالنسبة لمصر، وكأهل الشمال الفرنسي بالنسبة لمنطقة الريفيرا الساحلية هناك..كانوا يشعرون بتميزهم عن الآخرين.. كانوا يحسون هذا في داخلهم ويتحدثون به .ويصفون أهل المدن الساحلية والحدودية بالمملكة وأهل المدينة ومكة بأنهم بقايا حجاج أو زوار للملكة وأقاموا بها منذ زمن طويل، وأنهم لا يدانون أهل الهضبة شرف المحتد وأصالة العرق .. كانوا يقولون عن أنفسهم أنهم القبائل العربية الأصيلة، ويصفون أنفسهم بأنهم (٢٢٠ فولت) وأن الآخرين(١١٠فولت) ...وكان الرجل منهم يعزف عن زواج ابنته من رجل لا ينتمي إلى القبائل في

أصوله،ويضحك الشباب منهم وهم يقولون لى،أن الرجل الذى يتجـــرأ
على زيجة كتلك إن وافق الأب، فسوف تحترق أجهزته بمجرد اللمس
لعلو التيار عليه. كان إحساسهم بالتمايز فيما بينهم إمتداد طبيعى لما فـــى
نفس البشر عموما وصعب على العقيدة مهما بلغـــت سـطوتها علـــى
النفوس، أن تغير هذا المفهوم بالتحديد، رغم أن التفــاضل بيــن النــاس
بنص الحديث لا يكون إلا بالتقوى ... ولكن أيضا هناك الحديث القــائل
"خيركم فى الجاهلية خيركم فى الاسلام" ،وربما فهم منه الناس ما تمليـــة
عليهم غرائزهم الفطرية من رغبة فى التفاخر بالحسب والنسب وأصالة
العرق .

كنت أرى أشياء تذكرنى أحيانا بالألمان والعـــرق الآرى وزوات
الدم الأزرق.. كان لما يحدث هناك أشباه عبر التاريخ وفى كل مكـــان.
أى نزعة تلك التى تنطلق منها أحاسيس عميقـــة فـــى نفـــس
الإنسان، لتفجر سلوكيات عانت منها البشرية على مر التاريخ، ولم يفلح
معها نظام أو عقيدة ؟!!

إن هذا الذى رأيت فى السعودية ، رأيته من قبل هذا فى فرنسا
وأراة منذ مولدى فى مصر ، وهو فى النهاية شئ غير قابل للحل، وإن

كان قابلا للتحليل .

****

أحببت أهل القصيم وأعجبتنى صفات كثيرة فيهم ... لــــم تكــن تزعجنى حقيقة إلا تلك الرقاب التى تطير فى ساحة الجـــامع الكبــير، قصاصا من بعض الشباب الذين يتجاسرون على خطف فتاة للاعتـــداء عليها ، وأثار دهشتى أنه لم يكن هناك من يقدر علــى الفــرار بفعلتــه ..وكنت أتساءل بينى وبين نفسى فى انبهار!!

أى أجهزة أمن تلك التى وصلت إلى هذا الحد !!

لمن الفضل فى هذا ؟!

أهو لغباء الجانى؟؟

أم للأجهزة الحديثة؟!

أم أنها البيئة الطبيعية التى تظهر على سطحها كل الأشياء؟ !

أم أنه أسلوب الحياة الاجتماعية الذى يختلف فى الكثير عمن سواه؟!

أم أنها كل تلك العوامل مجتمعة ؟! .

عموما أياً كانت الأسباب.. فحتما رجال علم الاجتمـــاع قــادرون على قول الكثير بهذا الشأن .

كان الناس هناك يعتقدون فى استحالة ألا يقام الحد عليهم، حتى لا يفسد المجتمع، وكان عسيراً على نفسى أن أرى على الأرض رقاب شباب صغير تتدحرج وهى تقطر الدماء !!

وأعملت ذهنى ... ولم أصل إلى حل.

إن الشباب منهم يعلم أنه ميت لا محالة فلماذا إذن !!

وكيف استطاع أن يسعد بعمل يعلم أنه الأخير فى حياته !!

أتكون الرغبة فى الإنسان أقوى من الحياة نفسها!!

أنفتح لهم المجتمع ونلغى تلك الانفصالية بين الجنسين تلك التى ربما كانت وراء حالات الخطف؟

ولو فعلنا هذا.. أليس من الممكن أن تزداد الحالة سوءاً!

ملعون هذا الشيطان الذى يهلكنا فى طريقه !!!

إن الشباب السعودى الذى فُتحت سماوات بلادة بالأطباق التى تستقبل من كل مكان .. وبيوته التى أغرقتها أفلام الجنس الفاضحة، وتلك العمالة الأجنبية التى شملت كل أجناس الأرض بأعداد تزيد كثيراً عن العمالة الوطنية. كل هذا شكل حربا ضروسا على عقلة وأعصابة وقيمة الإجتماعية ، ونحن لم نرحمة فصار القتل هو السبيل الوحيد

لتقويمه. وكلما أينعت الرؤوس صار قطافها لا ينقطع عقب صلوات الجُمع، وحد الحرابة لانقاش فيه، وصار شيئا عاديا أن استمع إلى المذيع بالتلفزيون وهو يقرأ الآية الثالثة والثلاثون من سورة المائدة " **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أوينفوا فى الأرض ،ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الأخرة عذاب عظيم**"

وكانت إذاعة تلك الآية ايذانا بإعلان أحكام بقص الرقبة هنا وهناك!!

أنا لا أدعى قدرة على الفتوى.. ولكنى أعلم أن الأيدى التى سرقت لم تقطع فى عام المجاعة..

ويخطر لى سؤال

: أليست هناك مجاعة جنسية يمكن أن تعفى الشباب السعودى من القتل وتوقف تطبيق النص مؤقتا، لحين علاج المشكلة من جذورها.. يهيئ لى أحيانا أن حد الحرابة قابل للتطبيق فى كل بلاد العالم إلا المملكة السعودية ... ربما كان السجن القاسى مدى الحياة جزاء يمكن تطبيقه ، وستكون الحياة البائسة للمسجون رادعا أقوى من قتله وهو حى أمام الأخرين .. أما الأنثى التى اغتصبت ...فعلى المجتمع رعايتها

واعتبارها ضحية تحاط بعناية خاصة، ويصرف لها من مال الجانى ما يعادل "الدية" التى تسلم لأهل القتيل ثلاثة مرات ... باعتبار أن المـرأة تخص نفسها وأبوها وزوجها وبهذا يكون التعويض "٣٦٠" ألفـا مـن الريالات، تأسيساً على أن دية الإنسان هناك "١٢٠" الف ريال.

وهكذا سنجمع بين عقوبة البدن للمعتدى وأيضا استنزاف أمواله لنعوض الضحية التى لن تكسب كثيراً بقتلة ، وأن تكون عقوبة السجن فى تلك الحالة مما لا يجوز فيها قرارات العفو إلا بعد خمسـة عشـر عاما، ويشرط سداد التعويض المقضى به، وربما نكون بهـذا انقذنـا روح المغتصبة التى غالبا ما يقتلها المعتدى وهو يعلم أنه ميت ... ميت .. فى الحالتين... سواء تركها بعد الاعتداء عليها أم قتلها لإخفاء الجريمة الأولى.. وهو غالبا ما يلجأ للقتل. ربما لو كان لدية أمل فى الحياة بعـد وقوعه فى لحظة الضعف ، لأ كتفى بما أصاب من جُرم وعفـا عـن ضحيته بعد أن راحت عنه تلك اللوثة المؤقته التى أصابته.

أنا لا أدعى أننى مؤهل لأن أكون مشرعا ... ولكننـى أجتهـد كإنسان، وعلى من هو أعلم منى ،أن يُعَدِلْ فيما فيمـا إرتـأيت، لعلـة يضيف أو يلغى، وزبدة هذا الموضوع فى النهاية تقول أننا بحاجة إلى

وقفة، ولحظة تأمل.. لعل الله يفتح أمام بصيرتنا الأبواب، والاجتهاد ملك لنا إلى يوم التناد.

أقول هذا وأفوض أمرى إلى الله.. فهناك من سينادى باقامة حد الحرابة عليّ، لأنه لا إجتهاد مع النص.. وله أقول :أننى إجتهدت.. والله وعدنا إن أخطأنا بحسنة واحدة.. وإن أصبنا بحسنتين.

****

وُلد نوع من الصداقة بينى وبين أحد المصرين العاملين بكلية الزراعة .. كنت أزورة فى بيته.. وكانت زوجته سيدة فاضلة تجيد عمل "المسقعة " التى أعشقها، وتتفوق فى إعداد " صيد ية السمك".. فضلا عن كل ما ينتجه البحر من أحياء بحكم " سكندريتها " ومكّن لتلك الروح البحرية فى بيتها كون زوجها " سكندرى" هو الآخر.

كانت حياة هذا الصديق مع زوجة تفتح الشهية للزواج، ومع الأيام كانت المسافات تتلاشى بينى وبين تلك الأسرة الصغيرة، وذات مساء قلت لصديقى أننى أرغب فى الزواج لتكتمل حياتى بالمملكة، وأبعد عن نفسى هذا الإحساس المرير بالوحدة.. وأنا أعود كل ليلة من سهراتى

مع الأصدقاء لأ شعر بأحاسيس المسجون مع خمسة غرف فضفاضة ، تضيق فيها أنفاسي ..وأنا أشعر كل الوقت بأن غرفة واحدة فوق أحد الأسطح أرحب منها، إن خيمت فوقها ظلال المودة. والرحمة مع زوجة صالحة.

العزوبية فى مصر شئ محتمل، وأنت محاط بأهلك وأحبائك وأصدقائك، أما فى هذا المجتمع الانفصالى بالمملكة، فهى شئ فوق احتمالك !

أبدت زوجة صديقى رغبتها فى القيام بتلك المهمة، وذهبت أطلب من كفيلى أجازة أسبوعين فقط، وحددت ميعادها لتوافق أجازة صديقى وزوجته، ووافق كفيلى على مضض، وأغلقت الصيدلية وسافرت على نفقتى الخاصة ، وفى مصر كانت أسرتى قد قامت باحصاء الفتيات الصالحات للزواج ، ولم يكن يمضى يوم إلا وأرى فتاة أو أكثر، ولكنى لم أرغب فى أى واحدة منهن.

وسافرت إلى الإسكندرية فى الثلاثة أيام الأخيرة، لعل زوجة صديقى تَصدُق فيما قالت بالمملكة، وهناك رأيت شقيقتها..كانت بالثانوية العامة، ورغم صغر سنها إلا أن وفاة أمها جعلتها أكبر من

عمرها، واتصلت بأخى الذى سارع بالحضور إلى الإسكندرية، وتمت الخطبة فى حفل عائلى بمنزل العروس فى "باكوس"، وعاد أخى وبقيت أنا بالإسكندرية يوماً آخر مع خطيبتى، وعدت إلى طوخ لأمضى يوماً مع أخوتى قبل عودتى للملكة .

وفى بريدة . مرة أخرى ..كنت أقوم بعملى بروح مختلفة.. كلها نشاط وإقبال على الحياة، وصار للأشياء معنى، كما صرت أنا زبونا دائما لكابينة التليفون التى تقع أمام الصيدلية.. ولجأت إلى قلمى أبثه أشواقى وأرسلها إلى مصر.

كانت الفتاة لايتجاوز عمرها ثمانية عشر عاما، ولكن ذكاؤها والاحتياج المتبادل بيننا دفع كل منا نحو الآخر، ولم يكن فارق السن بأمر ذى بال عندى وأنا صاحب القناعة الغريبة التى تؤكد فى نفسى أننى من سلالة راقية لاتبلى على مَر الأيام، وأن صفاتى الوراثية شئ فريد ونسيج وحدها.

ولم أطق البقاء فى بريدة أكثر من خمسة أشهر أخرى، لأعود إلى مصر وقد أنهيت عملى بالمملكة. وبالإسكندرية علمت أن خطيبتى رسبت فى الثانوية العامة، وأنها تود لو أعادتها مرة أخرى، وأمضيت

معها ثلاثة أيام واكتشفت خلالها أنها أقل بهاء مما كنت أتخيل، وبدأت أشك أن الحرمان من الحياة الاجتماعية والائتناس بالصداقة مع الجنس اللطيف أيام كنت بالمملكة، كانا وراء وهم الحب الذى عشت عليه بضعة أشهر، وانسحبت بلطف وأنا أتعلل بأننى لاستطيع تأخير الزواج عام آخر.

وفى طوخ كدت أشعر بأننى سأعيش بلا زواج باقى حياتى، وأنا لا أجد من تشعرنى بأنها نصفى الناقص!

****

كانت لى ابنه خالة تقيم فى طوخ، وهى متزوجة من ابن عمها "محمود " الشهير "بالعمدة "..هذا الذى أتى من "مسارة "مركز ديروط" .. الموطن الأصلى لعائلة أمى، ليقيم مع زوجه.

وفى إحدى الأمسيات، ولم يكن قد مضى أكثر من شهر على عودتى لمصر، جاء محمود وزوجه لزيارتنا، وكان أخى أحمد وأختى افتتان فى زيارة لنا أيضا، وكان أخى يزمع أن يعود للقاهرة وهو يصطحبنى معه ليرينى إحدى قريبات زوجه، وهو يظن أنها الأنسب لى، وأمنّت أختى إفتتان على كلماته، وهى تقول إن شاء الله تكون دى

آخر المطاف.

كنت أميل إلى تصديقهما.. ورغم أنهما ليسا من أشقائى فهما أخوة من الأم فقط.. إلا أنهما كانا أقرب إلىَّ من إخوتى الذين هم من الأب فقط، ولم أشعر لحظة بانهما يحتلان فى نفسى مرتبة تقل عن أشقائى، بل على العكس كانا أقرب إلىَّ فى احيانا كثيرة من الجميع .

يبدو أن أُخوة العصب قد تتعرض إلى ما يعكر صفوها من مشاكل الميراث، وأيضا محاولات الأم لنقل مشاعرها تجاه ضرتها إلى ابنائها، وهى مشاعر تحكمها غيرة مدفونة فى حياة الأب، وقد تأخذ أشكالا أكثر وضوحا بعد رحيل الأب.

ارتديت ملابسى، ووضعت اللمسات الأخيرة الواجبة لتأنق العريس كما أوصتنى أختى إفتتان، وأصرت أمى ألا نبدأ رحلتنا إلى القاهرة قبل أن تجهز " الكيكة " لنأكل منها قبل الرحيل ..وهنا دخل محمود العمدة فى الحوار .. وبلكنته الصعيدية المحببة قال ..

:أنا عندى عروسة الدكتور محمد، وما عيزش أتكلم من الصبح ، بعد إذنكم أنا رايح مشوار صغير مع الدكتور.

ضحك الجميع من مفارقة محمود .. وكشرت زوجه على أنيابها

وهى تحاول لفت نظرة إلى أننى ذاهب مع أخى لرؤية قريبة زوجته، وانتهى الموقف وأنا معه قاصدين الشقة المقابلة لشقته، وفى الطريق أخبرنى بأن جارة له أربعة بنات.وولد واحد، وأن كبرى بناته انتهت لتوها من الدراسة الجامعية، وأن التالية لها مازالت تدرس بالجامعة.

وهناك بمنزل تلك الأسرة.كانت الأم ترحب بمحمود، الذى قدمنى لها على أنى قريب له، وأرغب فى شراء بعض الأجهزة الكهربائية من المعرض الذى يملكه عم أولادها بالقاهرة، وأتت البنت الكبرى لتكتب لى عنوان المعرض بالقاهرة.

كان هذا اليوم هو آخر يوم لها بامتحانات بكالوريوس الزراعة جامعة بنها .. كانت الزيارة مفاجئة لهم، وكانت الفتاة غير مستعدة لاستقبال من ينوى معاينتها بغرض الزواج .. كانت ترتدى ثوبا بسطا وتلف شعرها بإيشارب، ولا تضع أى مساحيق. لم تتكلم كثيراً وقامت تستأذن لتتركنا مع أكواب الشاى وأمها البسيطة التى تفوح منها الطيبة الفطرية الرائقة. أنهينا الشاى سريعا، وقمنا نشكر أصحاب البيت ونحث الخطى فى طريق عودتنا إلى أخى أحمد.. نشارك الجميع "الكيكة " التى أعدتها أمى.

لم يكلفنا الطريق أكثر من ساعة لنكون بالقاهرة، وهناك كان أخى يصف السيارة أمام بيت العروسة التى يرغب أن يُريها لى، وابتسم الآن وأنا أتذكر ما حدث.. حين رفضت النزول من السيارة وأنا أقول لأخى عد بى إلى موقف المظلات أو أحمد حلمى حالا ، وسألنى مندهشا عن السبب، وقلت له أننى سأتزوج الفتاه التى أرانى إياها "محمود العمدة ".

شعر أخى أننى جاد فيما قلت، والغريب أنه بارك لى مقدما ، وهو يقول فى غبطة .. "وأخيرا هشوفك عريس" ، وكأن شيئا ما يوحى له بأن هذه الخطوة ستكلل بالنجاح !!

عدت إلى طوخ ،وتوجهت إلى مسكن "محمود العمدة". أمضينا معا بعض الوقت، وفي نحو العاشرة مساء كنا نطرق باب جارة للمرة الثانية، وفُتح الباب، وطلبت يد الفتاة التى صارت زوجتى بعد أسبوع .

كنت حريصا على الاسراع فى إجراءات الزواج، قبل أن يتدخل الشيطان ليهدم كل شئ، وحين وعدنى أبوها بالرد بعد يومين، كنت أشعر أن الطريق سيكون بلا عراقيل، وخلال هذين اليومين كنت أضع اللمسات الأخيرة على شقة والدتى التى كنت أعدها وأنا بالمملكة

للزواج .. وكنت قد اشتريت كل العفش حتى التنجيد كانت أمـــى قـد أعدته، والكل متصور أننى سآتى لأمضى وقتا قصيرا فـــى مصـر، لا يحتمل أن نفقد منه شيئا فى تجهيز الشقة، لأعود بعده إلى المملكة حيث الدولارات تتساقط فوق رؤوس الناس فى يسر وبساطة، وحيـن وافقـت أسرة زوجتى على إتمام الزواج، واستقبلت الزوار من أســرتى بكـل حفاوة، دعوناهم فى اليوم الثانى لزيارتنا، وحين سألونا عن المطلوب منهم، لم يكن هناك شئ يمكن أن يضاف للشقة، وفى اليـوم التـالى ذهبنا لشراء الشبكة من القاهرة.. وكنا يوم الأربعـاء وتحـدد ميعـاد الفرح يوم السبت.

لم يكن أمام العروس غير يوم الخميس لتشترى بعض حاجاتهـا، بينما كنت أتابع أنا توزيع الدعاوى على كل المعارف والأقارب، وفـى حفل العرس مساء يوم السبت كان أكثر من ألف مدعو مـن العـائلتين يتبادلون التحيات على أنغام الفرقة الموسيقية، وكأن العـائلتين يرتبـان للفرح منذ شهور، والأغرب أنهم كانوا وكأنهم على صلات وثيقـة مـن قبل، وكلهم يلتقون للمرة الأولى. وفيما يشبه روايـات السـينما انتهـى الحفل، واصطحبت زوجتى إلى شقتنا، وطرأ لى أن أخرج إلى البالكون

لتحية المهنئين والمشاركين فى الزفة التى إنتهيت أمام مدخل العمارة، وفوجئت بعشرات الأصوات الصارخة تقول .

:أدخل ..أدخل ..أدخل...

وسارعت أغلق باب البالكون، وعدت إلى زوجتى مسرعا فشعرت بخجلها من هؤلاء الذين يحاصرون المبنى وعيونهم مثبتة على البالكون، ويعترضون على مجرد محاولتى شكرهم.

استبدلنا الملابس الرسمية بما يرتديه الناس عادة فى بيوتهم، وأصرت زوجتى أن تبعث بنصف"الحمام المحشو"الذى يقدم للعروسين فى مثل تلك المناسبات إلى أمى، التى ذهبت لتقيم مؤقتا مع شقيقى وأسرته. كانت العمارة التى يقطنها شقيقى لايفصلها عنى سوى شريط السكة الحديد لقطارات (القاهرة- اسكندرية) فوضعت عباءتى فوق البيجامة التى أرتديها. تأكدت أن الحصار قد إنفض وأسرعت إلى أمى وزوجة شقيقى وأولادة بالعشاء، أما أخى نفسه فكان يكمل السهرة بمنزلنا الريفى بقريتنا " بلتان" ومعه الزوار، الذى أتوا من أماكن بعيدة ليقوموا بقضاء سواد الليل وحتى خيوط الفجر الأولى، فى احتفال مكمل للفرح عادة ما يقام للخاصة فى بيت العائلة.

وفى اليوم التالى استيقظت فى منتصف النهار وقامت زوجتى تعد الإفطار. وقرب العصر أتت أسرة زوجتى لزيارتنا تسبقهم الزغاريد على السلالم، وقمت استقبل الرجال بالصالون بينما اتجهت حماتى ومعها بعض النساء وشقيقات زوجتى إلى غرفة النوم.ولم أكد أجلس مع الرجال حتى إنطلقت الزغاريد مرة أخرى من داخل غرفة النوم، فأنفرجت أسارير الرجال.. ويبدو أن الدفعة الثانية من الزغاريد كانت تعنى رسالة موجهة للرجال.. تقول لهم اطمئنوا وأرفعوا الرؤوس، ومد عم زوجتى يدة يربت فوق ركبتى، ووجدت أنه لابأس من أن أنفش ريشى لبعض الوقت، وأنا أتقمص شخصية الطاووس !

أمضيت نحو عشرة أيام بعد ذلك والزيارات لاتنقطع من أهلى وأهل زوجتى، القادمين يحملون الصوانى المحملة بالطعام ولايتركونا قبل ترك أحد الأظرف المغلقة بها بعض النقود تلك التى حصرتها لأجدها تكفى لقضاء شهر العسل بالغردقة.

ولحسن الطالع أن أخى " عبد الله " أيامها كان رئيساً للمحكمة العسكرية بالغردقة، ودعانى لقضاء الوقت الذى أرغب فيه، وقام بعمل الترتيبات لحجز أحد الشاليهات على البحر، وعدت من رحلة العسل بعد

نحو أسبوعين، لم أتكلف خلالها الكثير.. وكل المنشآت السياحية تتسابق لدعوتنا لنقضي عندهم سهراتنا ليلا وأوقاتنا نهارا .

عدنا من أيام العسل، وعادت أمي لتقيم معنا، وأمضيت بمصر نحو شهر ونصف، وحتى اتصل بي مكتب العميد " مصطفى " للسفريات يتعجلني في الذهاب إليه بالقاهرة، وهناك تقابلت مع الشيخ " صالح آل موته " وهو من مدينة نجران جنوب السعودية على حدود اليمن، وكان في زيارة للقاهرة لاستقدام صيدلي ليفتتح له صيدلية جديدة.

ودعوت الرجل ليتناول طعام الغذاء ببيتي، وفي طوخ كان باستقباله بعض أقاربي، وقمنا بواجب الضيافة، وأشترطت على الرجل أن يتم استقدام زوجتي خلال شهر واحد، وكان هذا شرطاً أساسياً لأقبل السفر، ووعد الرجل ببذل كل جهده، وقام بتحمل عمولة المكتب التي يحصلها صاحب المكتب نظير إتمام إجراءات السفر.. وخلال أسبوع كنت أودع أسرتي وزوجتي.

وهناك في نجران تناوبت العمل مع الصيدلي الذي يدير الصيدلية القديمة التي يمتلكها الكفيل.. كانت الصيدلية تقع بأحد الأودية المحاطة بالجبال على حدود اليمن، وكان تعاملنا مع المهربين فقط، لم يكن هناك

أهالى حولنا يكفون لتشغيل صيدلية، واكتشفت ذكاء الشيخ صـــالح فـــى اختيار هذا الموقع العبقرى.. كنا نبيع أضعاف الصيدليـــات التـــى تقــع بالمدينة ونحن فى قلب الجبل.. فعلى حدودنـــا دولـــة اليمـــن بنظامهـــا الاشتراكى، وكما هى العادة فى الدول الإشتراكية.. لازيت ولاصـــابون ولا أدوية ولاسكر .. ولأن الكفيل" صالح أل موته" من أصل يمنى فقـــد كان مدركا لابعاد المأساة فى بلادة .

كنت أفتح الصيدلية الساعة العاشرة صباحا، وبعد احتساء الشـــاى يأتى المشتغلون بالتهريب.. يتركون "الطلبيات" مكتوبة باللغة العربية على ورقة من كراس.. كانت لاتحتوى فى المتوسط على أكثر من عشـــرين صنفا.. أما الأعداد فكان حدها الأدنى صفرين أمام أى رقم من واحد الى تسعة، وأحيانا أخرى كانت تتجاوز الألف. كنت أجهز الطلبية وأجرى فى المتوسط تخفيض يبلغ عشرة بالمائة فى الأدوية التى تعطينـــى فرصـــة طلبها بهذه الكميات فى دخول عروض مع الشـــركات، لأحصـــل علـــى معاملة خاصة تصل أرباحي فيها أحيانا إلى خمسين بالمائة، وبعد أسبوع انتقلت إلى المدينة حيث استأجر لى كفيلى شقة على مقربه من الصيدلية الجديدة، التى تحتل موقعا استراتيجيا بالقرب مـــن أحـــد المســـتوصفات

الحكومية. أمضيت أسبوعان آخران وأنا أحاول أن أكون فكرة عن تلك المدينة التي سأبدأ فيها حياتي الأسرية، ولكني رفضت المدينة بأسرها لتكون أول مستقر لأسرتي، وأنا أقارنها " ببريدة "، رغم طيبة قلب كفيلي الذي أعطاني كل حقوقي وهو يقول لي أن الخطأ كان خطأه هو.. حين أخذني من بيتي وأنا مازلت عريسا جديداً .

كان أمامي يومين فقط لأغادر السعودية عائدا إلى مصر، حين رآني مجموعة من المهندسين المصريين، كنت قد تعرفت عليهم من خلال عملي بالصيدلية، وأخبرتهم أني أرغب في رؤية الآثار الباقية لأهل الأخدود.. فالتاريخ يحدثنا عن ملك ظالم كان يحكم اليمن وأمر بإحراق كل من اعتنق المسيحية.. وبالفعل جمع المسيحيين في وادي كبير، وأشعل النار من حولهم ومن تحتهم، وهو جالس مع قومه على الأسوار التي أقامها حول الوادي، حتى لا يفر من النار إنسان، وكأنه كان يؤسس للطغاة في المستقبل فكرة إنشاء أفران اللهب (الهولوكست).

وحين ذهبت الى الموقع كان عليّ أن أجتاز بوابة حديد وأحصل على إذن للزيارة من وحدة الشرطة المشرفة على تأمين المكان. رأيت جبروت الإنسان وقسوته على أخيه الإنسان، سألت نفسي أين الظالم

وأين المظلوم .. الكل ذهب والباقي هو اللــه،والدينونــة ليســت ببعيـد والحساب سيكون عسيرا على الظالمين، ووقر في نفسي أن هذا الظالم ، أنجب "هتلر" بعد مئات السنين، ليطور الظلــم، ورأت الدنيــا بأســاليب (المودرن) وهتلر يعد الأفران ويحرق الملايين بالتكنولوجيا،ليستفيد مــن نواتج الحريق.

التقطت بعض الصــور الفوتوغرافيــة لأسـجل هــذا الحــدث، واصطحبت معي قطعة صغيرة من الفخار، مكتوب عليها بلغة غريبة ، ربما كانت هي السائدة في تلك الأيام ..

وفي اليوم التالي كانت الطائرة تخترق كتل الســحب . وجبــال نجران تصغر رويدا رويدا أمام عيني ..

وأمضينا يوما في أحد فنادق جدة حتى تمكن كفيلي مــن حجـز تذكرة العودة الى مصر، وأدركت كرم أخلاق هذا الرجل وهو يقول لي : يادكتور أنا حجزت لك على الدرجة الأفق.. ذي ما جيت ترجع .

والحقيقة أن الشيخ الصالح لم يحجز لي تذكرة القادم من القاهرة إلى نجران على الدرجة السياحية ولكن على درجة أخرى بين الأولى والسياحية تسمى درجة الأفق ،وحين حجز لي للعودة ،حجز على نفس الدرجة، وكــان من الممكن أن يحجز على الدرجة سياحة ليوفر بعض المال خصوصا وأنني لم استمر بالعمل معه وعددت إلى مصر مكتفيا من الرحلة بعودتي إلى دفء حياتي الجديدة التي انتزعت منها في وقت غير مناسب

مستنقع الخنازير

في يوم (٨٩/٢/٣ م) عادت إلى الحياة وأنا أعود إلى بيتى مرة أخرى، وبعد شهر من عودتى حملت زوجتى ..وبدأ الأمل بلمساته الجميلة يضفى ألوانا زاهية على الحياة منذ اللحظة التى أخبرتنى فيها زوجتى بما عرفتنى أنها حامل ، وبدأت أعد الأيام وأنا أتمنى أن يرزقنى الله بولد يحمل أحلامى من بعدى !

وأوليت زوجتى كل الرعاية وكأنها ستلد أحد ملوك الأرض،وحين دخل الحمل فى الشهر السابع اعترضتنى فرصة للسفر إلى المملكة مرة أخرى وقابلت كفيلى الجديد "راجح حنظل المرى" صاحب مستوصف الشفاء بمدينة "أبقيق" تلك التى ينطقها السعوديون " بجيج".

وهناك بالمملكة عملت ضمن فريق مكون من

الدكتور محمد وهو صيدلى مصرى من مدينة أبو زعبل وصيدلى هندى وأنا..

كانت مناوبة الصيدلى الهندى فى الفترة التى يسمونها الميتة.. ثمانية ساعات من الثانية عشر مساء وحتى الثامنة صباحا، أما الستة عشر ساعة المتبقية من اليوم، فكانت مقسمة على فترتين الأولى وهى الأكثر ازدحاما من الثامنة صباح وحتى الرابعة مساء، والثانية من الرابعة وحتى الثانية عشر مساء، وكنت أنا وزميلى المصرى نتبادل العمل فى هاتين الفترتين بالاتفاق فيما بيننا ..

كان شرطى الأساسى مع كفيلى قبل السفر هو استقدام زوجتى وخلال شهر واحد فقط حتى تتمكن من وضع مولودها بالمملكة ،وهناك بالمنطقة الشرقية بالمملكة وجدت سعوديين من نوع آخر.. الكذب هو سيد الأخلاق عندهم !!

كان الرجل لاينوى على هذا مسبقا ،وكانت إقامتى مع أطباء مصريين وعمال فى شقة واحدة، وبالكاد حصلت على غرفة مستقلة، وكانت معظم الغرف الأخرى مزدوجة ،أما الشقة نفسها فكانت ضمن عمارة قذرة تكتظ بالعمالة التى يستقدمها الرجل.. من هنود وفلبينيين

وأتراك ومصريين فضلا عن الباكستانيين والأندونيسيين ممن يحتاج إليهم في العديد من المؤسسات التي يملكها.

كان زراعة الأيمن هو "سالم".. ابنه الأكبر المغرم بالممرضات والبغايا ..

وفي تلك المنطقة علمت أن الدعارة شيء له وجود بالمملكة العربية السعودية، أما السعوديون بوجه عام وفي تلك المنطقة فكانت النطاعة هي الصفة البارزة وسط مجموعة كبيرة من الصفات السيئة.. وكان معظمهم من الشيعة..

كان وصولي للمملكة في أول أكتوبر سنة (٨٩م) ولم أكن أعرف أن زوجتي ستعود بعد أن أوصلتني لمطار القاهرة إلى بيتنا لتعيش أخطر أسبوع في حياتها.. وضغط الدم لديها يرتفع إلى حد يهدد حياتها وحياة الجنين!!

كنت أعرف أنها تعاني تسمم الحمل الذي بدت بوادره عليها منذ الشهر الرابع، ولكني لم أتوقع أن يتأزم الموقف بهذا الشكل بعد رحيلي مباشرة ، وفي يوم (٩/١٠/٨٩م)وبمستشفى الجامعة ببنها أتى ابني الأول للحياة في شهره السابع ، وهناك ظل بالحضانة نحو ثلاثة أسابيع

وحتى اكتمل نموه .

علمت بتلك الولادة المبكرة فى اليوم الثانى مباشرة لمجيء ابنى إلى الحياة، وكنت قد أوصيت قبل سفرى أن يكون اسمه "عبد الإله".

وبدأت الأيام تمر بطيئة متراخية وقد تيقنت من استحالة استقدام زوجتى وقد أتى ابنى إلى الحياة ضعيفا محتاجا إلى رعاية مكثفة، فكيف له أن يتحمل مشاق السفر ومخاطر الانتقال من مناخ مصر إلى مناخ المملكة..

لم أكن مرتاحا فى سكنى بسبب تلك الزحمة الغريبة، ولم تكن الأمور أفضل بالصيدلية حين أتممت جردها، واكتشفت أدوية تجاوزت قيمتها أربعين ألفا من الريالات منتهية الصلاحية، وكان زميلى بالعمل يرغب فى أن أقوم باستلامها كما هى وحتى يتمكن هو من الذهاب إلى مصر ليتزوج أولا ،ويعدنى أن يعيدها إلى الشركات عند رجوعه، ولكنى رفضت إدخال الأدوية المنتهية ضمن ما سأقوم بالتوقيع على استلامه.

كان زميلى يكتم فى قلبه ويضيق بفتح ملف الأدوية المنتهية والراكدة، وينظر فقط إلى الأرباح التى حققها بالملايين لأصحاب المستوصف، وأنا أنظر إلى العهدة التى سأتسلمها وقد يأتى من يسألنى

عنها فيما بعد، ويحاسبنى على تسترى عليها !!

كانت الصيدلية هى الأكبر فى تلك المنطقة ومبيعاتهـا تتجاوز حاجز الخمسة آلاف يوميا،وكنا متعاقدين مع شركة البترول-أرامكو لأمريكية- وكل الشركات الأخرى والبنوك بالمدينة ،وكانت شركة امكو تسمح لنا بتناول الغداء فى مطاعمها وبأسعار رمزية، وكان محظوظون فقط، هم من تمكنوا من مشاهدة ما هو داخل أسوار الشركة، وقالوا أنها جزء من أمريكا موجود بجوارنا فى داخل المدينة الخاصة بالعاملين..كانت حمامات السباحة المغطاة وحفلات الديسكو، وكل مظاهر الحياة الغربية ..

كل ما أمضيتة بتلك المنطقة تجاوز الشهرين بقليل، ويعلم الله أننى أحسست بالشر منذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها قدماى مطار الزهران، وحين تعاملت مع الناس هناك شعرت فيهم بشىء غير مريح .. كان الشيعه يكثرون هناك ولست أدرى إن كان لهذا أثر فى طبيعة الناس ...، أم أنهم جبلوا على ما رأيتهم عليه!!

كان هناك شىء ما شعرته يسرى بينهم.. كنت أشعر فيهم "بالنتانه"، ولست أدرى إن كان هذا التعبير سوف يوحى بنفس الشىء فى

نفس من سيقرأني، كما أقصده أنا..لذلك أتطوع بإيضاح مفهومة عندي..

فالناس هناك يتصفون بالغباء الممتزج بالدهاء، خلطة غريبة لست أدرى كيف سبكت منها شخصياتهم المتناقضة.. الكذب داء بينهـــم، وضعــف الإيمان واضح عليهم ، يفضلون أكل السحت على غــيرة، روح الزنــا مستيقظ فيهم، كما يصدق عليهم بشكل عام أهجى بيت من الشعر قالتــه العرب .

العجرفيون لا يوفون ما وعدوا .:. والجرفيات ينجزن المواعيد

ولست أدرى كيف دخل البخل إلى قلوب هؤلاء الناس، وقد أفــاء اللــه عليهم من نعمته.

يقول بعض النقاد أن أهجى بيت من الشعر العربى قاطبه هو

قوم إذا ما استنبح الأضياف كلبهم .:.قالوا لأمهم بولى على النار

ترى هل قيل هذا البيت فى أهل المنطقة الشرقية، وهل تــوارث الأبناء صفات الآباء فى الحقب القديمة! أكاد أجزم بذلك وقد خبرت كرم أهل المملكة فى المنطقة الوسطى، والجنوبية، والغربيــة فيمــا بعــد ، والإنصاف يلزمنى أن أنزه كل من رأيت هناك من تلك الصفة الزميمة، أما تلك المنطقة التى خبرتها عن قرب ومعايشه، فالله يعلم أن معظم من

تعاملت معهم كانوا موصومين بتلك الصفة !

كنت أشعر بالغربة بينهم، وكان هذا الشعور يزداد كـــل يـوم ، حتىأنني تحدثت إلى أحد الزملاء من أطباء المســتوصف ذات مسـاء، ضاحكا وأنا أصف حالي متمثلا بذلك البيت.الذى قاله المتنبى

شر البلاد مكان لا صديق به ∴ وشرما يكسب الإنسان ما يصم

ليرد عليَّ ببيت من قول المتنبى ايضا

من نكد الدنيا على الحُر أن يرى ∴ عدو له ما من صداقته بد

كانوا رجالا حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم، ولكنها الثروة التى تتحرك دون ضوابط، والحقيقة أنه ماكان لى أن أستهجن ما رأيـت بتلك المنطقة، والتاريخ يقول أن أجدادهم كانوا تجار عبيد، يعملون على المراكب، ويُستأجَرون لمن يدفع من العابرين بتلك المنـاطق الحدوديـة، التى تربط بين البقاع المختلفة، وأيضا وفى حدود علمي بالتاريخ أنه قد قُتِل فى وسطهم واحداً من أشعر شعراء العرب، وكان عمره لايتجـاوز سبعة عشرعاما ....إنه "طرفة بن العبد البكرى" أحد أصحاب المعلقـات السبع.

كانت النتيجة الطبيعية لتلك الظروف التى واجهتها هناك وذلـك

الإحساس الذى نما فى داخلى عن الناس من حولى، أن أصبحت عصبيا بعض الشئ، وزاد من توترى ابنى الذى ولد بعيدا عنى وبدأت أشعر بتأنيب الضمير وأنا ألمس حاجته إلىّ .. إنه فى تلك اللحظات يحتاجنى أكثر من احتياجه إلى الدولارات التى سأعود بها إليه، وحين أعود ربما يكون قد غادر هذا العالم الذى لم يقابل فيه الأب، الذى افتقد رعايته فى أصعب أيام عمرة!

وسلمت إلى الله أمرى وأنا على يقين من رحمته، إلى أن جاء اليوم الذى فصل بينى وبين هؤلاء الذين كرهتهم من أول يوم.

كنا يوم الأربعاء (٢٤/٤/١٠٤١هـ) وكنت مكلف بالعمل فى الوردية الصباحية من الثامنة وحتى الرابعة مساء، وكان يعمل على خزينة الصيدلية عامل هندى فى حجم ثلاجة إثناعشر قدماء وكان فى العقد الثالث من عمرة. وفى نحو الحادية عشر صباحا وكانت الصيدلية مزدحمة وكل من يخرج من العيادات الخاصة بالمستوصف يأتى إليها مباشرة لصرف الدواء ليعود به يراجع الأطباء مرة أخرى فى طريقة الاستعمال، وشاءت الأقدار أن تنفذ (السرنجات) البلاستيك من على الرف، فطلبت من العامل الهندى أن يأتى بإحدى الكراتين المخزنة

بالرفوف العليا ، فلم يهتم .. وكررت طلبى مرات ، وأنا مضطر لاستبقاء طالبى الدواء حتى أتمم لهم ما يحتاجون إليه، وبدأت الصيدلية التى تتجاوز مساحتها المائة متر تكتظ بالمرضى .

اقتربت من العامل الهندى وبأصبعين فقط جذبته من كتفه برفق،وأنا أرجوه أن يأتينى بالسرنجات،حتى لا تختنق الصيدلية بمن فيها.. وهنا كانت المفاجأة الغريبة والغير منتظرة .. ورأيت تلك الهضبة الهندية تنقض علىّ بلكمة اهتزّ لها كيانى .. كانت اللكمة بصدرى، هذا الذى ظل يؤلمنى بعد ذلك وكأن حمارا رفسنى بغضب.. لم أعد أفهم ، وشعرت أن عقلى غاب فى عالم آخر ، وبدأت أتعامل مع الموقف رجل لرجل، متناسياً أننى صيدلى، وأنه وحش فى عنفوانه.. وبدأت معركة العشرون ثانية أمام رواد الصيدلية، والحقيقة أننى لم أكن أعلم أننى أجيد لعبة الكاراتية التى لم أمارسها، وإن كنت أشاهدها فى أفلام السينما ... كنت أدرك أن هذا الجبل الذى يصارعنى إن لم أوقف زحفه فى ثلاثون ثانية، فلن تكون النتيجة لصالحى.. ويبدو أن يدى كانت أسرع من دقات قلبى وهى توجه اللكمات إلى وجه خصمى الذى اضطرب وقد رأى مقاومة لم يكن يعمل لها أى حساب، اعتماداً منه

على فارق التكوين الجسدى ، وتدخل أحد الرجال السعوديون يجذبنى من يدى ليبعدنى عن الهندى، ولكن الدماء التى كانت تفور فى عروقى دفعت برجلى لتنال من مقاتلى أسفل بطنه، ودفعت القدم الأخرى ليترنح ويقع بظهره على الباب الزجاجى الخاص بالصيدلية ، فانفتح الباب للخارج،ووقع من ظن نفسه "أميتاب بتشام" فى شبه كومة أمام باب الصيدلية .

كان الصراع عنيفاً بين أحد أحفاد "رمسيس الثانى" وذلك الهندى المتوحش.. وسرعان ما انتهى لأعود إلى مكانى وراء (فاترينة) العرض، ألتقط أنفاسى واستكمل عملى. وأتى بعد قليل الصيدلى المصرى ليعاوننى، وحتى استدعيت للمستوصف لإجراء التحقيق معى بمعرفة الشيخ "راجح" وفى وجود الرجل السعودى الذى كان يحاول جذبى من يدى، لإنهاء الموقف أثناء الشجار، والذى قدمة لى صاحب المستوصف على أنه أحد رجال الأمن السعودى، وصاحب مركز كبير بوزارة الداخلية.

كان صاحب المستوصف كعادته اسم على مُسَمَى ..فالرجل يُدعى "راجح حنظل المِرى" وكان بالفعل حنظلا ومراً، كما كان مرجحا لكفة

الباطل في تلك المحاكمة. وشهد رجل الأمن السعودى شهادة ظلم بها نفسه ولم يذكر أن الهندى هو الذى بدأ الشجار ، وأن ما فعلت كان فقط رد فعل لما كان منه .. وعلا صوتى وأنا أقول لقضاتى أننى لا أتردد فى قتل من يتطاول على بالضرب، وتعجب الظلمة من حفيد فرعون المتماسك وهو مقبل على مشكلة قد تودى بحياته دون خوف. كان أحد العاملين المصريين بالمستوصف قد أقترب منى قبل دخولى جلسة المحاكمة ليقول لى أن الهندى بغرفة العناية المركزة، وأنه قد يموت .. لحظتها لمع حد السيف أمام عينى، وأنا أتخيل نفسى بالساحة أمام الجامع الكبير، وقد التف المصلون من حولى ليشاهدوا رأسى تطير قصاصا منى لموت الهندى ..ودعوت الله أن يطيل فى عمرى حتى أرى ابنى قبل أن أموت !! ولكنى كنت أفضل رغم خوفى أن أموت رجلا، وكنت أحاول إخفاء فزعى فى كلماتى المبالغ فيها، ويعلم الله أنه فى حنايا قلبى ورغم الخوف، كنت أشعر بالطمأنينة أيضا وبأن الله قريب جدا رغم بعدى عنه وانشغالى بالحياة وجمع المال ... سامحنى يا الله .. لأنى أولاً وأخيرا إنسان ضعيف محكوم باحتياجاته ومكبل بمن فى رقبته!!

وانصرفت من أمام المجلس العرفى الذى يحاكمنى وأنا أسمع كلمات السعودى الذى ظلم نفسة بشـــهادته، وهـــو يحكـــى لصـــاحب المستوصف عن هذا المصرى الذى كان يصارع الهندى كشيطان..على حد تعبيرة ... فيما يعنى أن ردعى أمر واجب ،وبات اعتقاد جازم فـــى نفسى لحظتها أن هذا الشاهد كان متحاملا علىَّ.. فقط لأننى مصـــرى.. فظلم نفسة قبل أن يظلمنى ،أمام من سيحاسبة يوم الدينونة.

وفى المساء زارنى طبيب مصرى ،أذكر اسمة جيداً.. الدكتـــور "جميل".. كان أخصائى الأطفال بالمستوصف، وكان جميلا بالفعل فـــى سلوكه ونخوته.. كان كث اللحية، وامتدت أصابعة تعبث بلحيتـــه وهـــو يبتسم قائلا:

: يا دكتور محمد إنت رفعت راس المصريين زميلك الدكتور محمد.. صيدلى قديم، ومن أربع شهور مضت ضربه عامل باكستانى ووقع به على الأرض، ومحدش من المصريين عمل حاجة ولا كانوا هيعملـــوا لك حاجة لو مكنتش أخذت حقك بإيدك...

وطمأننى حين قال لى أن العامل الهندى يتماثل للشفاء، وحذرنى من الانفراد فى أى مكان بالهنود والباكستانين، لأنهـــم متعـــاطفون مـــع

زميلهم وقد يفكرون في الانتقام .

ومضى يوم الخميس وكانت الجمعة أجازة لي، ويـــوم السـبت أصدر المستوصف قراره المتضمن التحقيق في الواقعة والجزاء الذى ارتآه المجلس مناسبا لجريمتى وكان نصه كالتالى .

بسم الله الرحمن الرحيم .

التاريخ ٢٢/١١/١٩٨٩م

إنه في يوم الأربعاء الموافق ٢٤/٤/١٤١٤هـ في حوالـــى السـاعة العاشرة والنصف صباحا قام الصيدلى / محمـــد محمـد البكـرى مصرى الجنسية بالاعتدا على العامل / محمد بلال هندى الجنسـية ، وذلك أمام جميع زبائن الصيدلية، وقد قام الصيدلى محمـــد البكـرى بجذب العامل بلال من جيب القميص، وضربه أمام الناس ، ممـــا أدى إلى تدخل الناس الموجودين بالصيدلية، لانقاذ محمد بلال من يده، وبعد أن تم نقل المصاب إلى المستوصف ، كلفت لجنة من الأطباء بالكشف على العامل / محمد بلال وعلاجة .. وقد قررت اللجنة ما يلى :

- أن العامل بلال قد ضرب ضربا شديدا في مكان حساس وخطـــر.

- توجد تجمعات دموية من أثر الكدمات والضرب.

وقد قامت إدارة المستوصف واللجنة الطبية بتوقيـــع الصلـح بيــن

الطرفين وقررت ما يلى-

-أن يقوم أن يقوم الصيدلى / محمد البكرى بدفع جميع المصاريف و تكاليف العلاج والأجر للمصاب محمد بلال طبقا لما يحدده الطبيب المعالج.

- يقوم الصيدلى / محمد البكرى يدفع مبلغ ١٠٠٠ ريال إلى المصاب محمد بلال كتعويض مقابل إصابات الضرب.

- تقوم إداره المستوصف بإنذار الصيدلى / محمد البكرى بعدم تكرار مثل هذا الاعتداء على أى موظف آخر، وأنه إذا تكرر مثل هذا العمل أو عدم التزامة بالقوانين المعمول بها بالمملكة ، فإن للمستوصف الحق فى أن يقوم بالزامة بجميع المصاريف التى تحملها المستوصف مقابل إحضارة للعمل، ويحملة جميع مصاريف عودته مرة أخرى إلى بلادة ، ويحرم من جميع حقوقة الممنوحة له من قبل المستوصف حسب نظام المادة التى تنص على حرمان الموظف من جميع حقوقة فى مكتب العمل والعمال، تجاه الذين لم يلتزموا بالنظام المعمول به فى المملكة .والله ولى التوفيق.

المدير الطبى - م٠ المدير الطبى - الطبيب المعالج

AL-SHEFA DISPENSARY ABQAIQ
Prop. : R. H. Al-Marri
Licence M. Q. / 1 : 67
Tel. 5662592 - 5661726
Telex 884014 Rajeh SJ
P. O. Box 1 Abqaiq
Saudi Arabia

S.D.A.

مستوصف الشفاء بأبقيق
لصاحبه : راجح حنظل المري
رخيص م ق / ٦٧ / ١
تلفون : ٥٦٦٢٥٩٢ / ٥٦٦١٧٢٦
تلكس ٨٨٤٠١٤ راجح اسجي
ص.ب ١ أبقيق
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

Date ....

التاريخ ٢٢/١١/١٩٩٦م

انه في يوم الاربعاء الموافق ٢٢/٤/١٤١٦هـ في تمام الساعة العاشرة والنصف صباحاً !!

قام الصيدلي / محمد البكري [illegible] بالاشتباك مع العامل / محمد بلال [illegible] امام جميع زبائن

الصيدلية [illegible] الصيدلي / محمد البكري يجذب العامل بلال [illegible] امام الناس مما ادى

الى تذمر الناس الموجودين بالصيدلية [illegible] محمد بلال [illegible] الاصابات المتوقعة

[illegible] بالكشف على العامل / بلال [illegible] ما يلي

* ان العامل بلال تعرض [illegible]

* يوجد [illegible] الكدمات [illegible] الضرب.

[illegible]

ان [illegible] الصيدلي محمد البكري [illegible] جميع [illegible] محمد بلال [illegible]

[illegible] الطبيب المعالج.

ان [illegible] الصيدلي / محمد البكري [illegible] محمد بلال [illegible]

[illegible] الصيدلي محمد البكري [illegible] موظف آخر

وانه اذا [illegible] العمل [illegible] بالمملكة [illegible]

[illegible] جميع [illegible] العمل [illegible] جميع [illegible]

[illegible]

[illegible] العمل [illegible] بالنظام [illegible]

المملكة

والله ولي التوفيق

المدير العام / [illegible]

مدير الطب / [illegible]

م. مدير الطب /

الطبيب المعالج /

ورفضت توقيع أى جزاء علىّ ، وطلبت تسليمي للسفارة المصرية لاعادتى إلى بلادى .. وبعد أسبوع من تلك الواقعة كانت اجراءات عودتى إلى بلادى قد انتهت ، دون تدخل السفارة المصرية.

وقبل أن أغادر تلك الأرض ... رفعت عينى للسماء ، ودعوت الله أن يخرّب بيوتهم ، وأن يسبق انتقامه رحمته !!

كنت أردد فى نفسى قول أحد الشعراء العرب وأضحك فى سخرية وأنا أهمس سرا .. ربما قاله فى انسان ما كان يحيى بتلك المنطقة ..

لقد كان كذابا وكان منافقا .:. وكان لئيم الطبع نزر المحامد

وكان خبيث النفس كالناس كلهم .:. جبانا قليل الخير جم الحقائد

ولعلها كانت ساعة إجابة لحظة أن طلبت من الله أن يصب عليهم غضبة.. رغم حزنى لما أصاب تلك المنطقة فى حرب الخليج بعد ذلك بقليل !!

وصلت إلى مطار القاهرة فى ١٩٨٩/١١/٣٠م قادما من مطار الزهران الدولى ، بعد أن أكل كفيلى ما قدرة الله عليه من مستحقاتى ، وحمدت الله أننى نفدت بجلدى من **مستنقع الخنازير** .

آخر الغزوات

وقفت أتأملة دقائق وهو بين يدى أمة .. تقدمت منه فى رهبة وحملته بين يدى، وملت عليه أقبله.. ففتح عينية مندهشا من هذا القادم المتلهف لرؤيته .. تأملته كثيراً وأنا أحمد الله على أنه حىٌ يرزق، وأمة إلى جوارى تقص علىّ رحلة العذاب التى شهدها ولدى منذ قدومة إلى الدنيا ...

كل أطفال العالم يستمتعون بدفء أحضان الأم منذ لحظة الولادة، ليشعروا بالأمان والحنان والحب، أما ابنى فكان مضطراً لأن يبقى وحدة بإحدى الحضانات، وحتى يصبح

قادرا على مواجهة الدنيا بدون عناية مركزة. الفرحة والابتسامة هما أول ما يحسه الأطفال في أيامهم الأولى، وكان ابني يواجه تمزق أمه وأحزانها وهي تسافر إليه إليه يوميا من طوخ إلى بنها لتحاول أن ترضعة وفمه الصغير يبذل الكثير ليحصل على مالا يكفية من الغذاء!!

كان أخوتي ينظرون إلى ابني من وراء زجاج الغرفة بمستشفى بنها، وهم يبكون لأنهم سيفارقونه بعد انتهاء ميعاد زيارته في سجنة الصغير، داخل زنزانه جدارنها من البلاستيك الشفاف والمحاليل تحاول أن تمد أوردته الرفيعة بما يحفظ له الحياة.

ضممت ابني في صدري وأنا اتأمل عينية الزرقاوين وأعتب على أمة بقولي..

:إنت مش عارفة تكبرية بسرعة ليه؟

وابتسمت أمة وهي تقول لي مدافعةعن نفسها أن العشرين يوما التي تلت خروجة من الحضانه زاد وزنة فيها كيلو جرام كامل.. حتى أن الطبيب الذي يتابعه كاد لا يصدق أن هذا هو الطفل الذي رأه من قبل، وأنه الآن وعمرة يتجاوز الأربعين يوما بقليل قد تضاعف وزنه تقريبا عن اللحظة التي خرج فيها من زنزانة الحضانة ... وعدت أعاود النظر إلى ابني

اتمتم بكلمات الشكر لله الذى استجاب لدعواتى، ولست أدرى كيف
تمنيت وبهذه السرعة لو أهدى الله لابنى أخا صغيرا يكون معينا له فى
الحياة، ويبدو أن القادم الأول كان قد فتح شهيتى لأمتلك الكثير من أمثالة
كان الله يستمع إلى مايدور في قلبى، وشاءت إرادته أن يستجيب
لأمنيتى وقد صادفت لحظة إجابة لتبدء بذرة الحياة لولدى الثانى دورتها
فى نفس اليوم وأتى "المعتز بالله" بعد عشرة أشهر ليشارك أخاه حبى
ورعايتى ،بعد أن بذلنا كل جهد ، لنمنعة من المجئ فى شهره السابع
كما فعل أخاه وفى اليوم السابع من شهر أغسطس سنه الف وتسعمائه
تسعون وفى لحظة استقبالى لابنى ، تعجبت من طمع النفس البشرية
وأنا أنظر إلى السماء بغير خجل منتشيا بفرحتى وأقول لله :

: ممكن تخليهم ثلاثة !!

ومضى نصف عام أو أكثر قليلا، وفى نهار لا أنساه..عدت من
عملى ، ورأيت زوجتى تجلس إلى جوار أمى وهى تبكى وسألتها عن
السبب فقالت أنا خايفة أكون حامل..

وضحكت وأنا اقول لها

: دى حاجة تزعل ؟!

كانت زوجتى خائفة من المستقبل وهى تـرى أن ثلاثة أولاد أكثر من قدرة دخلنا ..

كنت أعمل الفترة الصباحية بصيدلية فى ضواحى شبين التابعة لمحافظة القليوبية ثلاثة أيام فى الأسبوع مقابل ثلثمائة جنية،وكنت أعمل فى صيدلية أخرى بمحافظة الشرقية الباقى من أيام الأسبوع بنفس الراتب، مخالفا تعاليم إدارة الصيدلة التى تمنعنى من إدارة صيدليتين فى نفس الوقت ..

كانت زوجتى تدرك أن هذا الدخل وبهذه الطريقة غير مضمون ولا يبعث على الاطمئنان، وأن مجئ طفل ثالث يعنى أننا لا نخطط للمستقبل، أما أنا فكانت ثقتى فى الله بلاحدود.. كنت أعرف أن لكل مخلوق رزقة .. فحينما أتى ابنىّ عبد الإله إلى الحياة زارنى قريبى محمود العمدة والذى كان وراء تعرفى على زوجتى، ليقول لى أنه عثر على موقع يصلح صيدلية، وأن صاحبة البيت لاتطلب أكثر من ألفى جنية.. وعاينت المكان فى اليوم التالى وأدركت أنه مكان متميز لايعيبة إلا تلك الترعة التى تمر من أمامة، والتى كان القرار بتغطيتها قد صدر، وكان واضحا أن الشارع الذى ستقع عليه الصيدلية مستقبلا وبعد

تنفيذ مشروع التغطية، سيكون أكبر وأهم شوارع مدينة طوخ، واستأجرت المكان وسرعان ما حصلت على الترخيص بإنشاء الصيدلية..لم يكن أمامي غير مشكلة التموين ..من سيمونى لعمل التجهيزات وشراء طلبية التأسيس؟ وقلت لنفسى.. أتى ابنى عبد الإله بالصيدلية ووفقنى الله إلى المكان المناسب، وحينما أتى ابنى معتز إلى الحياة ،سهّل الله لى عملى فى مصر...وها هو ابنى الثالث قادم إلى الحياة وسوف يأتى برزقة معه!!

كانت ثقتى بالله فى محلها حينما ذهبت مع أحد الصيادلة وكنت قد تعرفت عليه صدفة بالقاهرة إلى "مكتب الحجاز" ... وهناك تعرفت على الشيخ/ أحمد الشامان .. واستطعت بخبرتى فى التعامل مع السعوديين أن أكتشفت طيبة هذا الرجل ..

كان الرجل يحب المصريين الذين لعبوا معه دورهم المعتاد، حين ابتدأ معهم بمستوصف فى شقة صغيرة ،ليصبح بعد سنوات قليلة صاحب أكبر مستوصف بمدينة تبوك، وسبع صيدليات كبيرة تكاد تحتكر سوق الدواء بتلك المدينة . وشعرت أكثر بالتفاؤل وأنا أعرف منه أنتى سأدير صيدلية فى مستوصف افتتحة منذ عام فقط فى مدينة اسمها

"البدع".. تلك التى لا تبعد سوى بضعه كليو مترات عن ساحل البحر الأحمر. ويوم أتممت التعاقد عدت إلى زوجتى أقول لها :

:أيه رأيك إن الولد الجاى رزقة واسع!

.فردت قائلة

:اللى رزقهم واسع البنات بس ... إذا كنت حاسس إن فيه رزق جاى.. يبقى اللى هييجى بنت مش ولد.

وحسن فى عينى أننا أصبحنا نناقش الرزق القادم وأن مجال الحوار ابتعد عن شخص القادم نفسة، ومبدأ قبوله بيننا من عدمة كنت أشفق على ابنى القادم من أن يأتى إلى الحياة ،مرفوضا بسبب الخوف من تكاليف تربية الأولاد فى هذا الزمان .. كانت الحياة قد علمتنى درسا واحداً أعية جيداً ويملأ كيانى ، وملخصه فى قلبى وعقلى من كلمتين فقط..

"ربنا موجود"

ليت الدنيا كلها تدرك معنى كلمة الله.. تلك الكلمة المحببة إلى نفسى، والتى تحول "عقلة الصباع" الضعيف داخل كل إنسان، إلى عملاق يلمس السحاب ...إنه الله فقط الذى يشدد الركب المهتزة، ويقذف بالقوة

فى القلوب الضعيفة، ويحيل الشك إلى ثقة ويقين !!

****

تركت زوجتى الحامل فى شهرها الرابع مع ابنيها وأمى. كنت أشعر بالتفاؤل وبأن شيئا جميلا سوف يحدث، وفى مطار تبوك كان الشيخ/ عيد، مدير شئون العاملين بالمستوصف فى انتظارى،وقطعنا الطريق معا إلى مستوصف الشفاء بتبوك. أمضيت الليلة والتى تلتها ليصحبنى الشيخ/ عيد مرة أخرى إلى مستوصف الشفاء بالبدع.. تلك المدينة التى قُدِر لى أن أحيا فيها أجمل الأيام التى قضيتها بالمملكة.

كان المستوصف بالبدع صغيراً ، يحتل الدور الأول من المبنى الذى استأجرة الكفيل ملاصقا لمبنى مشابة له تماما، هو مقر إقامة الأمير وأسرته، ولا يفصلنا عنه غير (السيب) أوالمنور كما يسمية المصريون.

كانت قوة المستوصف كلها سته أفراد..محاسب مصرى، وفنى معمل مصرى، وعامل هندى، وممرضة فلبينية ،ودكتور مصرى - ممارس عام- وزوجته- أخصائية النساء- و كانا يقيمان بالطابق الثانى أما أنا فكنت أقيم بالطابق الثالث ، وخلال ثلاثة أشهر كانت الشقة قد

أُعدت لاستقبال أسرتى .

كانت كل تجهيزات الشـقة جديـدة، اشـتريتها بنفسـى وقـام المستوصف بسداد قيمة الفواتير، وكان المناخ فى تبوك يشبة جو مصـر تقريبا، ولم يكن يفصلنا عن قرية "جيال" التى تقع علـى سـاحل خليـج القبة،غير دقائق بالسيارة.. حيث اعتدنا أن نمضى أوقاتنا فى السباحة،كما كانت لنا أماكن أخرى رائعة بطول الساحل الممتد من منطقـة "الشـيخ حميد" جنوبا التى تسمى "رأس محمد" فى مصر، إلـى مدينـة "حقـل " السعودية المقابلة لميناء إيلات الإسرائيلى، وميـنـاء العقبـة الأردنـى شمالا... كنا نمضى أوقاتنا فى أماكن عديدة نستمتع فيها بالبحر (البكر) فى تلك الأماكن، مع أصدقاء مـن تونـس والأردن مغرميـن بصيـد الأسماك، تلك الهواية التى تعلمتها منهم وصارت عشقى الأوحد هنـاك. أحيانا كنا نصطاد بالخيوط الطويلة، وأحيانا ببنادق الصيد تحت المـاء ، وكان حرس السواحل يعطون لنا كل الحقوق، ويهدون إلينا الكثـير مـن الأسماك التى يصطادونها بالنشاب الخاصة بهم . فى تلك الأماكن كانت تكثر القشريات ويكفى المغرم بـ(الاستاكوزا) أن يذهب بسـيارته إلـى الساحل ليلا ويضيئ الكشافات لتخرج إليـه أسـراب الاسـتاكوزا مـن

البحر،متجهة إلى الضوء، ليجمع منها ما يشاء.

لم يكن يعكر صفو الحياة على هناك غير القولون العصبى، الذى بدء يتحرك غضبا لبعدى عن أولادى، ومرت الشهور الثلاثة التى أنهيت خلالها كل إجراءات الاستقدام، وقررت أن تأتى زوجتى وأولادى عـن طريق البر، لأنه كان الطريق الأقصر والأسـهل .. ويـوم قدومهـم استأجرت سيارة أحد الجيران وأخذت توصيـة مـن الأمـير لتسـهيل إجراءات نقطة التفتيش بمنفذ الدرة الذى ستدخل أسرتى مـن خلالـه، وهناك دخلت السيارة إلىالأردن لتستقبل أسرتى القادمة من ميناء العقبـة الذى يبعد بضعة كيلو مترات عن الحدود السعودية.

مضت ساعة من الزمن كأنها دهـر كـاملا، ودخلـت أولـى السيارات إلى نقطة التفتيش، ورأيت ابنى عبد الإله ينظـر مـن شـباك السيارة الثانية، وعدت بأسرتى إلى البدع، لتختفى أعـراض القولـون العصبي فى اليوم التالى ... ولأول مرة بالمملكة كنت أعيش فى إطـار أسرة سعيدة .

مضت الأيام مسرعة ليأتى ابنى الثالث إلى الحياة .... جاء إلى دنيانا الساعة الرابعة مساء يوم (١٩٩١/١٢/٣١م) فى الليلة التى تحتفل

فيها الدنيا بعيد رأس السنة، وابتكرت له اسما جميلا سميته "نور الله"
وأنا أظن أنه الوحيد فى الدنيا الذى يحمل هذا الاسم، وبعد أيام من
ولادته جاء عدد كبير من "الأفغان" ليهنئونى على القادم الجديد، وعلى
رأسهم الشيخ/ صالح، صاحب السوبر ماركت القريب من المستوصف،
وكلهم ينادونى أبو"نور الله" متجاهلين ابنى الأول والثانى واحتاج الموقف
أن اسأل محاسب المستوصف عن سر هذا الاهتمام فضحك وهو
يقول لى .

:عشان اسم "نور الله".

وقلت له مندهشا

:الاسم دة فيه حاجة تستدعى الاهتمام ؟

ورد بما أوضح الأمور أمامى وهو يقول..

:" نور الله" اسم أمير الجماعة التى ينتمى إليها الشيخ صالح.

واكتشف أن هناك من يحمل هذا الاسم قبل ابنى، وكان الأفغان
بالبدع يعدونه أعظم المجاهدين، وضحكت من المفارقة، واكتشفت بشكل
عملى أن توارد الأفكار وارد بين البشر، حتى ولو اختلفت جنسياتهم
وباعدت بينهم آلاف الكليومترات .

كان هناك شيئا غريبا فى أهـــل البـــدع، لايحتـــاج إلـــى خبـــير لاكتشافة.. فسلوك جماعة من البشر يستشعرة الانسان ليدرك ما فيـــه من تباين مع الآخرين .. كان الناس فى تلك المنطقة مصريون تقريبا!!

وأخذت أبحث عن الأسباب.. وكان أقرب تفسير إلى نفسى.. أنها مدينة حدودية لايفصلهم عن مصر سوى بضعة كيلو مـــترات ..هـــى عرض خليج العقبة الذى يضيق فى بعض أجزائه حتى تصـــير مصـــر وأنوارها مساء فى حدود رؤية العين المجردة، وعنـــد الحـــدود تختلـــط الأنساب وينتقل الناس بسهولة ... ثم ما عمر تلك الحدود.إنهـــا بضـــع عشرات من السنين ،ولذلك كثيراً ما رأيت أُسر سعودية هناك، نصفهـــا الآخر فى مصر، ولما أفاء الله على أهل المملكة بثروات الأرض كـــان السعوديون يستقدمون أقاربهم المصريين، يحملـــون معهـــم ســـلوكياتهم وبساطتهم، كما كان أبناء الجيل الثانى من البدو هنـــاك يـــتزوجون مـــن أقاربهم فى مصر.. حتى الشيخ / أجمد الذى كنت أعيش فـــى كفالتـــه وأعمل بإحدى صيدلياته.. كان حاصلاعلى الشهادة الإعدادية من مصر ، وأقام خلال دراسته عند أقاربه كما علمت من محاســـب المســـتوصف، وكان يمت له بصله قرابة .

كانت الفتيات يمشين حتى منتصف الليل بالشوارع والوديان دون خوف من جريمة خطف ،وعلمت أنه لم تحدث سوى جريمة خطف واغتصاب واحدة منذ سنوات، وكانت على سبيل الانتقام من أسرة الفتاة، لخلافات بين الأسر، وبدأت أفهم لماذا لا يحترم أهالي هضبة نجد سكان الحدود ويقولون أنهم بقايا حجاج .. بالفعل سكان الحدود ليسوا من القبائل في شئ ، وإن كان هذا سبباً غريباً لاعتبارهم طبقة أدنى من البشر!

كان الناس يمتهنون حرفة الصيد، وكانوا يزرعون الأرض وبطبيعة الحال كان كل العاملون مصريين... كانت الحياة تمضي بهدوء، والكفيل تفصلة عن المستوصف أكثر من مائتى كيلو متر، وخلال عامين قضيتهم هناك، كانت عدد المرات التي زارنا فيها تُعد على أصابع اليد الواحدة، وتوثقت العلاقة بيني وبين السعوديين كشعب، وربطتني علاقة طيبة بأمير المنطقة وبعض رموز المجتمع هناك، وأيضا حدثت خلافات بيني وبينهم، أوضحت جوانب من أخلاقيات الشعب السعودى ، خصوصا وأن بعض القيادات التي دب الخلاف بيني وبينها لم يكونوا من تلك المنطقة الحدودية، ولكنهم كانوا ممن يطلق عليهم الناس هناك

أنهم من ذوى "المائتين وعشرين فولت" بمعنى أنهم من القبائل الأصيلة بالمملكة ،وكان الخلاف الأول بينى وبين قاضى البلد الشيخ "إبراهيم" ....

****

كانت البدع مدينة بلا قاضى خلال العام الأول الذى أمضيته بها، وكان المتقاضون يذهبون إلى مدينة " الوجه" التى تبعد مسافة تزيد عن مائتى كليو متر، حيث أقرب محكمة وأقرب قاضى، إلى أن عُين الشيخ إبراهيم قاضيا للبد وما حولها، وهال الرجل فى الأيام الأولى لقدومة، أن الكثير من المحال التجارية تظل أبوابها مفتوحة أثناء إقامة الصلاة، فلم يكن هناك تواجد فعلى " لهيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" ، والتى يتمحور نشاطها على معاقبة من يستمر فى العمل أثناء إقامة الصلاة بالمساجد.

وقرر الرجل أن يقوم بدور الهيئة فى تلك البلد .. فكان يمر بسيارته التى يقودها بنفسه ، ويطرق أبواب المحال التجارية على من أغلقها على نفسه وهو يهرب من أداء صلاة الجماعة ، ويدخل المحال المفتوحة لينذر من تجاسر على الاستمرار فى العمل أثناء الصلاة.

وذات يوم أُذن لصلاة المغرب وكانت الصيدلية مزدحمة ، وبها بعض المرضى ،وأتى الرجل لينذرنى أن أغلق الصيدلية فورا ،وأن أذهب لقسم الشرطة صباح اليوم التالى ليتم التحقيق معى فى المخالفة التى ارتكبتها بترك باب الصيدلية مفتوح بعد سماع الأذان. .

وهناك فى قسم الشرطة رُحِلت مع آخرين إلى مبنى المحكمة،وجاء علىّ الدور لأدخل إلى القاضى.. كان برفقته عدد من المشايخ.. وبدأ الحوار بيننا بسئواله لى:

لماذا فتحتْ الصيدلية أثناء الصلاة؟

:الصيدلية كانت مفتوحة من قبل الصلاة كالمعتاد،وأذن المؤذن والصيدلية مزدحمة بالمرضى، وكلهم من القرى الصغيرةالمحيطة بنا، ويتعجلون العودة بأبنائهم وأطفالهم قبل أن تشتد ظلمة الليل،وأنت أعلم بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة ويحتاجون لوقت أطول حتى يفهموا طريقة استخدام الدواء، وحتى لا يصيبهم الضرر من استخدامه بشكل خاطئ؛ والأهم أن هناك فاصل كافى بين الأذان وأقامة الصلاة، تمكننا من تأخير غلق الصيدلية بعض الوقت.

:الصيدلية تُغلق بمجرد الأذان وأجعل هناك باب آخر بين الصيدلية

وصالة المستوصف ليصرف منها الدواء.

وعند هذا الحل الوسط التقينا،وتوسمت العدل وسعة الأفق في الرجل، رغم أنني لم أكن أعتقد أن يكون هناك.شاب صغير السن ومتحمس، يستطيع مع هذا أن يزن.الأمور بشكل موضوعي،خصوصا وأن هذا الشاب من منطقة القصيم التي يتحاكى الناس بتشددهم في الأمور الدينية... هذا غير ما علمته من بعض المقربين له، قبل التحقيق معي ، بأنه أرسل إلى جهة أعلى منه يصف أهل منطقة البدع، بأنهم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان. بسبب تفريطهم في الصلاة، وخروج نسائهم إلى الأسواق.

كان الرجل متوازنا في التعامل مع الموقف،والحقيقة أنني كنت قد تقدمت بشكوى للأمير بمجرد أن طلب مني القاضي، أن أذهب إلى قسم الشرطة،أشكو له صلف القاضي وقله زوقة في الطريقة التي تحدث بها إليّ .. وبعد إنتهاء زيارتي للقاضي زارني الأمير بالصيدلية ليخبرني أن رجال الدين بعضهم متشدد،وخصوصا لو كانوا من بدو المنطقة الوسطى،وأنه لا داعي لا نزعاجي من أسلوب القاضي، واستدعائي لأخذ أقوالي بمقر الشرطة..وهكذا لم يأخذ الأمير موقفا مواليا للقاضي،وكان

منقهما لأسباب غضبى، ورد بموقفة على النكتة التى كانت سارية بين المصريين فى المملكة فى تلك الأيام والتى تقول..

وقع حادث تصادم بين سيارتين كان سائق الأولى باكستانى والثانى سعودى وقام أحد رجال الشرطة بمعاينة الحادث وحين سألوه من الذى أخطأ رد بقوله ... المصرى طبعا !!.

وكانت لتلك النكته دلالتها وهى تشئ بإحساس الاضطهاد الذى يعيشه المصريون هناك، وإصبع اتهام يشير إلى تجنى الأجهزة المسئولة عليهم فى بعض المواقف.. وما كان فى موقف القاضى، وكان أيضا فى موقف الأمير.. اعتدال وموضوعية لم تكن فى الحسبان.

****

والحقيقة أن علاقتى بالأمير كانت تتوطد من خلال أولادة الثلاثة فهد، وسلطان، وعبد الله، وكنت أدعوه كما يفعل باقى الناس باسم "أبو فهد" . وكان الرجل دائم التردد على الصيدلية ليسألنى عن المخاوف التى تعتريه على صحة أولاده حتى بعد توقيع الكشف عليهم بالمستشفى الحكومى بالبدع، ولايطمئن حتى أصرف له الدواء بنفسى من الصيدلية.

وذات يوم.. وفي صباح أحد أيام الجمع، مر الأمير على الصيدلية

وأخبرنى أنه سيرسل لى سيارته الخاصة مساء لتنقلنى إلى مقر الإمارة لأمر هام.

وهناك بالإمارة علمت أن رجال السواحل ألقوا القبض على أربعة جواسيس، وأن الأمير سيجرى التحقيق بنفسة، ويريدنى أن أقوم بالترجمة بينه وبينهم ، وفى مكتب الأمير رأيت رجلين وسيدتين أمريكى الجنسية وكانوا يقومون بتصوير السواحل بكاميرا فيديو، وكذلك بعض الطرق والأماكن التى تعتبر فى مجملها ذات أهمية عسكرية.

وعرض علينا الفيلم وتمثلت الجدية وأنا أكاد لا أتماسك أمام تيار من الضحك أراد أن يعزونى من الموقف ككل.

كنت ودودا مع من أطلقوا عليهم لفظ جواسيس، واعتذرت عن سوء الفهم الذى كان واضحا فى الموقف كله، وحاولت أن أهدىء من روعهم وهم يشعرون أنهم وقعوا فى يد الهنود الحمر، وعند انتهاء مهمتى انصرفت، وفيما بعد علمت من محاسب المستوصف أن المتهمين ضمن العاملين بشركة أرامكو الأمريكية بالمنطقة الشرقية، وأن السفارة الأمريكية قلبت الدنيا وتم إرسال طائرة خاصة لنقل المتهمين إلى مطاراً الزهران ، وأن الإمارة كلفت بإرسال السيارة الخاصة بهم ، إلى مقر

عمليم ، وأن الحكومة السعودية قدمت اعتذارا رسـميا إلـى السـفارة الأمريكية .

هكذا كان شكل العلاقة بيني وبين الأمير، لا يوحي بما حدث بعد ذلك بنحو شهرين.. حين طلب الأمير إجراء تحقيق معي بقسم الشـرطة لأني أهمل صلاة الجماعة . كان الموقف غريبا خصوصا وأن الأمـير نفسة لم يكن مهتما بصلاة الجماعة، وكان واضحا أن الأمير يريد خلق المشاكل بلا سبب واضح ، وأرسلت شكوى ضد الأمير إلى أميرمنطقـة تبوك ،وأخبرت بذلك محاسب المستوصف الـذى حـاول أن يطمئننـي بقوله أن أمير البدع يعتبر أميراً من الدرجة الثانية.. حيث أنه لا ينتمـي إلى الأسرة المالكة. والأمراء أمثاله يكونون موظفين بالدولة، مثلهم مثل أى مواطن، وأنه لا أمراء إلا أولاد سعود .

كان أمير منطقة تبوك هو "فهد بن سلطان بن عبد العزيـز آل سعود "ابن وزير الدفاع والنائب الثاني للملك (فهد بـن عبـد العزيـز) وصورت الشكوى وأرسلت صورة منها إلى مقر الإمارة بالبدع للأمير نفسة ، مرفق معها خطاب أقول فيه أنني أشكوه إلى نفسه كما شـكوته إلى الأمير "فهد بن سلطان " وحين وصل الخطاب إليه وبعـد صـلاة

عشاء اليوم التالى ، كانت سيارتا شرطة، وعدد كبير من رجال الأمـــن السعودى يحاصرون الصيدلية والمســـتوصف، حتـــى أن الموظفيـن اختبأوا، والمصريين المتواجدين.بالمستوصف جروا كالأرانب المزعورة، وأغلقت،الصيدلية بالباب الزجاج ، ومضيت مع الملازم أول "على" قـائد القوة التى اتت للقبض عليّ .

وعلمت فيما بعد أن إحدى المصريـات، وهـى زوجـه أحـد المدرسين العاملين بالبدع، كانت تزور زوجتى ، وحين علـم زوجهـا بحادثة القبض عليّ أتى مزعورا إلى المستوصف وهو يرجو المحاســب أن يصعد معة للدور الثالث حيث شقتى ليطرق البـــاب لتخـرج إليـه زوجه، وحين رآها حمل طفله وأخذ يعدو بالشارع ووراءة زوجته تكاد تسقط وهى تهرول!!

وهناك بقسم الشرطة لم يقم مدير الشرطة وهو برتبة نقيـــب بالتحقيق معى، وعلمت فيما بعد أنه خشى أن أظن أنه لن يكون حياديـــا بسبب خلاف سابق بينى وبينة، وكنت قـــد تجـاوزت معــه الخطـوط المسموح بها للأجانب المقيمين بالمملكة، حتى أن بعـــض المصرييـن زارونى بالصيدلية لينصحونى أن أجهز حقيبتى لأننى ســـارحل مـن

المملكة فى أسرع وقت، ولم يحدث شئ من هذا، وأصبح واضحا لدى أن تفكير المصريين يتركز دائما حول خوفهم من الترحيل.

ولأمانه الرجل تنحى هو عن التحقيق وكلف آخر بالتحقيق معى حتى لا تكون هناك شبهه تجاوز بسبب خلافاتنا ...لم أكن أتوقع أن يكون المحقق بهذا القدر من الذكاء والتدريب، وكان هو نفسه الملازم "علـــى " الذى قام بالقاء القبض علىّ، سألنى عن كل كلمة فى الشكوى، وكان يشك أن هناك آخر كتبها لى، وسألى عن الأفكار السياسية والدينية المدونـــة بالشكوى، ومع من أناقشها من الزملاء .. وأدركت أن الرجل ربما يشك أننى أنتمى إلى تنظيم معادى للملك، وحاولت أن أعـدل لــه عـن تلــك الشطحة البعيدة، وأكدت له أننى أحب الملك والنظام بشكل عـــام، وأن الأسلوب والأفكار خاصة بى وحدى، وأننىواحد من البشـــر المهتميـن بالفكر والثقافة ، وأن الكلام الوارد بالشكوى لاهو كبير ولا حاجة وأنـــه بالنسبة للمثقفين فى مصر، يُعد دون المســـتوى مـــن وجهـــة نظــرى الشخصية، ولوكان فوق المستوى فهذا منتظر من شاب دائم الاطـــلاع ومهتم بتصوير أفكارة من خلال ما يكتب من نصوص فكرية وأدبية .

كانت الساعة الواحدة مساء حين أتى لمركز الشرطة"عبد العزيز

الحداد " وهو وكيل الإمارة، وكانت تربطني به صداقة متينة وكنا قد سافرنا إلى مصر في نفس التوقيت ولمدة أسبوع قبل هذه الواقعة ببضعة أشهر، وزارني الرجل في بيتي بمصر في تلك الفترة ، وقمت معه بواجب الضيافة.

اقترب الشيخ/ عبدالعزيز مني يعتذر عن الموقف ويأسف لأنه لن يستطيع أن يضمنني للخروج من مركز الشرطة، حتى لايعتبر الأمير أن هذا تحديا له خصوصا وأنه وكيل الإمارة ... وأخبرني أنه أحضر معه أحد مشايخ القبائل ليقوم بضماني!!

والحقيقة أنه بصرف النظر عن تعنت أوغباء أمير الدرجة الدرجة الثالثة، في تلك الواقعة بالتحديد، فإن الموقف على إجمالة يوضح صورة جميلة حين تنظر إليه نظرة أشمل وأعم.. فمدير الشرطة لم يوال الأمير رغم خلافي السابق معه، كما أن القاضي كان على الحياد رغم أنني اختلفت معه من قبل .. لم يكن هناك إفتئات بين السلطات، وكان ممثل الشرطة لا يراعي غير الأصول ولايحابي ابن بلدة زورا وبهتانا على مصري لا حول له ولا قوة ، فالامارة والشرطة والقضاء.. كانت أجهزة مستقلة، يعتز كل منها بشخصيته، ولا ينحاز انحيازا أعمى إلى

ابن بلدة فى مواجهه عامل أجنبى.. تلك هـــى تجربتـــى الشـــخصية ، وخبرتى بالسعوديين .. رغم أنها تتعارض مع ما يُروى عنهم .. وأنا لا أكتب إلا ما عشته ورأيته بشكل شخصى، حتى . ولو كان لا يمثل كل الحقيقة!!

كنت أتذكر أحيانا أهل المنطقة الشرقية وما جبلـــوا عليـــه مـــن سلوكيات وصفات تقلل من إنسانيتهم،واستشعر الفرق الواضح بين أهـــل الغرب وأهل الشرق، حتى من أتى من السعوديين من المنطقة الشرقية إلى الغربية، كموظف بالهيئة الحكومية أو كتاجر واستقر بعض الوقت، كانت روح جديدة تنشط فى داخلة، ليأخذ من أريحية وكياسة الناس فى تلك المنطقة.

وبدأت أشعر أن التركيبة السكانية التى تغلبت عليها الأصـــول المصرية، كانت تلعب دورا كبيرا فى تشكيل سلوكيات الناس بشكل عام، وأيضا كان السودانيين بطيبتهم يتواجدون بشكل ظاهر، وكانوا أيضا يلعبون دورا ملموسا فى تلك المناقب المحببة.

كانت حالات الزواج من السعوديين بالسودانيات غـــير معروفـــة بالمنطقة، وكان السودانيون يلعبون دورهم من خلال الجيرة والتعـــامل

فقط، بخلاف تأثير المصريين الذى أتى من خـــلال المصـــاهرة بحكـــم الحدود المشتركة وارتباط العائلات المصرية والسعودية بصلات القرابة والنسب، من قبل تقسيم الحدود بين الدول.

خلال العامين اللذين قضيتهما بالبدع...سافرت إلى مصر مرتين تاركا أسرتى هناك..المرة الأولى حين أتى ميعاد أجـــازتى السـنوية، وقررت أن أمضى بمصر أسبوع واحد لأطمئن على أمـــى وأخوتـــى، وكان العقد يُلزم صاحب العمل بمصاريف الطـــائرة ذهابـــا وعـــودة، وتركت أسرتى بعد أن خزنت لهم ما يكفيهم من طعام وماء خلال هـــذا الأسبوع، وكان وجود السكن بأعلى المستوصف يشكل الأمن المطلوب لسلامة أطفالى المغرمين باللعب واكتشاف الدنيا من حولهم، كما تطوعت بعض الزوجات المصريات بتناوب الإقامة مع زوجتى لبث الطمأنينـــه فى نفسها.

وكانت المرة الثانية بعد الزلزال.. حين ســـافرت إلـــى مصـــر لأطمئن على أثاث البيت ،بعد قرار إزالة العمارة التى كنت أسكن فيها، وحمدت الله أننى عثرت على الكراتين التى تحتـــوى علـــى كـــل مؤلفاتى ، وكان ضياعها يعنى ضياع حياتى الماضية ، التى تتخذ قيمتها

من خلال ما قلته، ودونته فوق الأوراق .

وعدت من سفرتي الثانية وقد أشتريت قطعة أرض بجوار صيدلتي بنيه أن أبنيها ، وكان هذا الأسبوع كافيا لإرواء ظمئ إلى مصر، التي اكتشفت أنني رغم وجود أسرتي معي، فأنا لا أستطيع أن ابتعد عنها هذا العام الذي يلزمن به العقد ، إلا بشق النفس، مما جعلني انتهز كارثة الزلزال الذي أصاب مصر، لأعود إلى بلدي أتنفس هواءها، واتفقد حتى أكوام الزبالة بالشوارع ، وكأني أطمئن على أنها مازالت في مكانها، وكأنها أبو الهول الجديد،الذي يُصر المصريين المحدثين على توريثة للأجيال المقبلة!!

لم أُمض بعد سفرتي الثانية غير بضعة أشهر، وطلبت العودة إلى مصر ، وأنا أمني نفسي بفتح الصيدلية ، ثم تأجيرها لمن يجيد إدارتها، لأعود إلى المملكة مرة أخرى ، وأنا أرى أن صِغر سن أولادي يمكنني من قضاء فترة أخرى أجمع فيها ما يكفي لبناء حُلم زوجتي .. بيت يضم شقه لكل واحد من أولادي ما أكثر ما حدثتني زوجتي بشأن هذا، وهي الفتاة الريفية التي تعني كثرة النقود في يدها .. مبنى يحمي الأحياء ومقبرة تستر الأموات .. نفس فكرة الفراعنة القديمة قصور

وعمدان للحياة وأهرامات للموت..

كانت عودتنا إلى مصر بطريق البر.. أخذنا كل أشياءنا في تلك العربة التي يسمونها هناك " وانيت"، وعبرنا منفذ "الدرة" بمدينة "حقل" إلى ميناء العقبة الأردني، وتولت العبّارة نقلنا إلى نويبع .. إلى مصر.. التي اشتقنا إلى هوائها، وكان موظفو الجمارك أقبح وجه تقابل به مصر الطيور العائدة، وكانت إجراءات التفتيش شئ لم تسمع عنه جوازات الحدود من قبل، وحين اسشطت غضبا شكوت لمدير المنفذ ..وهو ضابط شرطة . وكلف الرجل اثنين من الجنود يلملمان حوائجنا- التي رفضت لملمتها وقد بعثروها على أرض صالة الجوازات- ليحملوها إلى سيارة بيجو، قام أحد ضباط الشرطة بطلبها من أجلي، في محاولة لترضيتي، وبدءنا رحلتنا والليل يرخي سدوله على الدنيا، ووصلنا إلى نفق الشهيد أحمد حمدى مع بشائر الفجر لننتظر ساعات، حتى يُفتح النفق أمام السيارات القادمة إلى الوادى الطيب..وأخيراً وقفت السيارة أمام بيت حماى، لأبدأ مشوار العودة الملئ بالاحداث !!

أرض البهتان

فى بطء ورهبة تقدمت إلى
داخل السراديب ،بأسـفل قلعـة
قايتباى ..رنوت إلى هيكل مدفـع
عملاق ..وسافرت نفسى إلى تلك
الأزمان البعيدة!

الإنسان هـو الإنسـان..
حريص علـى إبتكـار وسـائل
القتل،وكأن حياته لا تستمر إلا فى
موت الآخرين .. فى القديم ابتكر
أسلحة لقتل الحيوان، وكانت لـه
حجته وهو يسعى من أجل الطعام
ليقيت نفسه، وفيما بعد استخدمها
ليقتل باقى البشر .. هانت عليـه
البشرية.. وهو يشعر أن الكـون
أضيـق من أن يسعة والآخرين،
ونسى أن الله قد خلق متسعاً للجميع!!

وأخذت التشكيلات العصابية تأخذ مـا سـماه قبـائل وشـعوب، واشتعلت الحروب عبر التاريخ بسبب الأحياء والأموات .. حتى الأموات كانوا يتركون ضمن موروثاتهم، أفكاراً تتحرك من أجلها آلات الموت !!

لقد مات هابيل الطيب ولم يـترك ذريـة تـرث سـمو أخلاقـه وطيبته،واستمر قابيل لينجب كل هؤلاء الأشـرار.. لـم يسـتطع آدم أن يحمي هابيل من قابيل ،وانتصر شطرة الشرير ..ليحيا سـافك الدمـاء، ليورثنا الجريمة من بعده.

حاولت الهروب مما داهمنى من أفكار ، بالنظر إلى مياه البحر المترامية ..فصدمت عينى صخرة وجهها يمتلئ بالتجاعيد التـى رسمتها بإبداع أصابع الأيام ..ترى كم شهدت من مظالم أيتها الصخـور الصوامت.. ترى لو تحدثت فماذا عساك قائلة لنا !!

ولست أدرى لماذا عادت بى الذاكرة إلى ما ألمَّ بى خلال العامين الماضيين !!

أتكون إحدى حالات الرغبة فى الكتابة تلك التى أمر بهـا منـذ البارحة ؟!

أهذا هو ما دفعنى لآتى اليوم إلى قلعة قايتباى.. تلك التى تشـبه من زاوية أو أخرى سجون مصر الرهيبة، والتى كنت قاب قوسـين أو

أدنى منها ...بالزور والبهتان والكراهية.. التى ترتع فى كرموســـومات ورثة قابيل على أرض مصر !!

ترى هل أنجب هابيل قبل مقتله ونحن لانعرف ؟!

إننا نرى اليوم من هم أنبل من هابيل..حقيقة أنهم ليسوا كثيرين.. لكنهم موجودون!!

أيكون هؤلاء ورثة الطيبة والمثل العليا كما أن الآخرين ورثة الشر الذى جرى فى عروقهم من أبيهم.. القاتل الأول..

لقد تركنى قلمى منذ فترة طالت.. أتكون تلك هى العــودة الثانيــة لهـذا التائه؟!

أيعود الابن الضال بعد كل تلك السنوات ليستكمل حديثه فى الجزء الثانى من حياتى!

أيريد أن يكمل المشوار ليصل به إلى نهاية هذا القرن، وقبـــل أن تبـدأ الألفية الثالثة !!

ليكن .. ولنكمل سويا ما انقطع لعلنا نجد إجابة على كثير من الأسئلة !!

****

كنت أعلم أن الشهور الأولى لعودتى إلى مصر ستحمل الكثـــير من المشقة.. فها أنا أعود إلى بلدى، ولا أجد شقتى فى انتظارى !!

ونظرت إلى أولادى وكأنى أعتذر لهم سلفا عن الأيام المقبلة!!

كانت حماتى تحتفظ بمعظم أثاث شقتى المغتصبة ، وأقمت وأولادى وزوجتى قرابة شهرين عندها .. كنت خلالهما أجتاز معركتى فى مصر على أكثر من محور.

الأول خلال دروب ملتوية للقضاء المصرى مفكك الأوصال لأستعيد شقتى .. ولم تكن تلك الفترة، ولا الشهور الستة السابقةعليها كافية ليقول القضاء كلمته .. وماذا يهم القضاء إن تأخر ثمانية أشهر أو أعوام.. إن القاضى يعود بعد عمله إلى شقته، ولن يعنيه فى كثير أو قليل أين أقيم!!

وعلى المحور الثانى كنت أنهى التجهيزات الخاصة بصيدليتى .

****

أفتتحت الصيدلية التى تبعد عن سكن حماتى بضعة أمتار. وكانت أمى تقيم ،بقريتنا بلتان ،بعد السطو على الشقة التى كانت تجمعنا ..تلك القرية التى تقلص الجمال على أرضها.. وقد التهمت الخرسانة والمسلحات الكثير من جمالها ،وزحفت الكهرباء ومعها الورش والمحلات المضيئة، لينقلب سكون وخجل الريف إلى أشياء أخرى وحتى البشر هناك.. صاروا مسخا مشوها.. فلاهم أبناء الريف بسجيتهم

وفطرتهم، وأيضا ليسو من الحضر الذين تحكمهم قوانين المدينة!

وهكذا لم يكن فى قريتى شئ من جمال المدينة، أو أصالة القرية!

.. أين هى قريتى الآن مما كتبته عنها، وأنا أصفها منذ أربعين عاما مضت .. فى الجزء الأول من مذاكراتى.

انتقلت إلى بلتان لأقيم بالطابق الثانى من الفيلا مثمنة الأضلاع التى أقامها أخى على أرض بيتنا القديم ،وأشتريت سيارة لأتمكن من مباشرة صيدليتى بطوخ.

كنت أقوم فى الصباح لأصطحب معى غذائى الذىأ تناوله بالصيدلية، ولا أعود إلا بعد منتصف الليل ...كنت أشعر بالإجهاد من طول فترة العمل، وتوصلت إلى حل معقول وأنا اكتشف أن (اللحاف) إذا طُبق عدة مرات، يستطيع أن يلعب دور (المرتبة) إلى حد ما.. وهكذا كنت أستطيع أن أغفو قليلا إذا بلغ بى الإعياء حداً يدفع النوم للإجتراء على يقظتى .

انقضت شهور أربعة وحتى سمح الله بانتهاء تلك المتاعب، وأنا أعثر على شقة مناسبة قريبة من صيدليتى ،وانتقلت إليها لتبدو الحياة أسهل ،وأستطعت أن أولى صيدليتى رعاية أكبر،وبدأت الحياة تأخذ شكلها الطبيعى .

لم يكن يؤرقني غير أمي التي اصطحبتها للإقامة معي بشقتي الجديدة ،وخصصتُ لها أكبر وأفضل الغرف.. فأنا بطبعي شديد الارتباط بها ،وكذلك كانت هي .. حتى أنها كانت تفضل الإقامة وسط إزعاج أطفالي الثلاثة على بقائها في بلتان بعيداً عني .

ولم يكن أمامي رحمة بها إلا إستئجار شقة أخرى لا تبعد كثيراً عن شقتي ،وكانت أمي سعيدة بذلك ،وهي تشعر أنها وهي في عمر يناهز الثمانين، لم يخذلها أولادها ..وقد وفروا لها شقة مستقلة ، لتنس بذلك مأساة السطو على شقتها، والإحتيال لاستصدار قرار إزالة لسكنها الذي عاشت فيه نحو ثلث قرن من الزمان، وشاطرتها أنا هذا السكن بعد زواجي. كما شاطرتها مشاعر الإحساس بالظلم ، بعد السطو عليه في مجتمع مختل القوانين والقيم!

وبارك الله في تجارتي.. فربحت... وكانت دعوات أمي تفتح أمامي أبوابا كثيرة .

كانت الدولة قد قررت أن تمد مظلة التأمين الصحي على طلبة المدارس، ودورت الفكرة في رأسي . واكتشفت أن هذا النظام يعني سحب أكثر من ثلث مبيعات الصيدليات.. فطلبة التعليم الأساسي والإعدادي والثانوي بأنواعه، يشكلون نسبة كبيرة من السكان،

واستهلاكهم من الدواء يشكل نسبة كبيرة مما تحتاجه أسرهم، والتأمين بهذا الشكل سحب السجادة من تحت أقدام الأطباء البشريين ،وقد وجد الناس الطب المجانى بالمدرسة، ولن نعود نرى الأباء والأمهات من حاملى (الروجيتات) بعد الآن، إلا فيما ندر..

هكذا حسبت الأمور وتقدمت للهيئة العامة للتأمين الصحى، ورشحت صيدليتى مع صيدلية أخرى لصرف التأمين لمركز طوخ بالكامل ،وبالفعل صدق حدسى وكانت طوابير الطلاب لا تنقطع ليلا أو نهاراً .. وبعد شهور قليلة طلبت الهيئة منى أن أقوم بصرف تذاكر التأمين للموظفين العاملين بالدولة وأصحاب المعاشات لغلق صيدلية المستشفى بشكل مؤقت، وترددت وأنا أعرف أن هذا النظام يحتاج شهريا لأكثر من مائةالف من الجنيهات،إلى أن اتصل بى الدكتور/ "رجائى".. مدير التأمين الصحى بالقليوبية يعدنى بصرف مستحقاتى فور تسليم الفواتير، وأن هذا الأمر لن يستمر أكثر من شهرين وحتى يعاد فتح صيدلية المستشفى لنتعاون جمعياً فى صرف الأدوية، على خلاف النظام القديم الذى كان يقصر الصرف على صيدلية المستشفى وصيدليات الهيئة العامة للتأمين الصحى، وبين ليلة وضحاها بدأت حركة المرور فى الشارع أمام الصيدلية تكاد تتوقف، من زحام المئات من الموظفين

والطلبة ..وعلى مدى شهرين كان العصر الذهبى لسائقى الموتسيكلات، وهم ينقلون المرضى من المستشفى إلى الصيدلية، وكذلك كـــانت أيـام السعد للمقهى المقابل للصيدلية، حيث كان المريض يضطر للانتظار نحو الساعة حتي يتمكن من دخول الصيدلية ، وأصبح دخل الصيدليـــة فـــى شهرين فقط يعادل راتب عام بالمملكة العربيـــة الســعودية..وأصبحـت الصيدلية الناشئة يؤمها الناس من كل مكان، وكانت الكلمة الطيبـــة فـــى معاملة المرضى تؤتى أكلها أضعافاً مضاعفة .....كما كانت دعوات أمى تضفى البركة على كل شئ ....

وفى تلك الأيام طرأ لى أن أكسر حاجز الثمانين.. فهكذا كان عدد أخوتى ومن أتى من نسلهم، ورزقنى الله بابنى الرابع ..."أدهم".. وهناك بعيادة الطبيب كنت أهنئ زوجتى على سلامتها وأنا أوصيها أن تتماسـك سريعاً لتكمل لى العدد الذى أراه محققا لطموحى فى عالم الأطفال ... لم أكن أرغب فى أكثر من نصف دستة،وكانت زوجتى تضحك وهو تقول :ربنا يقدرنا على تربية اللىعندنا وكفاية كده ...

كانت الحياة جميلة فى عينى وكنـــت أرى الأطفـــال أجمـــل مـــا فيها..وكانت زوجتى تنظر إلى القادم الأخير الرائع فى كل شئ فتهـــون عليها متاعب الحمل والولاده، وتقول لى أنه لولا أننـــى أنجـــب ذريـــة

معجونة بماء العفاريت، لما ترددت فى إنجاب ما أريد، ولأن كل طفل من أولادى يحتاج للمجهود المطلوب لتربية ثلاثة أطفال، فهى على ذلك أنجبت دستة كاملة، وليس لى أن أطلب أكثر من ذلك.

كانت الأيام تمضي وأولادى يكبرون أراقبهم كل حين وأشعر بالرضا والغبطة وأنا أراهم متميزون فى أشياء كثيرة.. كانوا يفورون بالنشاط، مولعون بالحركة، يبحثون وينقبون فى الشقة وفى الشارع المقابل لبينى ، وساعدهم على ذلك أن الشارع لم يكن شارعا بالمعنى الدارج، وأمامه المزارع التى تقاوم بضراوة زحف جيوش الخرسانة ، وكان بإمكانهم أن يعيشوا حياة قريبة من التى عشتها أنا فى طفولتى ، وأمامهم الحقول وأشجار التوت والفلاحين بحيواناتهم، التى عشقوا من بينها حماراً صغيرا، يتفجر بالجمال والحيوية والذكاء والرشاقة والطفولة الرائعة.. كان أولادى يولونه كل الرعاية، ويمضون يومهم فى جمع البرسيم والحشائش من كل مكان، ويحملون إليه كل ما يناسبه من مخلفات البيت الغذائية.

****

مضت أربعة أعوام على إقامتى فى مصر.. فحين غادرت السعودية كنا فى شهر مايو سنة(٩٣م) وأقبل شهر أبريل سنة(٩٧ م)

يحمل فى طياته الكثير من جرائم الإنسان ضد الإنسان، تلك التى أشعرتنى أننى أحيا فى **أرض للبهتان والمظالم وعمى القلوب!!**

كان الشيطان نائما حتى انتهت سنة (٦٩م) وأيقظته أنا دون أن أدرى .. فحين استقامت لي الحياة ووسع الله علىّ فى الرزق وفى البنين، فكرت فى إثراء الحياة من حولى بما ترقى به حقيقة ....فما قيمة أن تكثر أموالى وهى تدعى كذبا أنها ستبلغنى الأمان فى عالم تسيطر عليه الماديات .. وحتى لو كان هذا صحيحا ...فأين أنا من ديونى الكثيرة **أليست مدينا لله بالكثير!!**

أين أنا من شعب هذا البلد !!

أين أنا من هذا القطيع الصغير الذى تتحرش به الذئاب الآن !!

لقد أتممت تعليمى على أرض هذا الوطن رغم أنف الشيطان وكانت أنامل الخير الضعيفة تحاول أن تُسيج حولى لتبقينى حيا وحتى يشتد عودى وأبلغ حد الفطام !!

وهاأنذا أقف فوق قدمين وأمشى.. وعلىّ الآن أن أحمل جزءا من هموم الآخرين .. بالطبع ليس كل الآخرين.. إن الآخرين بالنسبة لى هم من وقفوا إلى جوارى وتلقوا عنى ومعى الضربات الموجعة .. إنهم مجموعة الخير التى تنمو فوق أديم هذا الوادى، وبالكاد تتنفس لتبقى على

قيد الحياة ..إن أموالى حرام علىّ إن كانت لى وحدى .. ليكن نصفيها للضعفاء .

سوف أبحث عن القشة التى تقسم ظهر البعير لأحملها أنا!!

الحملان فى بلادنا سوف تنهار عند نقطة الإنكسار ... إنها قوانين الطبيعة الثابتة .. فلكل معدن فى الحياة ، مهما كانت صلابته .. نقطة ينكسر عندها، فلو امتدت يد مهما كانت ضعيفة لدفع نير هذا الثقل عند كل نقطة إنكسار فلن يكون هناك إنكسار ولا إنهيار.. هكذا الإنسان .. إنه ينكسر عند لحظة محددة ، ولقد شعرت أنا ببوادر هذا الإنكسار والإنهيار الكامل فى لحظات من حياتى، وتدخلت قوى السماء فى تلك اللحظات الحرجة، وحين عبرت، كانت كسحابة صيف، ودائما كنت أخرج من تلك المواقف أكثر قوة وصلابة وبأساً .صعب أن أنسى يوم كسر كاحلى وأنا مجند بمستشفى كوبرى القبة ، واستبقيت فى الجبس ومن بعده الأربطة شهرين كاملين .

كان هذا الكسر تدخل من السماء..أبعدنى عن مرمى القذاقف فترة من الزمن لولاها لكان الكسر والإنهيار الكامل ..

أنا أعرف معنى ألا يعود الإنسان يحتمل المزيد من الألم والمواقف فى الحياة تتشابه مضموناتها وإن اختلفت الأحداث وتباينت

المواقف، سوف أمد يدى لكل من وصل إلى نقطـــة الإنكســـار حتـــى لا ينكسر، وسوف تبارك السماء خطواتى. لن يكون مسعاى بالمـــال فقـــط، يجب أن يمتلك كل إنسان من القوة المعنوية مـــا يكفيـــه لنعلـــو بنقطـــة إنكساره،ويجب أن يكون لديه من الفهم ما يمكنه من التعامل مع الشيطان وجنوده من شياطين الإنس، حقيقة أننى خـــارج دائـــرة الشـــيطان الآن وسوف يفكر هذا الملعون قبل أن يدخل دائرتى الخاصة مـــرات عديـــدة فلكى يدخل جولة أخرى معى، فسوف يضطر لكشـــف بعـــض أعوانـــه ..وربما نالت أظافرى الصغيرة منهم ، ليصبحوا مشوهين ومفضوحيـــن بين الناس ، ثم ما حاجته لأن يهاجمنى وهو يظن أننى أنفق معظم وقتى فى عد النقود ، لم يفهم الغبى أن من مسه نور الله بشكل حقيقـــى فـــى لحظة من حياته، لن يصبح كما ظن أبدا ، حتى وإن طُمست معالم الخير فى داخله.. فتحت الرماد تتأجج نيران الإيمان وإن لـــم يظهـــر لهيبهـــا للعيون!!

****

وكان على ألا أكتفى بمشاركة الآخرين لى فيما تهبنى السماء من تلك الأشياء البالية التى يسميها العالم – نقود – إنها أوراق تافهة لا أتمنى أن أقابل الله يوما وأنا أحمل شيئا منها،لنعطيها لمن يستعين بها فى تثبيت

الخير فوق أراضينا الخصبة، سواء كان من أبنائنا أو حتى ممن لم نسمع عنهم أو نرهم فى حياتنا !!

إن معركة الخير واحدة، وكل المؤمنون فى مركب واحدة، وقد أبحرت تلك المركب، وصعب أن نغادرها الآن، حتى ولو زينت لنا شهواتنا، وجنوحنا للدعة والاستمتاع بالحياة ،بالانفصال عن جيش المؤمنين!!

إن أملنا الوحيد الآن هو فى انتصار الخير، ووصول المركب إلى شط الأمان!!

كنت أشعر فى يوم غير بعيد، أن الله يصطفينى لنفسه ، وإنه لم يبق حياتى على سبيل المجاملة، وحاشا لله أن أرفض مجاملته، ومن منا يرفض فضل الله عليه، ومن غيره صاحب الفضل ..ولكنى كنت أشعر أن الله اشترى منى حياتى لأسخرها فى خدمته!!

ولكنى استمرءت الملذات.. واحتفظت لنفسى بالكثير !!

أنا أعرف أن الله حى ..وأيضا مازال الشيطان حيا يسعى بيننا ، حتى ولو بذل الكثير ليتخفى حتى لا تستشعره أجهزة المناعة فى أرواحنا.. إنه و"الإيدز" سواء بسواء.. ألا يتخفى فيروس الإيدز بتغليف نفسه بأنواع من بروتين الجسم، فلا يكتشفه جهازنا المناعى، ليدمر كل

شيء وهو آمن في مخبئة..كذلك الشيطان.. أعرف أنـــه يغلــف نفســه بأشيائنا الكثيرة ولا نراه!!

لقد اكتشفته يوما وأعلنت للدنيا أنه يغلف نفسه بأجهزة لها حيثيتها في بلادنا..شرطة..وجيش.. ومخابرات.. وأجهزة تشريعية..وتنفيذيـــة.. وغيرها!!

ترى إلى شئ صار بعد كل تلك الأعوام التى انقضت على جولتى السابقة معه..هل ازداد توغلا وقوة، أم أن قوته انكسرت الآن ؟!

يا لها من إجابة لو تمكنا منها الآن !!

عموما ليس المطلوب مني بالكثير.. كل ما هناك،أننـــــى ســـوف أطلق رصاصاتى فى الظلام.. فإن سمعنا صراخاً من الألم فهو موجـــود ..إن لى كتابات كثيرة ترقد فى الكراتين الملقاة ضمن المهمــــــلات فـــى شقتى، وأنا الآن أملك المال لأطبعها، وأُطلع عليها الآخرين..حقيقيـــــة أنها أعمال أدبية،ولكن هذا أقوى وأخطر ما فيها.. لأنها سياسة مغلفـــــة بالأدب.. لنرى ماذا يمكن أن يحدث!!

وانزلت أوراقى التى تفوح منهما رائحة الزمن ،والتراب أيضا.. ويالها من حركة صغيرة، أقامت الدنيا واقعدتها !! حركة واحدة قـــالت كل شيء !!

إن عدو الخير موجود بيننا وقوى للغاية !!

لقد استأسد الذئب !!

إنه يرى حتى حركات أيدينا داخل بيوتنا!

إنه لا ينام.. ومتى كان الشيطان ينام!

لقد أنذره الله إلى يوم الدينونة وآلْ هو على نفسه وأقسم بعزة الله أن يوردنا موارد التهلكة.. إلا من أعتصم بالله وربط نفسه بالسماء .

****

كنت بالصيدلية فى صباح أحد أيام شهر يوليو عام(١٩٩٠م) حين أتت فتاة حاصلة على دبلوم التجارة تطلب العمل بالصيدلية.. كنت أعرفها شكلاً هى ومجموعة من زميلاتها.. فقد كان الدور الأول من سكنى يستأجره مدرسين من مدرسة طوخ الثانوية التجارية ليعطوا دروسا خاصة للطلبة ،وكنت أشاهدها أحيانا وأذكرها بموقف طريف.. حين أعاقت مياه الأمطار ذات يوم سيارتى على مقربة من منزلى وتطوعت هى ومجموعة من زميلاتها، لمعاونتى فى الخروج من هذا المأزق وهم يدفعون السيارة بحماس. يومها شكرتها على رجولتها وظل وجهها عالقا بذاكرتى ....ولم أتردد فى قبولها للعمل لتتعاون شاكر الموظف الأساسى بالصيدلية، والذى يعمل يوميا إثنتا عشر ساعة، وكذلك

الدكتورة "رويدة" ،التى كانت تعمل فترة كاملة بالصيدلية ، ثـــم اكتفــت بنصف الوقت، وهى تؤدى فترة التكليف ،على قـــوة صيدليـــة التـــأمين الصحى بمستشفى طوخ .

وبعد نحو شهر أتت إحدى مدرسات الموظفة الجديدة، لتصـــرف تذكرة تأمين الصحى، وكانت سعيدة لرؤية، تلميذتها المتفوقة، وأخبرتهـــا أن المدرسة ستفتح فصلين باسم "معهد ناصر،" لتخريـــج دفعـــة تعمـــل مدرسات للآلة الكاتبة فور التخرج، بمدارس التعليم الثـــانوى التجـــارى، وترددت الفتاة فى قبول هذا العرض الذى لا يتكرر إلا كل خمس سنوات ،حين تستشعر إدارة التعليم عجزاً فى مدرسى الألة الكاتبة .

وكان ترددها ينبع من احتياجها لراتبها ، الذى لا يتجاوز ســـتون جنيهاً، لمعاونة والدها الذى يصارع ليله ونهـــاره ليعـــول خمســـة أولاد بمراحل التعليم المختلفة .

وسألتها إن كانت تستطيع الجمع بين الدراسة والعمل نصف يـــوم بنفس الراتب، فكادت تطير من الفرحة ..وعاهدت الله بينى وبين نفســـى أن ألتزم بمصاريف الدراسة أيضا، إن لاحظت جديتهـــا فـــى دراســـتها وعملها .

وأتى صيف (٩٦ م)وكانت الفتاة الأولى على دفعتها كما تســـلمت

جائزة خاصة من إدارة التعليم الفنى، لحصولها على المركز الاول فـــى استخدام الآلة الكاتبة والكومبيوتر .

وبدأ العام الدراسى التالى لها، وأتى عليها عام(١٩٩٧م)، وهى على ما هى عليه من التفوق ..كانت تنهى يومها الدراسى وتسارع إلـــى الصيدلية.. وتذاكر وتعمل بلا فتور أو كلل.

تلك الأيام التى كانت هى بداية تفكيرى فى إخراج سابق كتابـــاتى إلى النور.. تلك الفكرة التى قلت منذ قليل أنها أقـــامت الدنيـــا .. دنيـــا الشيطان الذى هب ليضرب ضربته، موقنا من أنها النهاية.. وفى دهـــاء وصمت اقترب منى كثيراً ليضمن ألا تطيش ضربته لتصيبنى فى مقتل!! ويدأ التخطيط كما سأروى الآن ...

لعبـة الإنتخابـات

دائرتنا الانتخابية فى مركز طوخ دائرة ساخنة، وربمـــــا كـــانت الدائرة الوحيدة التى تناولتها أجهزة الإعلام خارج مصر.. ففى إنتخابات مجلس الشعب سنة(١٩٩١م) نزل المستشار/ عـــادل صدقـــى شـــقيق / عاطف صدقى رئيس الوزراء أيامها ضد.. عطية الفيومى الملقب بحوت القليوبية .

ورغم ما تربط عائلتى بعائلة الفيومى من صلات النسب، إلا أننى

وكثير من المثقفين آزرنا / عادل صدقى، رغم عدم معرفتنا به، وأذكر أننى عكفت على مكتبى بضعة أيام، أكتب ما أتصوره شعارات يمكن أن تتصدر الحملة الدعائية فى المؤتمرات الشعبية، ويمكن أن تحتل موقعها فوق اليافطات بالشوارع ..وكان المسجوع منها يصلح للمتجولين بالميكرفونات ولقادة المظاهرات المؤيدة .

سجلت كل هذا على الورق وعلى شريط تسجيل وأرسلت كل شيئ للمهندس/ ماهر صدقى بمنزله فى سنهرا.. هذا الذى كان مركزاً للعمليات ومطابخ التخطيط لأخيه المستشار /عادل صدقى .

وكنت آمل أن يتغير وجه الحياة فى منطقتنا، بهذا الرجل الذى سمعنا عنه أشياء، توحى بأن الدنيا سوف يخضر وجهها إن تمكن من تمثيل دائرتنا، خصوصا وأن أخيه رئيس وزراء مصر.

وخضت بنفسى تجربة المؤتمرات المؤيدة، ومشت الشعارات التى كتبتها وأنا مؤمن بها كالنار فى الهشيم .. ونجح الرجل.. ولم نرة مرة واحدة بعد ذلك، وأنضم وهو المرشح المستقل إلى حزب الحكومة.. ليتمكن أكثر من الخدمة العامة كما أشاع وقتها.

واكتشفت زيف كل الوعود، وكان عادل صدقى وعطية الفيومى يتشابهان تشابه الحرف الأول من اسميهما ، ولم يتميز المستشار بكل

علمه عن منافسة الذى لم يحصل على أى قدر من التعليم .. على العكس كان الأسوء وهو يفتقد ميزة تواجد مسكنة فى دائرته.. هذا التواجد الذى يشعر الناس بقربه منهم ولو لم يفعل أى شيئ .

لك الله ياشعب مصر ..والكل يسخر من أحلامك !!

ولك الله يامصر .. والكل يغنى عليك لا.. لك !!

وأتت الانتخابات التالية سنة (١٩٩٦م) وبلغنى من أفراد أسرتى المتحمسين للحاج عطية -بحكم القرابة- أن الرجل استوعب الدرس، وأنه سيفعل الكثير من أجل دائرته، وأنه يرغب رغبة شخصية فى النجاح قبل أن يموت، ليترك بصمة جميلة تذكره بها الدنيا.

وطفت الطفولة وذكرياتها من أعماقى، وتذكرت ابنه محمد..طفل المرحلة الإعدادية، الذى دخلت من أجلة أول المعارك السياسية فى حياتى، ضد طلبه الفصل المؤيد لخصم أبيه فى انتخابات عام(١٩٦٢)..يوم سالت الدماء مختلطة ببراءة الطفولة.

واصطحبنى أخى / عبد الله فى زيارة للدكتور محمد بمكتبة بمبنى الحزب الوطنى فى بنها. كان محمد أمين الحزب الوطنى لمحافظة القليوبية، ورئيس مجلس محلى المحافظة .. وكان عليه أن يقف بجوار والدة المرشح المستقل ضد المستشار/ عادل صدقى مرشح الحزب، مما

كان يشكل خطورة على وضعه الحزبى، وكانت معركة حياة أو موت.. فلو خسر الآب فسيكون قد ضحى بالابن أيضـا..

والحقيقة أن السياسة لدى تلك الأسرة تمثل ركيزة أساسية لحماية المصالح والأموال .. وإلا فكيف ستحمى بضع مئات من الملايين تمتلكها دون أن يكون لها الفعالية فى وضع القرار وتطبيقه.

وتمت بضع لقاءات ارتأى لى من خلالها أن أقـف فـى صـف صديقى القديم.. إكراما للطفولة، ولوالدة الذى يريد أن يودع الدنيا وهـو فى مجلس الشعب.. ربما ظن هو أننى أنوى دخول إنتخابـات مجلـس الشعب فى الدورة القادمة، حين ذكر أخى عبد الله فـى لقـاء بمركـز الشباب بطوخ .. أن تلك الدورة لهم، وأن الدورة القادمة لنا.. مشيرا إلى أن قريتى بلتان ترغب فى أن يكون أحد أبنائها عضوا بالمجلس، وأننـى المرشح لهذا .

ربما قالها أخى جاداً أو مداعباً، ولكن يعلم الله أن تلك الفكرة لـم تخطر لى على بال ، ولو خطر لى هذا الخاطر فسيكون ترشيحى لأخى لا لنفسى، وأنا أعتقد أنه بالفعل مؤهل لهذا .. بحكم وظيفته كأحد القضاة، وعلاقاته العامة التى تجعله مفيداً لأهل دائرته.

وإجتاز الرجل الانتخابات على أعصابه ،ووقف كل من ينتمى إلى

اسم العائلة بدائرة بلتان إلى جواره، وكان أشدهم حماساً فرع "البكـــرى" الذى انتمى إليه، والذى تلتف العائلة كليا حوله، ونجح عطيـــة الفيومـــى وأتى عام ٩٧م ،وكان المجلس المحلى يبحـــث عـــن أعضائـــه الجـــدد، ورشحنى الحزب الوطنى ضمن القائمة، ولأول مرة أرى بعينـــى كيـــف تُخاض الانتخابات فى مصر .. إنها كوميديا بحق، ولكنها أيضا لا تخلـــو من التراجيديا !!

فقبل الانتخابات جمعنا د. محمد الفيومى رئيس مجلـــس محلـــى المحافظة وأمين الحزب الوطنى بالقليوبية، وأوصى بجمع مبلـــغ مائـــة وخمسون جنيها من كل عضو بالقائمة.. لزوم مصاريف رؤساء اللجـــان من الشاى وسندوتشات الكباب والكفتة، والسجائر، وكان الحال كذلك فى باقى المدن والقرى والكفور، وقامت كل قائمة بعمل إجتماع آخـــر فيمـــا بينها ليتحرك أفرادها صباح يوم الانتخابات ، وكان دورى أن أمر علـــى اللجان لتقوية عزائم مندوبينا فى كل لجنة، ولحل المشاكل التى يمكن أن تنشأ من المعارضة .. ولكن أى معارضة تلك التى حدثونا عنها !!

لقد كان الأمر أيسر من هذا بكثير ..فرؤساء اللجان كانوا يقابلونى بالترحاب لمجرد أننى أمشى وخلفى بضعة أفراد من أعضـــاء الحـــزب، وكأنى أحد فتوات الثلاثينات فى كباريهات القاهرة، وكان وقـــع الطعـــام

والسجاير وزجاجات المياه المثلجة كبيراً فى نفوسهم ..وغالبا ما كان يهدينى رئيس اللجنة بضع مئات من الأوراق المطبوعة، يعطيها لأحد المصاحبين لى، ليقوم بوضع العلامات أمام أسماء مرشحى الحزب بأحد أركان اللجنة -على عينك يا تاجر- كما يقولون، أو بخارجها .

لاحظ الأمر أحد المحامين المعارضين بلجنة طوخ الإعدادية، لحظة أن كنت أمر بها، وأثار زوبعة كادت تصل إلى حد الإعتداء عليه من قبل بعض شباب الحزب، فأخذته من يده خارج المدرسة لتمر الواقعة بسلام، ووجدتنى أقول له.. أن ما يحدث ليست انتخابات من أصله لنختلف عليها.. فاللجان التى لا يدخلها إلا بضعة ناخبين تسدد لحساب الحزب، وتلك المهزلة التى لم أكن أعلم عنها شئ وأشعرتنى بالغثيان، تجعلنى أمام موقف لاخيار فيه، وتلزمنى بتجنب الحياة السياسية ....والاكتفاء بالملاحظة والمشاركة الكلامية فقط فيما يخص سياسات الدولة، وخطوطها العريضة فقط!

وإكتشفت أن هذا المحامى لا يتسم بالرجولة حينما "فط" من يدى كالطفل، وهو يصرخ وسط الناس

: الدكتور محمد البكرى إعترف بالتزوير.. يا حزب وسخ ..

كان يريد فضيحة ليشبع فيها لطم.. لقد تحدثت معه على سبيل

الفضفضة مما عانيته من هذا الشكل الفاضح للتزوير ، باعتبار أننا جميعا ..حكومة، ومعارضة.. مصريين أساساً.. وحينمـا نتحلـى بالشـفافية.. فسوف نرقى بأسلوب الأداء السياسى فى بلادنا، التى نحبها، والتى ننوى تكريس أنفسنا لخدمتها!!

وأكتشفت أنه لا يوجد أسوأ مـن الحكومـة.. إلا المعارضـة.. واللعبة فى النهاية عند الجميع، لا تمت للأخلاق بصلة، وليس لها علاقة بالرغبة فى الخدمة العامة !!

وأنصرفت وأنا أشعر بالألم ..فأخيرا صرت ممن يشاركون فـى الجرائم.. كنت أسمع عن تلك الأشياء، وكنت أحيانـا أُصـدق وأحيانـا أكذب، ولكنى الآن أراها بعينى وأشعر بالحزن الدفين..وأنا واحـد مـن أهلها !!

أخذت أحث الخطى نحو سيارتى، لأبتعد بها وإلى مسامعى تصل آهات مكتومة.. فعلى ما يبدو أن بعض المتمتعين بموفور الصحة، تولوا المحامى ببعض المسكنات والمهدئات المعهـودة، ليسـكن إلـى الدعـة والهدوء !!

لم أكن أرغب فى رؤية شئ من هذا، ولم أحب أن يحسب علـى أننى سكت على تصفية جسدية لإنسان، ولكنى كنت قد توصلت إلى قناعة

منبعها رؤية العين، وقوام فلسفتها عبارة قديمــه تجـرى علــى ألسنة العصريين " مفيش فايدة" ، ويعلم الله أننى قدمت استقالتى فى قلبى مـن الحزب، وعضوية المجلس قبل أن تصير واقعا بإعلان النتيجة.

ولهذا كان قرارى برفض حضور الجلسات بعـد ذلـك وكـان تواجدى خلال الشهر الأول محاولة لاستقراء ما يجرى داخل الجلسـات، وحين أتانى سكرتير المجلس ومعه الدفتر لأوقع علـى إسـتلام مكافئـة حضور الجلسات، رفضت إستلامها وأنا أقول له.. أننـى أتـبرع بهـا لتحسين مستوى مبنى الحزب، وأوضحت له أننى أقوم بالعمل السياسـى تطوعا للخدمة العامة، وأندهش الرجل لما قلت ، ولم يعد لزيارتى مـرة أخرى.

****

﴿المؤامرة﴾

ما أخطرُ الأفعى ؟

العبارة السابقة تقرأ بضم الراء، وعلى هذا تنتهي بعلامة استفهام.. لأنها سؤال عن أخطر شئ بجسد الأفعى، أما لو قرأتها بفتح الراء، فيجب أن تنهيها بعلامة تعجب.. لأنها في تلك الحالة ستعبر عن الاندهاش والتعجب من مدى خطورةالأفعى.

وبمثل تلك العبارة، كانت المحاولة الأولى لوضع قواعد النحو في اللغة العربية على يد أبي الأسود الدؤلي حين نظرت ابنته إلى السماء وقالت لأبيها.. ما أجملُ السماء.. ورد عليها أبوها قائلاً .. نجومها. حينئذ قالت له ابنته.. ياأبي أنا لا أسألك عن أجمل ما في السماء، ولكني أتعجب من جمالها، في هذا الليل البديع. فقال لها الرجل.. إذن قولي ما أجملَ السماء بفتح

اللام لا بضمها فبالضمة أنت تسألين، وبالفتحة تتعجبين .

وفى تلك الليلة بدأ الرجل يشعر بخطورة العجمة على اللغة العربية، وبدأ بوضع نقط على الأحرف تبين تشكيلها، ووضعها الإعرابى، واستمرت المحاولات تبنى على ما أسس هذا الرجل لتصل إلى ما صارت إليه لغتنا العربية.

وأنا سألت .. ما أخطرُ الأفعى ؟

وسأجيب قائلا:

: رأسُها.. نعم ففي الرأس كيس السم، وفيه أيضا الأنياب الحادة القاتلة ، والعينان لتبصر الضحية قبل الفتك بها .

وفى كلماتى التالية سرد لما كان بينى وبين الأفعى التى لدغتنى بنية القتل !! وكان لى من إيمانى بالله، المناعة الكافية لأنجو من مخاطر اللدغة السامة !! وكانت يد الخالق الحنونة، درعا واقيا من الزلزال الذى أراد أن يهدم المعبد على ساكنيه.

قد لا يمتد بى العمر لأخرج هذا الجزء من مذكراتى فى هيئة كتاب ليقرأه الآخرون.. ولكنها وريقات أعلم أن الله سيكتب لها النجاة، كما كتبها لصاحبها من قبل.. وحتى لو لم تمهلنى الأيام فإرادة الله ستصل بها إلى يد أمينة، لتعلن للدنيا ما رأيت.. شهادة منى على عصر

عشت فيه، واتهام منى لرأس الأفعى اللعينة بالخيانة العظمى.. فكتيبة الإعدام التى صدرت إليها الأوامر لتتحرك فى اتجاهى، لم تكن تعلم أننى ربما أكون التعبير الصادق لضمير هذا الشعب.. لاتؤاخذوا رجال الكتيبة، فهم جزء منكم.. إنهم فقط جسد الأفعى، أما الشر كل الشر، ففى رأس الأفعى.. لتحاكم الرأس فقط كما يحاكم الخونة فى كل مكان !!

أنا لا أطالب هذا البلد الآمن بأن يقيم عليهم حد الحرابة، لنقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو لنصلبنهم أو ننفيهم من الأرض التى خانوها، ولكنى أطالب بالعدالة وسيادة القانون، رغم أنهم لم يطلبوا العدل فى مواجهتى، ولكنى لا أملك أن أحيد عن الحق والواجب!!

أكتب إلى الخاصة ممن يتوقون إلى الفهم، وقد أثخنتنى الجراح ، ويكفينى أن قطرات الدماء التى تتلقفها الأرض الطيبة، سوف تنبت أكاليل الغار، فى كل مكان، ليضعها أولادنا فوق رأس مصر العزيزة!!

مصر التى خانها الأشرار ولم يدركوا قدرها.. مصر التى أخذوها من أيد أولادها واستباحوا كل شىء فيها، ولولا أن الله قريب جداً، لاستحالت خرائب وأطلال!!

فى تلك الأيام التى كنت أفكر فيها فى كيفية خروج كلماتى، التى جرت بها أسنة أقلامى، كان الشيطان يراقب قلقا، هذا الذى عاد إلى

بلاده بسواعد قوية .. وكاد الشيطان أن يتميز من الغيظ، وأنا أُعِدُ ما كتبت، لأخرجه كتبا سوف يقرأها الآخرون، وربما كان يسأل نفسه.. وماذا بعد ؟!

وأراد ألا يكون هناك بعد !!

وفى تلك الأيام الحافلة بالنشاط ، قام الشيطان بأوهامه وغبائه بتوجيه الضربة الأولى، وساء من اختار لتكون يده فى العملية الأولى.. كانت إهدى العاهرات بمدينة طوخ.. شهرتها تعانق الآفاق.. ويعلمها طلبة المدارس والعمال والمخبرون والمشوهون نفسيا فى طوخ وضواحيها، ومن العزب والكفور والقرى، ومن قبل فى شبابها بمنطقة القيلل بمدينة بنها..كانت نارا على علم، يقصدها ذوى الشخصيات الكلابية. وذات مساء.. وبعد آذان العشاء مباشرة.. دَخَلَتْ إلى الصيدلية.. تلك التى تشبه شكل الآدميين من الخارج، وإن كان ما بداخلها لم يرق بعد إلى مصاف الحيوانات الدنيئة.. كانت ترغب فى صرف روشتة تأمين صحى حين كنت بالصالة الداخلية للصيدلية أجلس مع أخى عبد الله، نتابع أحد برامج التليفزيون .

وقامت الآنسة /عبير التى تعمل بالصيدلية بالاطلاع على الوصفة الطبية وهى تقول لها، أن أحد الأدوية المكتوبة غير موجود، وأن هناك

مثيلا له يزيد سعره خمسون قرشا، وأتت إلى "عبير" بالوصفة لأضمن إلى صحة ما تحدثت به، وبالفعل كان ما قالت مطابقا لقواعد العلم وللأسس المعمول بها عند صرف التأمين الصحى.

وفى لحظة وبلا مقدمات، وبلا أى سبب، ظهرت العاهرة من داخل تلك المرأة، وهى تسب عبير وتنعتها بما تعرفه هى عن نفسها ..

وذهلت مما أسمع وقمت محاولا تلاشى أى إشكال بالصيدلية، فاشتبكت معى أنا الآخر، ثم خرجت إلى الشارع لتبدء وصلة ردح متصل، قالت فيه كل ما يَخجلُ القلم عن ذكره .. تعمدت فيه أن تتهم الفتاة البريئة فى شرفها، وأن تعلن على الملأ بأنها على علاقة بصاحب الصيدلية وشقيق صاحب الصيدلية، ولم يتمكن الخارجون من الصلاة بالجامع القريب ولا الجيران، إثنائها عن عزمها، والكل يتحاشى أن يشتبك معها، وهم يعرفون من هى ومن أمها من قبلها.. وكأنها عائلة تأصلت فى هذا الإنحطاط.. واتصلت بالنجدة وبرئيس المباحث، ولم يصلنى أمين الشرطة قبل الوقت الكافى للعاهرة لكى تقوم بالدور الذى رُسم لها، وتنفذ التعليمات التى صدرت إليها.. وهذا هو ماتيقنت منه فيما بعد.

وهناك بقسم شرطة طوخ، كان أحد المحامين فى إنتظارها وعلمت أنها توجه إلىَّ إتهاماً بسرقة سلسلة ذهب من صدرها، وغوايش

كانت بيدها، وبأننى ضربتها، وطلبت العاهرة توقيع الكشف الطبى عليها، وحدثنى الضابط الهمام بالقسم عن تلك المرأة، وهو يؤكد لى أننى وقعت مع عاهرة، وأننى يجب أن أتنازل عن المحضر لأنـــه سـيضطر أمـــام شكواها، لاستبقائى معها بالقسم، وحتى العرض على النيابة فـــى اليـــوم التالى.

كانت الآنسة /عبير تبكى بكاءً مراً.. وهى ترى أن القانون لـــن يعاقب الجانى، وأن الجانى سيصير مجنياً عليه بقدرة قادر ، وقلت لأخى أنه لا مفر من التنازل.. لقد حققت المرأة ما أرادت، وكان كل شئ جاهز ومعد..المحامي.. والاتهامات بالضرب والسرقة والسب .. ومن يـــدرى بعد أن طلبت توقيع الكشف الطبى، وما أسهل أن توقـــع بنفســـها الأذى لتسبك القضية..

ضحكت بسخرية وأنا أتسأل بينى وبين نفسى ..

هل ما يحدث أمامى الآن يمكن أن يقع فى أى مكان آخر بالعالم؟!!

فى تلك الليلة حاولت عبير الانتحار، وأوقفها أبوها عـــن العمـــل بالصيدلية من اليوم التالى مباشرة، لأفقد مساعدى الوحيد بالصيدلية.. تلك الفتاة التى كانت لى بمنزلة الابنة!

****

لم يمض يوم حتى أتى إلىّ محمود .. أحد مندوبـــى التســـويق، وكان يعمل لدى الشركة المتحدة للصيادلة، بعد أن ترك عمله بصيدليـــة

"مصر" التى لا تبعد كثيراً عن صيدلتى، وهو يعرض علىّ أخيه "حسام " ليعمل معى بالصيدلية، ورحبت به ليحمل عنى عبء الصيدلية، التى صادر من قلبى مشاعر الود تجاهها، هذا الموقف الغريب الذى تعرضت له !!

أحسنت وفادة المساعد الجديد، الذى استمر معى نحو أسبوع ، وفى رابع يوم لوجوده معى، أتى إلى بعض من المهتمين بالانتخابات والمحليات، يهنئونى بنجاحنا الساحق !!

والحقيقة أننى لست أدرى أى نجاح هذا الذى حققناه وعلى من !!

فعلى ما اتضح لى كانت كل الأمور معروفة مسبقا، والسيناريو كان موضوعا لها من قبل، يبدو أننا نحيا دائما ما أتفق عليه مسبقا، وما نصير إليه، هو من باب تحصيل الحاصل، فلا مفاجأة ولا منافسة ولا خصم حقيقى، وأمام القطار المتحرك تطحن بلا جلبة الحصوات الصغيرة

وكما طُلب منى من قبل، التبرع للحملة الإنتخابية، طلب منى الوفد الزائر، دعوة المجلس الجديد على عشاء فاخر "بفيلا البكرى "فى بلتان، وطلبت منهم تحديد مطالبهم، فضحك أحدهم وهو يعلن تبرعه بصندوقين من البيرة لتلك المناسبة السعيدة، وأضاف أن الخروف لن يكلفنى أكثر كثيرا مما تبرعت به للحملة .. وأضاف أن هذا ليس بالكثير

لكى أتبوء منصبا متميزا فى الإنتخابات الداخلية لرئاسة اللجـان ، حيـن يعضدني من ستنكم أنوفهم رائحة الشواء حول النـافورة التـي تتوسـط حديقة الفيلا. وضحكت وأنا أرى وصفهم لما سيكون عليه شـكل اللحـم المشوى حين تتصارع الأيدى لتنشب أظافرهـا فـي جسـد الخـروف المسكين.

وهب أحدهم ليقول هائما.. والدماغ والله يا دكتور ؟! وحاولت أن أفهمه أن رأس الخروف لا تشوى، وأنها تحتاج إلى إعداد خاص.. وضج الحاضرون بالضحك وهم يوضحون أن الزميل العزيـز يقصـد دمـاغ الأعضاء، ليكون تقسيم المناصب الداخلية بالمجلس على رواقة وأن هذا لن يكون إلا بالسجائر الملفوفة ليستجيب الأعضاء، وحيـن تقـل حـدة التناحر على رئاسة وأمانة اللجان.

ورددت ضاحكا بأننى لا أدخن ولا أشجع على التدخيـن .. وأن طفايات السجائر التى أعدها كهدايا للدعاية للصيدلية بين الأطباء وعملاء الصيدلية، مكتوب على أحد جنباتها اسم الصيدلية ورقم تليفونها، وعلـى الجانب الآخر عبارة " التخين ضار بالصحة "

وثار الجميع وهم يقولون أننى أصبحت ممثلاعن الشـعب الآن، وأن رجل السياسة عليه أن يستجيب لمطالب الجماهير ..وإلا..!!

وبعد يومين أتى إلى الصيدلية الحاج محمود صيام.. وهو جار لى يعمل بشركة "عثمان أحمد عثمان" ..وكنا نمضى أوقاتنا بالصيدلية، وهو يتعاون معى فى إنهاء حسابات التأمين الصحى، ورغم كبر سنه وهو يقترب من سن المعاش، كان الرجل لا يتأخر فى أوقات الزروة عند نهاية كل شهر، فى مراجعة الفواتير وتقفيل الحسابات النهائية.

وقبل أن تنتهى اكواب الشاى أتى للصيدلية شاب يسأل .. إن كان الحاج محمود موجود بالصيدلية، ودعوته للدخول، وما أن جلس حتى أخرج من جيبه لفافة فتحها وهو يقول.. أن الصنف "سيناوى"– نسبة إلى صحراء سيناء المصرية– ماركة "الريحان".. لأن رائحته تشبه الريحان، وأنه حين علم أن الحاج محمود ليس بمنزله وأنه بالصيدلية، لم يتردد فى المجئ لجودة الصنف ، وعلمت أن الشاب المتحدث هو "محمد الأبيض".. تاجر المخدرات، وأن الذى يحمله هو "نبات البانجو"، والذى كان شائعا فى مصر فى تلك الأيام، حتى قيل أنه لا يوجد فى مصر من لا يشربه.

وبما عرف عن الحاج محمود من الكرم..انتهى الموقف بتخصيص تلك "النفحة" لحساب الوليمة المتفق عليها.

فى حدود معلوماتى، أن النفحات تكون فى عالم "الإيمان" حين يفيىء الله علينا بنفحاته التى تفتح القلوب وتزيل صدأ النفوس، لتتجلى

أمامنا عظمة السماء وجلال خالقها، وأسرار هذا الكون الرباني الذى نرى فى كل ذرة منه لمسة المبدع العظيم.. استعارها أصحاب المزاج، ليطلقوها على ما يتباهون به من مستلزمات "الدماغ"!!

وفى اليوم التالى أشار علىّ أهل الخبرة، بتندية هذا النبات بالماء- لكى لا يجف ويتلف- وحتى ليلة الوليمة، وفى هذا اليوم أيضا أخبرنى المساعد الجديد بالصيدلية- حسام - بأنه قد تم تعيينه فى الهيئة العامة للنقل بالقاهرة، وأنه لا يرغب فى الاستمرار بالعمل، ولم يهتم بالمطالبة بأجرة عن الأسبوع الذى عمل خلاله، وهو يرى أنه لم يقدم شيئا للصيدلية يستحق أجراً عليه، ولكنى أبيت أن ينصرف قبل أن يأخذ مكافأة نظير ما أنفق من وقت بالصيدلية، حتى ولو كان يتعلم أساسيات العمل .

وفى مساء هذا اليوم أتى إلى "محمد عبد الفتاح" ابن صاحب أشهر المطاعم بطوخ، على الطريق الزراعى ،مصر ..اسكندرية وكان قد مضى نحو ستة أشهر على آخر مرة رأيته فيها .

كانت تربطنى صلة بأسرة هذا الشاب، من خلال ترددى على المطعم الخاص بهم، حين يكون لدى ضيف أرغب فى دعوته على الطعام .

أتى محمد إلىّ هذا المساء، وأمضى بعض الوقت، ودعوته

ليحضر الوليمة ،ليشرف بنفسه على إعداد الطعام، كما أتت الآنسة عبير ..التي كانت تعمل معي بالصيدلية،وأمضت وقتا لم تنقطع خلاله دموعها، حزنا وجزعا مما كانت تخبئه لها الأيام من تعاسات، وهي تطعن في شرفها وتترك عملها الذي أحبته، والصيدلي الذي وضعته في منزلة الأب.

****

أغلقت الصيدلية في هذا المساء بعد الثانية عشر بقليل،وركبت سيارتي متجها إلى الكوبري الذي يعلو النفق بشارع الشهيد/ أحمد عبد العزيز ،وعلى يمين الكوبري كنت أقف بسيارتي،أقلب مؤشر المذياع بين المحطات، وأرنو ببصري بعيداً بطول هذا الشارع الذي شهد أيام صباي وشبابي المبكر، حين كانت أشجار الكافور العتيقة على جانبيه تمد غصونها لتتلاقى ،وكأنها تمد أناملها لتتشابك في حب ، وتظلل الدنيا من تحتها!!

وتذكرت صديقي إبراهيم حين حدثني عن هذا الشارع ومذبحة الأشجار، التي كنا نعتقد أيامها انها مذبحة لكل ما هو جميل في مصر.

لك الله يا شارع الذكريات !!

لَكَمْ شهدت من مواقف وهاأنذا أقف في ذلك الموضع الذي يجذبني دائماً

إليه .. تذكرت ما كان خلال الأسبوع الذى مضى، والذى شهد موقفى مع العاهرة ..وفى سرحتى فكرت فى أن أعود لكتابة للقصة القصيرة ..
وتخيلت الموقف وقد صاغته الكلمات فى عقلى، وابتسمت فى سخرية وأنا أقول لنفسي لأسميها .. "هجوم العاهرات".. وعند هذا الاسم اتسعت ابتسامة السخرية ..تلك التى أفقت منها على صوت قطار، ظننته غاضبا على شيء ما .. شعرت بحاجتى إلى صديق أتحدث إليه ... أحكى له وأسمع منه.. وتذكرت إبراهيم الذى هجر طوخ ليقيم بالقاهرة، يمارس المحاماة بذكاء شديد، ولا يثرى من وراء موكليه، ويتلهف لرؤية قدامى أصدقائه، ويلعن المهنة كلما رآهم وهو يشعر أنها تعزله عنهم.

امتدت يدى إلى أحد الشرائط.. كان من تسجيلاتى الخاصة القديمة، وعليه مجموعة غير متناسقة من الأغنيات،ولم يتحرك الشريط .. ربما لفرط قدمه، فدفعت به خارج الكاسيت وطرقت به تابلوه السيارة عدة مرات وقلبته على الوجه الآخر، وأدخلته فسمعتها تقول

.."أنا إن قدَّر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى..

ما رمانى رام وراح سليما.. من قديم عناية الله جندى ".

كانت أم كلثوم الرائعة ......وللحق..أنا لا أتعايش مع كل أغانى أم كلثوم.. فأنا أحب الطرب. وأم كلثوم عندى تعنى السنباطى،وذكريا

أحمد، وتلك الأغنية، التى أحببت فيها مصر منذ كنت صبيا بالمرحلة الإعدادية.

استمعت للكلمات ، وشعرت بقوة تجرى فى أوصالى . وكأنها تغنى لى أنا لا لأرض مصر .."مارمانى رام وراح سليما ، من قديم عناية الله جندى" ...وما أنا!.. وما الأرض!.. أنا جزء من هذا التراب وتلك الأرض، فليس غريبا أن أشعر أن الكلمات تقصدنى أنا.

أدرت مفتاح السيارة لأكمل باقى الأغنية وأنا فى طريقى إلى بيتى. كانت زوجتى بين اليقظة والنوم.. وما أن شعرت بقدومى حتى قامت تعد لى العشاء، وحين عادت تحمل الصينية من المطبخ لمحتنى بغرفة نوم أولادى، وأنا لم أغير ملابسي.. انتقل بين أسرتهم وأنام إلى جوار كل منهم لحظات ..أقبلهم وأضمهم إلى صدرى .

وضعت لى الطعام أمام التليفزيون بغرفة المعيشة،وعادت تقول

:آه من دلعك للولاد .محدش هيبوظهم غيرك!

ووجدتنى وبلا سبب أقول لها بتلقائية:

:تفتكرى هعيش لما أربيهم!!

وربما لمحت بذكائها الصامت دائما، نبرة جادة فيما قلت،فلم ترد وهى تجذبنى من يدى وتقول :

: الأكل هيبرد .

قمت أتبعها لألقى نظرة على العشاء، الذى تجعله زوجتى فاخراً

دائما، وهى تشعر أنه الوجبة الرئيسية لى، وكانت معدتى تقدر ظروفى فلا تستنكف أن تقوم بواجبها في هذا الوقت المتأخر من الليل.

أنهيت طعام العشاء وقمت لأنام، وفى الصباح كنت مضطرا للنزول إلى الصيدلية كما اعتدت خلال الأسبوع الأخير، وفى نحو الحادية عشر صباحا زارنى ابن عمى ،قادما من البلد ليخبرنى أنه عثر على ذبيحه مناسبة ،وقبل انصرافه أعطيته اللفافة النائمة في فريزر الثلاجة ليجهز للحفلة التى كنت أنوى القيام بها ليلة عيد الأضحى .

وحتى الآن لا أدرى.. لماذا أعطيته ما بالثلاجة، وكان من الطبيعى أن احتفظ به معى وحتى يوم العزومة.. وتركنى وهو يعد أن يكون كل شئ جاهزا.. الذبيحة والفحم والأسياخ والفاكهة.. وودعته وهو يقول لى :

:عقبال مجلس الشعب ......

أمضيت نحو ساعة بالصيدلية، وبعد الساعة الواحدة بقليل،دخل الصيدلية عدد من الرجال..كانوا نحو عشرة.. ثلاثة منهم يرتدون القميص والبنطلون، والباقين من ذوى الجلاليب، ومعهم إحدى الزميلات من إداره الصيدلة بالقليوبية.. الدكتورة .. سعاد.

وقمت أتحدث إلى الدكتورة من وراء فاترينة العرض،فقالت لى

أن معنا العقيد /محمد رئيس مكتب مكافحة المخدرات، وسألتنا عن سبب الزيارة: فأجابني العقيد:

:مجرد زيارة للصيدلية.. إجراء روتيني.. وإذا لم تكن هناك مخالفات،فسوف ننصرف.

رحبت بهم ودعوتهم للدخول إلى صالة الصيدلية الداخلية.بدأ عقلي يعمل سريعا وأنا أرى ثلاث ضباط وسبعة مخبرين يملأون الصيدلية، وضاعت وسطهم الدكتورة االمسكينة المرتعدة فرائصها، وأمر العقيد –الذى عرفت فيما بعد أنه غارق حتى أذنيه في ??????????? – أحد المخبزين بالوقوف على باب الصيدلية لمنع دخول أى إنسان .

فى لحظات تكهرب الجو.. ووجدتنى أقول للعقيد محمد..

:أنا مش هسألك عن تصريح النيابة لكنى هقول لحضرتك..دى صيدليتى، وأنا عارف آيه اللى فيها ،ولو صادفتك مخالفة واحدة، أنا هعتزل المهنة دى وهشتغل " منجد"!

ورد الرجل فى اقتضاب..

:اتفضل استريح على كرسيك، وسيبنا نشتغل.

جلست وأنا أنظر إليه، وكان أوضح مافى وجهه..هاله سوداء أسفل وأعلى عينيه.. كانت بوجهه أشياء توحى بالكثير، ويعرفها جيداً

الدارسين من أمثالى.. وبدأ المخبرين الأشاوس والمغاوير، يبرزون مياراتيم فى فن القتال، وعن على الرفوف كانوا ينزلون علب الدواء ليفتحوها علبة .. علبة ..

ومن التخزين العلوى كانت تنزل كراتين الأدوية والمستلزمات.. كل هذا والعقيد لايغادر الصالة الداخلية، للصيدلية وعينه لاتفارق الثلاجة، وأنا جالس على الكرسى الخاص بى.. أنقل عينى بينهم وأحاول سبر أغوارهم.. لعلى أصل إلى شىء أفهم منه مايحدث حولى !!

وبعد نحو نصف ساعة طُرد خلالها كل قادم للصيدلية، بدأ الناس فى التجمع وقد هالهم جحم القوات والفوضى التى عمت!!

قمت أحدث السيد/ العقيد وأنا أقول له.. إن ما يتم ليس أسلوب تفتيش.. فاقترب منى مكشراً على أنيابه ويده تمتد إلى جيوبى يفتشها ويخرج كل شئ، ثم طلب من الدكتورة أن تصحبه للثلاجة، وأن تفتح الفريزر بنفسها.. ففعلت ما أمرها به .

وبداخل الفريزر كانت هناك لفافة، أظهر لهفتة وهو يخلعها من الثلج الذى أحاط بها.. وبدأ بفتحها .. وسارعت إلى تحذيره منها .. وأنا أقول له

:مش هتلاقى غير سرنجة بها بعض الدماء لمريض بفيروس "c " ..

بلاش تلمسيها .

لم أكن أكذب فيما إدعيت.. فأحد جيرانى كان مريضا بفـــيروس قالوا له مرة أنه "c" ومرة أخرى أنه "B" .. وأرسل الرجل لـــى ســرنجة بلاستيك بيها عينه من دمائه يرجونى أن أوصلها بنفسى لمعمل أثق فيه ..

وجاء العقيد محمد لينتزع منى ابتسامة عفوية وهو يلقى السرنجة على المكتب، وكأنها لغم سينفجر وهو يقول ببلاهة..

: يعنى أنا تلوثت كدة!!

وطمأنته وأنا أطلب منه أن يغسل يديه بالماء والصابون .

واستمرت العملية القذرة قرابة الساعتين لم يعثر خلالها أحد مـــن شله الهكسوس علي شيء.. ووصل بهم الحال.. أنهم كانوا يدوسون على الأدوية وقد أسقط فى أيديهم ، وأردت أن أريحهم وأريـــح نفســـى مـــن حيرتهم.. فقلت للعقيد، أن خلف الكرسى الذى أجلس عليه دولاب صغير، وأنه يحتوى على بعض الأدوية مما يســـمونه " الجـدول الثـــانى " لأن صيدليتى ليس بها أى أدوية تابعـــة للجـدول الأول مثــل " المورفيـــن والبيتادين" ،ورغم أن هذا مخالف للقانون اذ يلزمنى قانون وزراة الصحة أن احتفظ فى الصيدلية بعدد من أمبولات " المورفين أو البيتادين تصرف عند الضرورة فى العمليات وللذين تفاجئهم جلطة القلب..فقد يتسبب الألم

الحاد فى وفاتيم، وأيضاً لمرضى السرطان فى حالاتيم المتأخرة، ورغم هذا فأنا لا أطلبها من الجيات الحكومية، تلافيا لكسر أمبول قد يدخلنا فى مشكلة.

وأقترب الرجل سعيداً بما أرشدته إليه وحمل كل الأدوية بكرتونتين، وكان معظم ماأخذ ليس تابعا للجدول الثانى.. فحينما تضيق الرفوف بالأدوية، كنت أضعها أيضا بهذا المكان، ولكن الرجل كان متلهفا للخروج من مأزقه، وكأن يبحث عن أى شىء يحمله وهو خارج!!

وأكملت حديثى معه وأنا أشير بيدى إلى الصندرة، وأطلب من بعض المخبرين أن ينزلوا ما بها من كراتين، كما طلبت منه أن استغل تلك الفترة فى إجراء تليفون للنيابة العامة..لأنى أطلب معاينة النيابة للصيدلية قبل انصرافه، وأيضا لأجراء محادثة "للرياسة الجمهورية" حيث أخى الذى يعمل مستشاراً برياسة الجمهورية للشئون القانونية.

ورفض الرجل إجراء أى مكالمات، وأرتدى ثوبا مسرحيا من الشرف وهو يقول.. أن رئيس الجمهورية نفسه لن يستطيع حمايتى .. وأنه سوف يقدم استقالته إذا تدخل أحدٌ ليثنيه عن أداء مهام وظيفته .

يا لروعة الكلمات !!

وكدت أشعر أننى أمام إنسان شريف !!!

أين أنت يا كاميرات التليفزيون لتسجيلي لهذا البطل كلماته الخالدة !!

بل أين أنت يا عرابى فوق صهوة حصانك، لتتضاءل وتنزوى أمام آخر فرسان العصر!!

وشككت أن الرجل واقع تحت تأثير أحد العقاقير القادرة على تصوير بطولات وهمية..ولكن أى بطولة يمكن أن تكون فى صيدلية عاث فيها فساداً وتدميراً بلا سبب ظاهر.. إن أصغر أولادى قادر على هذا التخريب.. والرجل يتصور أنه فى موقف الأضعف وأنه سيقدم إستقالته!!

ترى ماذا قيل له قبل أن يأتى إلى صيدليتى!!

ماذا أخبروه عنى!!

وأى رعب عن هذا الذى تملكه ليتحدث عن مشروع استقالته من هيئة الشرطة!!

وتفتقت عبقرية الفتى الهمام فى لحظة عن فكرة مجنونة.. فتح درج المكتب الذى أمامه، وأخرج كيس صغير فى لحظة من بين الأوراق ليسألنى:

ما هذا !!

واجبته :

: بتسأل على أيه حضرتك ؟

فقال :

:الكيس دة فيه "بانجو.. "لو سمحت يا دكتورة شوقى أنا لقيت آيـــه فـــى الدرج!!

وأقبلت الدكتورة لتطلع على الكنز الذى عثر عليه،والذى تخيل فى لحظة أنه المَخْرَج الوحيد من المأزق الذى وضع نفسه فيه، حين دخـــل الصيدلية ليستبيح كل شئ فى هجمة شرسة، كان المفروض أن تسفر عن مخزون هائل من أدوية المخدرات والمخالفات، وأدركت فى لحظـــة أن الرجل فكر فى أن يلجأ إلى التلفيق، فلم يجد غير نحو جرام بانجو ربمـا كان بجيبه أو فى جيب أحد الهجامة الذين بصحبته، وتخيـــل أن عنايـة السماء تلهمه الحلول السريعة ..

والله القادر دائما..أحال هذا الموقف فيما بعد، إلى ينبوع خـــير لا ينقطع مداده!

خرجنا من الصيدلية التى تحولت إلى شكل أقرب ما يكون إلـــى خرابة عاثت فيها خنازير برية شرسة، وهناك وعلى بعد خطوات كانت سيارتا شرطة، واحدة للمخبرين وأخرى للضباط ، وطلبت مـــن العقيـد محمد وأنا أتصور أن هذا من حقـــى، أن أتبعهـم بسـيارتى الخاصـة،

وبصحبتى أحد الضباط؛ وسألنى الرجل عن سيارتى.. فأشــــرت إليهـــا، فسارع يطلب من أحد الضباط تفتيش السيارة، وكما فعل بالصيدلية فعل بالسيارة..وأشيد لهذا النابغ الصغير أنه كان ماهراً إلى حد كبير ومدرب بما فيه الكفاية.

ولم يعثر الرجل على شئ. أحسست وكأنه يشعر بـــالخجل ممـــا فعل، ولم أصدق أن تلك الفصيلة من البشر يمكن أن تشعر بالكســـوف ، ولكنى قلت لنفسى.. ربما كان الشر فى نفسه مازال بمراحلـــه الأولـــى، ومازال أمامه أعواما أخرى ليتخلى تماما عن الإنسان الذى كـــان فـــى داخله، ولست أدرى لماذا ألح على ذهنى تساؤل ضحكت منه

هل هؤلاء الضباط لهم أسر ..أب وأم وأخوة ......ومـــن أى مستوى إجتماعى يمكن أن نستقدم تلك الفئة لتقوم بدورها المفترض؟!

ولست أدرى لماذا تذكرت أحد ضباط الشرطة..ممـــن يرفـض تواجده بينهم الشرفاء منهم. كنت أعرفه معرفة وثيقـــة ..وكـــانت أمـــه الأرملة تمشى على هواها، وأرادت التوبة بالزواج من رجل تقدم لهـــا، ولما علم برغبتها أوسعها ضربا وهو يقول لها : (إعملى اللى إنت عيزاه من غير جواز). وبعد أسبوعين أتى بأحد جنود الأمن المركزى، مستغلا سلطته ليمضى فترة تجنيده فى شقتها، ليقوم على راحتها، ويحـــل كـــل

مشاكليا، وكان هذا فى رأيه هو الحل، ومازال هذا الشاب الهمام يـترقى فى المناصب حتى الآن !!

اصطحبنى الضابط إلى السيارة الميرى، وهو يخبرنى أن القانون لا يسمح لى بركوب سيارتى فى مثل تلك الأحوال .

كان معى بالسيارة الضباط الثلاثة والدكتورة/ سعاد، وذهبنا إلـى بنها حيث وحدة مكافحة المخدرات، وهناك حرز الضابط الأدويـة فـى كرتونتين، وكذلك حرز البانجو، وكتب على كل كرتونة محتوياتها مـن الأدوية ، وكذلك كيس البلاستك الحاوى للبانجو.. وكان الوزن١,٦جـرام .. كان وزن الكيس نحو جرام، ووزن المخدر نحو ٠,٦جرام، وخرجت مع أحد الجنود لنستأجر سيارة صغيرة تحملنا ومعنا الأحراز إلـى قسم شرطة طوخ .

وهناك كان العقيد صلاح شعبان نائب المأمور وشقيق اللـواء / محمد شعبان مساعد مدير أمن الأقصر، وكلاهما حرام أن يكونا ضمـن العاملين بوزارة بالداخلية.. ربما كان يليق بهما أحد المنـاصب بـوزارة الخارجية، ليعملا بالسلك الدبلوماسى، ليشرفا صورة مصر بالخـارج ، ويرجع الفضل فى الأخلاقيات التى تحليا بها، إلى تلك الأسرة التى تربيا فيها، فقد كان أبوهما صالحا ،وورثا عنه الكثير من الصلاح.

مكث العقيد صلاح كل الوقت معى، حتى بعد منتصف الليل، وفى مكتبه، قدم عدة أصناف من الفاكية، وترك لى التليفون الخاص به لأتصل بأخى عبد الله، وكانت الساعة نحو الثامنة مساء، ولم يكن قد عاد بعد من عمله بمقر الرياسة بالقاهرة، وقام العقيد/ صلاح بالاتصال بوكيل النيابة وهو يقسم له ببراءتى، وأذكر تعبيره بالحرف..

والله يا باشا إتوضبت له ..ولاد الكلب منشنين على السوادة .. وعشان خاطرى يا باشا الدكتور محمد ده أخ شقيق ..

وذهبت إلى النيابة المسائية التى ردتنا لأن الكتابة التى توضح محتويات أحد الإحراز، لم توقع من الضابط الذى كتبها .. وعدنا إلى قسم الشرطة، وتم استدعاء العقيد/ محمد من بنها ليوقع على البطاقات التى حررها ولصقها على الأحراز .. وعاد أخى من القاهرة، وجاء إلى مركز طوخ ليطلع على المحاضر فى مكتب العقيد صلاح، ثم نحاها جانبا وهو يتمتم :

: ولاد العاهرة!!

وابتسمت وأنا أسمع تعبيرا يتطابق مع ما يدور فى ذهنى فى تلك اللحظة، وأمتدت يدى إلى علبة سجائره لأشعل أول سيجارة. لأخرق بهذا فترة الهدنة مع السجائر، والتى كنت قد بدأتها منذ ثلاثة أشهر مضت..

فكثيرا وبلا مقدمات أمسك بعلبة سجائرى التى تكفينى يومــان أو ثلاثـــة لأغلقها بشريط لاصق، أكتب عليه تاريخ الأقلاع وتاريخ العودة، لأريـــح صدرى شيئًا أو ثلاثة.. قرار فى بساطة رفع سماعة التليفون، أنفـــذه وكأنى لم أشرب سيجارة فى حياتى ... بلا أعراض حرمان ولا ضعــف تركيز ولا صداع، وكنت أعلق على هذا بأننى لا أكره الســيجارة مثــل المدخنين الذين يلعنوها ويتمنون لو أقلعوا عنها، لأنى أقوى منها.. أتركها فى أى لحظة.. وعبوديتى لن تكون فى أى وقت إلا لله.. والإدمان لـــن أعرفه إلا فى علاقتى بالسماء التى أدمنت حبها .. السماء التى أعطتنـــى كل مفاتيح الحب والكراهية، وأعطتنى سلطانا على عدو الشر، فيئس من ربط مشاعرى بأى شئ، وامتدت رحمة الله لتشملنى وتوقعنى فى حـــب ذاته العليا .. الله الذى أحسة مستحقا وحيداً لكل الحب !!

وفى اليوم التالى عرضت على النيابة ، وكان يرأســـها المدعـــو "ناجى الحلوجى" شاب صغير يتسم بعجرفة ضباط المبـــاحث، وإن كـــان يتفوق عليهم فى الغرور .. حضر التحقيق معى . د حسين أبو الخير .. نقيب الصيادلة بالقليوبية. وكان العقيد/ صلاح قد أتصل به متطوعا وأنا فى مكتبة، ليحضر معى التحقيق، ولم يتأخر الرجل فى القيام بمقتضيات واجبه .

وانتهى التحقيق بخروجي بكفالة خمسمائة جنيها، والإفراج عنى من مركز شرطة طوخ ما لم أكن مطلوبا على ذمه قضية أخرى ..

أى قضية أخرى يا سيادة وكيل النيابة!!

أين حواسك الخمسة لتدرك ما أنت بصدده !!

وبدأت رحلة عذاب أخرى لقسم الشرطة، وإجراءات إفراج طويلة من مباحث طوخ، لم انته منها إلا فى الثامنة مساء. كان قد مضى علىّ أكثر من ثلاثين ساعة، بين تفتيش الصيدلية، وحتى الإفراج دون أن أنام دقيقة واحدة .

ذهبت إلى الصيدلية.. نظرت إليها بيأس وحزن ..وأمضيت نحو ساعة لأستقبل الذين جاءوا ليهنئونى على سلامتى، وليستفسروا عما حدث غير مصدقين .

عدت إلى بيتى لأنام وسط أولادى. كانوا لا يفهمون شيئا مما حدث. لم يكن مستيقظا غير ابنى عبد الإله، الذى لف يديه الغضتين حول رقبتى ونام،وقامت زوجتى تعد عشاء يعوضنى عما كان .. كانت تبدو ذاهلة غير فاهمة لشئ .....ونَظَرْت إلىّ وأنا أبذل جهداً كى أفتح فمى وأمضغ الطعام وهى تقول ·

: مين وراء اللى حصل ده؟!

وأدهشني سؤالها ..أنا أعلم أنها لم تقرأ كتابا واحداً خارج مقررات كلية الزراعة التي أنهت دراستها منذ نحو سبع سنين .. ولم تهتم بالسياسة يوما في حياتها ...لا هي ولا أى فرد من أفراد عائلة "السبربرى" التي تنتمي إليها ...

إنهم أسرة ريفية من "أجهور الكبرى "أسرة كبيرة العدد إلى حد مذهل، وهم معمرون.. يقتربون من المائة عام في أحوال كثيرة.. حتى جدها الذى بلغ التسعين من عمره مازال قادرا على الذهاب إلى أرضه ليرعاها " وابنه الأخير الذى احتل ترتيب العاشر من زوجه الثانية، لا يزال صبيا صغيرا ، ووسط كل هؤلاء لا تجد مهتما بغير الدين وفقه السنة وحفظ القرآن، ورغم هذا سألتني زوجتي أخيراً :

من وراء ما حدث ؟!!

وكأنها تدرك بالفطرة أن مثل تلك الأشياء، لا تأتي من فراغ، وأن وراءها رأس مدبر ..

لا فائدة ... سوف يعمل هذا العقل الذى كنت أتمنى ألا يفكر في غير حدود المطبخ ومادة الأحياء التي تدرسها لطلبة المدرسة الثانوية الزراعية. ورددت عليها ..

:بكرة وقفة العيد.. ابقى فكريني بطلبات البيت كلها بكرة الصبح .

وردت

: متحملش هم.. أخواتك بعتوا اللحمة وبعتوا لبس جديد للعيل ، مع إنى قلت لهم أنك اشتريت لبس للأولاد .. نام إنت واستريح ومتحملش هم حاجة.

وقامت زوجتى تجهز ما يتطلبه المنزل فى مناسبة العيد التى يتجمع فيها الأهل ......ورحت أنا وسط أولادى فى سبات عميق .

وفى صباح اليوم التالى أيقظنى أخى عبد الله ، لنذهب معا إلى الصيدلية... نعيد ترتيبها سويا. قام أخى بمعظم العمل..حتى أعمال النظافة أجراها بيده، وكأننا نقول للأشرار باللفظ الشائع.. "كله تمام" !!

وفى مساء ليلة العيد،نحو الساعة العاشرة، أتى لزيارتى من القاهرة، صديقى الصغير "عادل".. طالب الحقوق السابق والذى لم يعد صغيراً الآن وأكاد لا أراه إلا فى المناسبات. لم يطق أن يبقى طويلا بالصيدلية. اقترح علىّ أن نغلقها. ولم تمض دقائق حتى كنا نقطع الطريق الذى تحاورنا فيه يوما بعد ظهور نتيجة الإمتحانات.. وأنا أدرس بجامعة الزقازيق فى السنة السابقة للبكالوريوس ، يوم اتخذت قرارى بتقديم نفسى للخدمة العسكرية لأنهيها قبل إتمام دراستى الجامعية، وكنا عام (١٩٧٨م) وقتذاك ، حين دار بيننا ذلك الحوار الطويل، الذى أوردته

فى الجزء الأول من مذكراتى، والذى أحتل مساحة فصل كـــامل تحـت عنوان "بعيدا عن الإسكندرية ".

ما أسرع ما تمر الأيام كان ذاك اليوم منذ نحو تسعة عشر عامــا مضت.. هذا هو عادل الآن.. عادل الذى أنهى دراسة الحقـــوق ليعمـل محاميا بالقاهرة، جاء ليحاورنى من جديد ، وفوق الكوبرى الذى أطلـــق عليه "كوبرى الذكريات " بشارع الشهيد /أحمد عبـــد العزيـــز، أوقفـت سيارتى وبدءنا الحوار ....

: حمد الله على السلامة يا عادل .

:الله يسلمك يا دكتور محمد ....

رنا عادل إلىّ بنظرة مليئة بالشجن وهو يقول:

:قول علىّ ذى ما إنت عايز ....قليل الأصل.. ماشى ..ما بيطمرش فىّ ماشى ....المهم إنى مستحقش لا..أكون صديقك، ولاحتى تلميذك !!

حاولت أن أقاطعه ......فأتى بحركته المعهودة وهو يرفـــع يـــده اليسرى وأصابعه تتشنج فى الهواء :

:سيبنى أكمل يا دكتور ......أنا عرفت من إخوتى قبل ما أجى لـــكَ كل التفاصيل.

وبدأنا نسترجع سويا أحداث الأسبوع الذى مضى..وبـــدا عـــادل

مستغرقا فيها، وهو يحاول الربط بين الأحداث، وابتسم بمرارة وهو يقول

: فيه إيد ورا كل اللى حصل!!

أولا :- تعدى العاهرة "ر.أ.و" على الصيدلية كان مقصود، واللى دبرها هو اللى دبر حكاية مكتب المخدرات !!

: إزاى؟!!

:حصيلة اللى جرى إنك مستهدف ...والموقفين قريبين من بعض أوى ، فالفاعل واحد فى الحالتين، وفى اللى هيحصل بعد كدة لو سيادته تصور إنك لقمة طرية، هياكلها ويهضمها من غير ما تقف فى زوره .

: سيادته دى معناها إنك وصلت له ؟!

لم يجاوب، وأخرج من حقيبته الصغيرة ثلاثة جرائد..الأخبار، والأهرام ، والوفد ..دفعهم إلىّ وهو يقول

: أنا عارف إنك ما بتقراش الجرايد.. تانى يوم القبض عليك كل الجرائد وعلى أربعة أعمدة تقول "القبض على صيدلى يتاجر بالمواد المخدرة فى مدينة طوخ.." الجرائد الرسمية وجرائد المعارضة،وعشان كل الجرايد تنشر الخبر فى نفس اليوم، لازم يكون سقوط وزارة ، إغتيال وزير.. ببساطة اللى سرب الخبر شخص مهم ، وعايز يوصله لكل الناس .. والله أعلم الخبر ده كان متجهز قبلها بيوم!!

وابتسمت ساخراً مندهشا وأنا أقول:

:يعنى الكل كان قاعد منتنى، وأنا بس اللى فى الطراوة !!

:ممكن تقول لى يا دكتور محمد آيه اللى ترتب على موضوع العاهرة التى افتعلت المشكلة بالصيدلية؟

:أبداً .. البلد كلها عرفت.. ذى ما يكون فيه اللى من صالحه يوصل لكل بيت المعلومة دى بعد ما يحط عليها من خياله ما يشفى غليله!

: أنا عرفت اللى قالوه المتخصصين فى نشر الإشاعات وتوظيفها ..عشان أعرف مردودها المنتظر على الصيدلية، ويا ريتك تحكى لى إنت عن توابع الموقف.

:ببساطة الآنسة / عبير أبوها أجبرها على ترك الصيدلية ،وكمان لاحظت إن مبيعات الصيدلية انخفضت للنص !!

:ده شئ منتظر.. والصيدلى رأس ماله سمعته وشرفه ومحافظته على أسرار المترددين على الصيدلية .. على الأقل إنت هتخسر الأسر المحترمة اللى بتخاف من كلام الناس، واللى أكيد كانوا بيمثلوا معظم المترددين على الصيدلية، من السيدات والآنسات على وجه الخصوص ، والأهم من ده كله إنك خسرت الموظف الوحيد بالصيدلية .

: كلامك مطابق للحقيقة ذى ما تكون عايشها بنفسك..

:وبعد كده جالك "حسام" الموظف الجديد عن طريق أخوه "محمــود" وذى ما أنت فهمتنى فى الطريق أن محمود ده كان بيشتغل ولمدة ثلاثة سنوات فى "صيدلية" مصر المملوكة لزوج شقيقة الدكتور "محمد الفيومى"

: ده صحيح محمود كان بيشتغل في صيدلية مصر.. وشقيقه حسام تركني فجأة وبعد أسبوع من عمله بصيدليتى فى اليوم السابق لهجوم مكتب مكافحــة المخدرات، متعللا بتعيينه فى هيئة النقل العام.

:تفتكر فيه شاب حاصل على دبلوم الصنايع من شهور، وقدامــه خدمــة عسكرية، ممكن تعيينه فى الظروف دى من غير واسطة كبيرة.

: تقصد آيه؟!

: أظن إن الموظف ده دُفع فى طريقك، ربما دون علمه، وأغروه بـترك الصيدلية بعد أسبوع بالتلويح له بالوظيفة التى تنتظره بالنقل العام .

:ليه ده كله؟!

:أولاً عشان اللى بعته يضمن إنه ما يشتغلش فى الصيدلية واحــد غــيره بالصدفة.

: ليه؟

: لأنه المطلوب فى الموظف الجديد إنه يكون تحت الســيطرة، وغالبــا بدون علمه،عشان يقدروا يبعدوه قبل كبسة مكتب المخدرات.

: ليه !

:عشان يضمن أنك هتكون متواجد بنفسك فى الصيدلية، طالمـــا مفيـش موظفين معاك.

: ليه ؟!

:ببساطه عشان تلبس القضية، وعشان ما يواجهش مشـكلة فـى تحديـد ساعة الصفر لمهاجمة الصيدلية.

:وبعدين في شغل المحامين ده!!

:كل الترتيب ده عشان اللى حصل يوم مداهمة مكتب المخدرات للصيدلية وطبعا اللى وراء ده كان عارف بدقة حاجتين .

:آيه همه ؟!

: أولاً إنه مفيش أى دواء مخالف بالصيدلية، ومش عشان الـدواء كـان دخول مكتب المخدرات الصيدلية .

:تفتكر عشان أيه؟

: عشان البانجو

: إذاى؟!:

صعب إنى أحرك مكتب المكافحة بالمحافظة عشان يدور على "فيجاسكين مركب" لبوس الأطفال.. وده تابع للجدول ذى مـافهمت منـك. وعلـى

أشربة الكحة أو أقراص مهدئة.. لأن كل الأدوية دى مصرح ببيعها فى الأحوال المصرح فيها قانونا بالبيع.. الصيدلية يا دكتور محمد هى المكان المختص ببيع الأدوية المؤثرة على الحالة النفسية بموجب القانون وفى إطار قانونى .

: مش فاهم؟!

: يعنى بموجب روجته،وبالسعر المحدد على غلاف علبة الدواء .

:أنا عمرى ما خالفت التسعيرة •

:هو عارف كدة،.. وإلا كان بعث لك مرشد من عنده يشترى دواء بسعر مخالف،وكان هيسجلك المحادثة ويقدر يرقم الفلوس .. وحاجات كتير ممكن تثبت عليك البيع المخالف ..

هو عارف إنك مش هتخالف اللوايح.. هو كان يقصد بالتحديد فريزر الثلاجة والبانجو اللى فيه ؟!

: وهم عرفوا منين ؟!:

ذى ما عرفوا إنك ما بتخالفشى التعليمات فى بيع الأدوية المؤثرة على الحالة النفسية .

:طيب وليه أخذوا أدوية كتير خارج الجدول ؟!

: عشان الجرايد تلاقى المادة اللى هتحكى عنها وتهول الموضوع وتجيئ

الرأى العام.

: مين اللى ممكن يعمل كده؟!

وابتسم وهو يهز رأسه قائلا

: ببساطة أنت تعرف المدعو "محمد الأبيض" ؟:

: لأ ..

مين اللى واعده بالصيدلية؟!

:الحاج "محمود صيام".. وأنا أضعه فى منزلة الأخ الأكبر.. الراجل موظف كبير بشركة "عثمان أحمد عثمان".. وهو المسئول عن حسابات التأمين الصحى بالصيدلية .

: جميل .. أنا لا أشك فى الرجل حتى الآن ..يا ترى مين اللى زارك فى الصيدلية وطلب منك تشترى خروف وتعمل واجب مع أعضاء المجلس المحلى الجدد .

: ناس من ذوى الحيثية وبعض كبار المشجعين فى الإنتخابات .

: ومن اللى اقترح عليك رغم علمه بأنك لا تدخن- الاهتمام بتلبية رغبات الضيوف من مكملات الحفلة؟

:تقريباً كلهم .

مين االى كان عارف مكان البانجو ؟

الكلام دة حصل قدام الموظف الجديد .....واللى باع البانجو يعرف إنــه بالصيدلية.... والحاج محمود صيام عارف.وجماعة الخير شارت علــى بوضعه بالثلاجة بالفريزر وتندبته بالماء حتى لا يفسد.

: ده بالتحديد اللي كان بيدور عليه العقيد/ محمد

:تقصد.. هم اللى بعتوا محمد الأبيض؟!

: لأ.. اللى بعت محمد الأبيض ،هو اللى بعت مكتب المخدرات،و هو اللى وصل المعلومة للجرايد .، وهو اللى جهز قبل كدة حكاية العاهرة "إياها"، وهو اللى بعت لك الموظف الجديد، وهو اللى أبعده عن الصيدلية.

: أنت بتفكرنى "بحسين رياض" فى فيلم "أمير الانتقام"..لما كشف قــدام "أنور وجدى"، اعداءه اللى رموه فى السجن .

:فى حالتنا دى .. الفرق واضح .

أيه هو.. ؟!

:فى الفيلم حسين رياض ندم على إنه وضح الحقيقة قدام "أنور وجدى"لما شاف فى عينيه الرغبة فى الإنتقام ....وأنا مش نادم لأن عينيك عمرهــا ماهتنطق بالرغبة فى أخذ الثأر.. كل المطلوب إنك تخلى بالك من كــل تصرف تعمله، لأنه فيه اللى عينه عليك، والقضية اللى طبخوها لك كان المطلوب منها توجيه تهمة تعاطى المخدرات لسيادتك!

:بس أنا ما بدخنش!

: متزعلش أوى كده .. يبقى المقصود توجيه تهمة الإتجار فى المخدرات وبدل سنة سجن وعشرة آلاف جنيه غرامـــة، تبقـــى عشـــر ســنين وغرامة خمسين ألف .

:مين اللى عمل التخطيط الجهنمى ده.. مين اللى فى إيده كل الخيوط دى عشان يلعب بها ذى ما هو عايز؟!

:إنت مش عارف لسه!!

:مش هخبى عليك يا عادل .. أنا وصلتنى تليفونات فيها إتهامات لنـــاس أعتقد فيهم البراءة مما حدث لى.. آخر تليفون منهم كان فى نص الليـــل من سيدة طلبت زوجتى لتقول لها، أن العقيد / "محمد فايز "وراء اللـــى حصل.........وأنا أقسم بأغلظ الإيمان أن جميعهم برئ خصوصا "محمد فايز".

:" محمد فايز" ... دفعتك وصديق الطفولة ..هو فين د الوقت ؟

:فايز خرج عقيد من الجيش وفتح صيدلية باسم "نور الإسلام" هنـــا فـــى طوخ.

:لا.....لا ...... دى كلها محاولات للف الدماغ.. "فايز" ما يقدرش يعمل ده كله ...اللى حصل ده شغل تنظيمات يا دكتور محمد . .

: تقصد آيه؟!

: أقصد واحد يكون واصل ..ومعاه رجاله يقدر يحركيا ..ولـــه سـلطة توجيه أجهزة معنية فى الدولة.

ذى مين .....!!،:

: "محمد الفيومى" !!

بتقول آيه يا عادل !!

: متأخذنيش يا دكتور"محمد".. أنا عارف إن محمد زميلك ودفعتك مـــن إعدادى.. وفيه بينكم صلات نسب والشيخ "محمد البكرى" اللـــه يرحمـــه ...هوا اللى حط أبوه على أول السلم لما ساعده سنــة(٦٢م)عشان ينجح فى أول دورة له بمجلس الشعب ..أنا فاكر التاريخ ومش ناسى..وعارف أن الحاج "عطية الفيومى" بذكائه النطرى قدر ينقل نفسه من بياع دخـــان بسيط من شعبنا الصابر إلى عضو فى مجلس الشعب، ووالدك رحمه الله كان له الكلمة اللى فصلت فى صراعة مع منافسة "أحمد زكــى" أيامهـــا بأصوات "بلتان" ،وزاوية "بلتان" وعزبة"الصفـــا" "والعبادلـــة" "والعمـــار" "وإمياى"...أنا ابن طوخ يا دكتور محمد ومذاكر التاريخ كويس.. لكن كل ده لا يساوى جناح بعوضة عند "محمد الفيومى"

: اللى بتقوله ده ممكن ؟!

: "محمد الفيومى" .... أمين عام الحزب عن محافظة القليوبية، ورئيس المجلس الشعبى المحلى ،والوريث الشرعى لما حققه أبوه فى مجال السياسة..هو الوحيد اللى ممكن يعمل ده!!

. وبصوت ينضح بما أصابنى من حزن.. قلتها مندهشاً أكاد استنكر ما أسمع..

: وليه ده كله؟!

:أنا هجاوبك بسئوال بسيط؟

:اتفضل..

: "محمد الفيومى " له أصدقاء من دفعته ؟!

: كل الدنيا تعرف إنه ملوش أصدقاء من أساسه.... اعتقد أنه مش محتاج لأصدقاء من دفعتنا اللى بنسميها آخر الرجال المحترمين .ولا من غيرها ..ممكن يكون محتاج لماسحى الجوخ والأحذية.

: عشان كده كان لازم يخلص منك !!

: لكن أنا محسوب عليه الآن ....الراجل استعان بى كعضو مجلس محلى مدينة طوخ لأعْبر مع الحزب إلى الألفية الثالثة.

: ودى قمة الذكاء في محمد ...لما بيحب يقتل واحد بيقربه منـــه قـــوى

تاريخه كله بيقول كده !!

: لكنى ساعدت والدة من كل قلبى فى الانتخابات !!

:بس هو منسيش.. إنك وقفت ضد أبوه فى اللى قلبها..ودوُن عالـ نـــابهم أزرق!!

:يعنى.. !!

يعنى الله يكفيك شرهم. ويبعدهم عن طريقك...ويشغلهم فى نفسهم .

:أنا عايز أعزمك ع-العشاء.

:وأنا عايز أشوف أمى ...وصلنى فى سكتك،وهنتقابل بكره الصبح، وإذا حبيت تتأكد من اللى سمعته منى ،ابقى إسأل "سعيد الفرماوى"..دفعتكــــم واللى بيشتغل فى الصحافة من عشرين سنة فى الخليج وفى مصر وفـــى لندن.

:"سعيد الفرماوى" غنى عن التعريف ...يمكن أنا مشفتوش مــــن ســنين ،بس أنا عارف أنه من أشهر رسامى الكاريكاتير النهاردة..ده غير الرسم التقليدى والسريالى.. وشويه حاجات كتير..

: إسأله لما قابل من كام سنة الحاج عطية فى السعودية فى موسم الحــــج

"صدفة بحتة" .. هيقولك إن أول سؤال سأله له الحج عطية كـــان عــن الكاريكاتير اللى رسمه الفرماوى أثناء انتخابات مجلــس الشــعب اللــى دارت قبل نكسة ٦٧ مباشرة أيامها اعتقد الحاج عطية إنه كان المقصود بالكاريكاتير، واستمر يذكرها نحو عشرين سنة، لحد ما قابل الفرمـــاوى فى المدينة المنورة وكلمه فيها يعاتبه على أنه سخر منه فى يوم من الأيام ...والفرماوى مكنش يقصد بالمرة ما دار بذهن الحاج عطية .

ما أن انتهيت من إيصال عادل حتى بدأت الأمور تتضح أكثر .. ربما كان عادل يحدثنى عما كان غير مترابط بداخلى.. ولا مرتب فـــى ذهنى،ليبرز الحروف ويضئ الكلمات، لتنطق بكل المعانى واضحة جلية ....ربما كان لنا أسلوب متشابه فى التفكير ،إلا أنه بحكم مهنتـــه أكـثر تحديداً للمسائل ..لقد كانت دراستى بالقسم العلمى ورغم هــذا فتفكـيرى تغلب عليه العاطفة، أما هو .. دارس الأدب والحقوق.. فيحسب كل شئ بالأرقام ..إنه يتحدث عن مقدمات وشواهد واستنتاجات وأدلة لا تصـــدر إلا عن عقل رياضى.

ونسيت مشكلتى الخاصة وأنا أحاول فهم ما وصل إليه عادل فـــى العشر سنوات الأخيرة.. عادل الذى كنت أخاف أن أتحـــدث معـــه فـــى

حوارنا التاريخى سنة١٩٧٨ م والذى سجلته بالجزء الأول من مـذكراتـى

فى فصل كامل ، كنت أخاف التحدث معه بأمور السياسة، حتى لا تشغله

عن دراسته أو أخيفه من الحياة حالكة السواد، والتى كانت تعيشها مصر

، وأصابع الشيوعيين تمتد حول رقبتها .. تخنقها ...تكاد تزهق روحها!!

كان عادل يعتبرنى معلما ومرشداً له...

والآن يحاورنى واستمع إليه مندهشا من ذكائه، وقدرته على الاسـتنباط

شعرت بسعادة بالغة، وتمنيت لو كان لى ابنا بهذه الملكات!!

بدأت أشعر بـأننى لا أحـب أولادى فقـط، ولكـن أحـترمهم

أيضاً..عشرة سنين فقط فى عمر الحياة، يمكن أن تجعـل منهـم أشـياء

أخرى جميلة وراقية..

وقد يكون لأحدهم.. مثل ما لعادل الآن .

وامتزج احترامى رويدا رويداً ببعـض الخـوف،فقـد تدفعنـى

الظروف إلى التقصير فى تنمية ملكاتهم ..إن الصغار يكبرون بسـرعة،

ولن أسامح نفسى لو لم يخرج من بينهم رجال يستطيعون صنع الأشياء الجميلة

فى الحياة، ويكون فى إمكانهم تغيير الدنيا من حولهم..وبناء عقول الآخرين!

وبدأت أجتر كلمات "عادل" الذى ظهر بإمكانيات مختلفة، وقـت

داهمتنى الأزمات، وأحاطتنى المؤامرات الى كنت أتخبط فى تفسيرها،ولا أستطيع الإمساك بحزم بالخيوط ، التى تمكننى من نسج الحقيقة !!

أننى أواجه بحرب إقتصادية.. فيا هو مصـــدر دخلـــى الوحيـــد، يصاب بضربتين فى الصميم.. وتداعيات ما كان سوف تظهر مع الأيام!!

وها أنا أواجه بمؤامرة كان المفروض أن تصل بى إلى السجن.. كتاجر أو على الأقل كمتعاطى للمخدرات!!

وها هو وضعى الأدبى فى مجتمعى تـــترصده الغيـــوم لتوضـــع علامات الاستفهام من حولة .. وتذكرت أنه من يومان فقط، التحم ابنـــى الذى لم يتجاوز الثامنة من عمره فى معركة شرسة مع أحد الأطفـــال.. من أولاد الجزارين المجاورين للصيدلية، حين قال له... ربما ببراءة..

"هو إنت أبوك بيتاجر فى المخدرات"

مؤكدأن هذا الطفل لم يكن يعنى كل مدلولات هذه الكلمات ولكنه سمع من أهله !!

كانت دهاليز عقلي تكتظ بأفكار ، كلها تنويعات على وتيره واحدة .. وسألت نفسى ببساطة..

هل وصلت بى الأمور إلى تلك الدرجة؟!!

كانت هناك مأساة حقيقية فيما حدث... وما يمكن أن يحدث فيما بعد.. فكما يقولون في مجال الخير أن بداية الغيث قطرة . فحتما في مجال الشر سوف تشتعل كل حقول القمح، حين يبدأ الحريق بأحد الحقول، خصوصاً لو كانت هناك رياح غبية وعاتية، تحمل الشر إلى كل مكان ، والذى دبر لما سبق – إن سلمنا "بنظرية المؤامرة –لن يهدأ وقد رأى سهمه الأول لا يصيبنى فى مقتل ..

على العكس .. ربما اعتقد أننى "أسد جريح" ،وأننى سأكون خطيراً لو تمكنت من معرفة الجانى !!

ماذا سأفعل الأن ؟! سؤال كان يبدو واضحاً ولا يصلح له أى بديل !!

****

كان أخى عبد الله يفكر جديا فى ترك الخدمة بالقضاء العسكرى ليفتح مكتبا للمحاماه، وهو يرى زملاءه من القضاه يحققون فى عام واحد دخلا يساوى كل ما حصلوا عليه من الخدمة بالجيش خلال ربع قرن متصل . كانت أمى لا تشجعه على ترك الخدمة .. وهى تشعر بالسعادة كلما رأته بهذا "الزى" المحلى بالنياشين الكثيرة فوق صدرة ..وتتذره إن فكر جدياً فيما يقول .

وكان أخى يضحك وهو يقول لنا .. أن أولاده الأربعة يحتاجون لخمسة أضعاف راتبه، وأنه شبع من المناصب والألقاب ..وليس أمامه غير المحاماه التى يعشقها ، والتى ستحقق له الدخل الذى يكفيه.

وكانت ترتيبات القدر عجيبة حين تحقق لأخى ما يريد خلال شهران أو ثلاثة من تلك الواقعة: وخلال شهر واحد افتتح مكتبه بمدينة طوخ.. وصدق حدثه حين حقق المكتب فى الشهر الأول من أفتتاحه دخلا من بضع قضايا ، يساوى راتبه خلال السنوات الخمس الأخيرة من عمله كرئيس للمحكمة العسكرية .

ولكن كان عليه أن يقبل قضيتين مجانا..

الأولى: التى وصفتها النيابة بأنها **"جناية تعاطى مخدرات"**

والثانية : كانت بعد شهر واحد من الأولى وقبل افتتاح المكتب أيضاً ، وكان القصد منها أن توصف بأنها **"شروع فى قتل"**.

يا الله ....!!

إن الرأس الذى دبر للجناية الأولى خشى ألا تكون ضربته قاضية فآثر أن يلحق بها الثانية، والتى كانت أعجب من سابقتها، وحققها نفس وكيل النيابة.. "ناجى الحلوجى" سامحه الله على موت قلبه وإحساسه وكِبر

نفسه، وكان الأولى بها أن تسحق أمام الله خجلا حين رفعة على كرسى القضاء، ومكنه من أعناق من تخوقوا عليه حبا للإنسانية والبشر.. وإدراكا لمقتضيات الإنصاف..وإحساسا بحق الحياة والكرامة لكل البشر!!

****

بدأت خيوط تلك القضية الثانية بعد هجمه رجال مكافحة المخدرات على صيدليتى ولقائى بعادل وكنت قد توصلت إلى قناعة شخصية بأن إعلانى عن رغبتى فى اخراج كتاباتى للنور كانت الدافع الأساسى لذلك العقل الذى قرر مهاجمتى.

ومرة أخرى لف كيانى إحساسى بأن الله يعلم بمدى حاجتى إليه ، وأنه لن يتركنى ، رغم عدم استحقاقى .. بدأت عينى تلمس تلك الهالات النورانية لهذه الذات العليا التى امتدت زراعها القوية لتتلقى عنى الضربات ،ولا تسمح إلا بالألم الذى يذكرنى بوجوب التصدى للشر الذى مازال يملأ الدنيا !!

إن الله يطوق عنقى بالكثير!!

إن لى دورا فى تلك الحياة.. والله لم يبقنى حيا للآن ،إلا لأنه يدخرنى لشئ من أجل اسمه ، ومن أجل مشيئته فوق تلك الأرض !!

لقد تجاوزت طفولة الإيمان .. تلك التى عشتها محاربا سلبيا فى صفوف الخير وأنا بالجامعة ، وحان الوقت لأكون ذلك المحارب الإيجابى ..الذى ينتصر للحق !!

لقد أعطانى الله قدرة على التحدث بالقلم.. .

فلماذا لا أنصر من نصرنى!!

لماذا لا أحدث الدنيا عن فضل الله .. ليعلموا ما الإيمان .. وماذا يفعل بالقلوب والنفوس !!

الإيمان الذى لولاه فى حياتى لاحترقت كقشة فى قلب إعصار!!

والله .. خالق البشر.. لا يريد لهم أن يحترقوا .فلماذا لا أنفذ إرادته فى خلقه، وأحدثهم عن أسرار الإيمان، ليخرجوا من النيران كما خرج "إبراهيم" عليه السلام وكانت النار برداً وسلاماً عليه !!

أنا مدين بحياتى لله الذى منحنى السلام وقوة الاحتمال !!

لله الأمر كله.. سوف أخرج ما كتبته للدنيا وهو لن يتعدى هذا المفهوم ، لعلى أرد للسماء بعضا من جميلها !!

****

وأخرجت كل ماكتبت من كراتين متناثرة هنا وهناك .. ووضعت

الكل فى كرتونة واحدة وبدأت أرتب للأعمال التى تكشف المستور فى عالم الشر.

نعم ... سأعرى الشر ،ليصير مفضوحا وضعيفاً. علمونا بالجامعة أن البكتريا تتحوصل لتحمى نفسها، ولولا تلك الدروع التى تلفها، لانتهى عالم الجراثيم وظهر حديثا فيروس " الإيدز" الذى طور أساليب التخفى والتصق بالأجسام المضادة نفسها وهو يحيط نفسه بمادة الجسم ليدمرها دون أن تراه ويدمر معها جسم الإنسان كله .

وهذا بالتحديد هو ما يفعله الشر ليدمرنا من داخلنا ونحن لا نراه!! اللعنة على الشر ...وذكاء الشر ..

وقررت أن أنزل بأصول رواية **"جسر الموت الكئيب"**إلى الإسكندرية لأراجعها هناك ...

جهزت سيارتى وحقيبة سفرى وأوراقى، وودعت زوجى وأولادى وأوصيت الموظف الجديد بالصيدلية ، وكالمعتاد مررت على أمى لأسألها الدعاء لى .. كانت حالتها الصحية غير مطمئنة فأرجأت سفرى واستدعيت الطبيب، وأمضت ذلك اليوم وتلك الليلة معها .. وحمدت الله وأنا أراها تتحسن وقد قامت لتعد لى الإفطار ، وقررت

استكمال ما عقدت العزم عليه من أمر سفرى إلى الإسكندرية.

قبلت يد أمى وهى تدعو لى وقبل أن أتجه لباب الشـــقه، كـان هناك من يطرقة .. اثنان من عمال مجلس المدينة .. من محصلى رسوم النظافة . طلبا مبلغ خمسة جنييات، ورغم بساطة المبلغ إلا أن المطالبـة تكون عادة لصاحب العمارة لا الساكن، وحاولت أن أفهمها هذا ،ولكن بدا لى أن كلماتى لم تلق قبولا لدى أصغرهما سنا، الذى بادر يقول لى أنه سيتم عمل الإجراءات للحجز على الشقة، وأن الحكومة لا يضيع حقهـا ....وضحكت وأنا أقول له:

:وأنا كمان حقى ما بيضعش ....بس أنا مش باخده بقوة القانون ....أنـا باخده بقوة السلاح..ومداعبا طرقت بيدى على جراب معلـق بحزامـى.

كانت عادتى أن اصطحب معى مسدسى فى ســـفرياتى البعيـدة والتى تضطرنى أحيانا للقيادة ليلا ، على طرق غير مأمونة.. ونزلـت السلم لأستقل سيارتى قاصداً الإسكندرية.. وهناك انهيت عملى فى أيام، وعدت إلى طوخ..لأجد الدنيا مقلوبة ،وقسم الشرطة يطلبنـــى، والنيابـة على وشك إصدار أمر ضبط وإحضار!!

وسألت العقيد /صلاح شعبان عن الموضوع بالتليفون فرجانى أن

أحضر للقسم فوراً لأن رئيس النيابة يتصل به يومياً، لاستكمال المحضر وإحالة الأوراق له، وحدثني بأن هناك موظفا بمجلس المدينة، يدعى أنني هددته بالقتل حين طالبني بسداد خمسة جنيهات رسوم النظافة .

وأُسقط في يدى !!

قتل !!

تهديد بالقتل !!

وأخبرني العقيد / صلاح أنني أحتاج إلى محـــامى ، لأن الأمــر خطير، وأنني قد أواجه جناية !!

وقررت أن أتعامل مع الأمر وحدى ودون محامى كما قررت أن أتعامل مع الحقارة بأسلوبها .. .

يقولون أن "الصِدق يُنجى صاحبه"....

وأنا أعتقد في صِدّق تلك العبارة.. ولكن لكل معركة سلاحها......

وأنا في معركة الكذب والإدعاء وتلفيق التهم....

ولست أعرف لماذا لم يخطر على بالى، بأن وراء هذا الموقف من يذكى ناره ويحرك الأحداث من خلف الستار !!

وجدت نفسى مجبرا على التعامل مع الدنيا بأسلوبها !!

وتقدمت بشكوى لرئيس مجلس المدينة أوجه فيها اتهاما باطلاً ضد من شكانى بالباطل، واتهمته بالسرقه وأرخت الشكوى بتاريخ قديم .. كما تقدمت بأخرى لقسم الشرطة...

ولأول مرة أعرف أن لدى مواهب فى الشر أيضا، فلولا الخطاب الذى قدم لرئيس المجلس بتاريخ سابق لشكوى خصمى متضمناً تفاصيل مختلقة لكان وضعى فى تلك القضية أسوء من جناية المخدرات !!

واضطر خصمى للبقاء معى بقسم الشرطة وحتى اليوم التالى، وفى منتصف الليل وبعد رحيل العقيد /صلاح أمضينا المتبقى من تلك الليلة بغرفة الحبس وقد أصرّ على هذا ملازم حديث التخرج ضاربا بعرض الحائط ما أوصى به العقيد صلاح ... كان واضحا بأن هناك من تدخل بهذا الشأن ، ومارس ضغوطه على الضابط الصغير.

عُرِضنا على النيابة فى اليوم التالى، وخرج كل موظفى إدارة التحصيل ليقتحموا غرفة وكيل النيابة أثناء التحقيق مؤيدين لخصمى، الذى خرج بضمان وظيفته، وخرجت أنا بكفالة(٥٠٠ جنيه) للمرة الثانية

وبدأت اتساءل عمن كانت لدية القدرة على دفع هذا الموظف ليدعى أنه هُدد بالقتل، ومن كانت له سلطة تحريك كل موظفى إدارة

التحصيل بمجلس المدينة ليتظاهروا بمحكمة طوخ وداخل غرفة وكيل النيابة وكأنهم قد استنفروا لمواجهة إسرائيل!!

وكانت إرادة السماء أن يطيش هذا السهم .. لكنى كنت حزيناً لأننى اضطرت للتعامل مع الشر بأسلوبه! .

ترى هل لو كنت صادقاً والتزمت ما تأمرنى به أخلاقى.ومُثلى..

ترى لو قلت الحق!!

أكان من الممكن أن أُنجو من المكيدة ..

حتما كان الله سينقذنى!!

ولكن فكرى البشرى، هدانى إلى ما كان، وكان على مكتب أخى أن يتحمل أعباء تلك القضية التى تأخر نظرها إلى ما بعد قضية المخدرات .

كان ما أصابنى أخيراً دافعاً آخر لترسخ فى أعماقى فكرة أن أفضح الشر، وأن أمد يدى إلى الخير فى كل مكان، ليقوم الجميع فى حرب ضد " البوم " الذى يعشعش فى أرجاء حقولنا الخضراء، وكأنه يود لو صارت خرائب ترتع فيها الفئران والعقارب .. كان قلبى ينبض فى قوة.. وكانت أقدامى تشعر بالثبات فوق الأرض رغم كل شئ؛

وأحسست في يقين عجيب أن الله قريب جدا رغم أنــف العــالم

الذى يستميت من أجل أن ينجح فى التشويش على موجات السماء، التى

تحاول بث الأمان فى قلبى !!

حين سافرت إلى الإسكندرية بأصول رواية "جسر الموت الكئيــب".

قرأتها وأنا أضع عينيعلى مضمون العمل ، وما يريد أن يحكيه للناس ،

وراودتنى رؤى لإضافة شخصيات إلى العمل لأوضح جوانب أرى أنها

لم تعط حقها على ضوء ماجد فى حياتى ، ولكنى لم أكن فى حالة تسمح

لى بمعايشة النص معايشة كاملة .. لقد عشته من قبل خمسة عشر عامــا

مضت.. فقلت ما قلت..

كنت فى عجلة من أمرى ولكى أتوحد مع الأبطال مــرة أخــرى

يلزمنى الوقت.. وأنا أريد أن أغمض عينى وأفتحها لأرى كل أعمالى فى

كتب يقرؤها الناس !!

أنا أعرف أن كل أعمالى كانت صرخه مدوية فى وجــه الظلــم

الذى لفحتنى نيرانه ، والذى يعاود إخــتراق دائرتــى، دون أن يكــون

حريصا على إخفاء هذا التشوه المقزز فى سحنته !!

سوف أخرج كل ما قلت دون تعديل، وليكن التعديل فى أيام قــد

تأتي مستقبلاً، وليكن ما سيخرج إلى الناس الآن ما يمكن أن أسميه فيما بعد العمل المسودة.

كنت أشعر أنى فى أمس الحاجة إلى ما يمكن أن أسميه ورشة عمل..أين لى من ناقد جيد ليقرأ ويتفهم بسرعة البرق كل الأخطاء الفنية لأعدلها بأسرع مما استطاعة هو !!

لن أستطيع شيئا من هذا !!

إن كيانى الذى اشتعل بنار الظلم، لن تطفأه إلا سيول من الكلمات، وعدت من الإسكندرية أحمل روايتى ،لأسأل عن مطبعة أكلفها بأن تخرجها إلى النور، والتقيت بصديق لى أخبرنى أن أذهب بصورة هذا العمل إلى مديرية الأمن لتجيزه للطباعة، وصدقت ما قيل لى ..

وهناك بمديرية أمن القليوبية التقيت بأحد الضباط الذى أشار على بالذهاب إلى الرقابة على المصنفات الفنية بمبناها القائم خلف مستشفى الجامعة والتى يرأسها أحد العقداء .

وهناك تركت صورة من العمل لدى أحد ضباط الصف ، الذى أكد لى ان تلك هى الواقعة الأولى التى يتلقون فيها مثل هذا الطلب،وأنهم فقط يوافقون على شرائط الفيديو والكاسيت .

ولكنهم أعطونى خطابا يثبت أن العمل لديهم قيد الفحص.

التقيت صدفة وفى مساء هذا اليوم بالأستاذ "منير مراد" الذى يعمل مفتش تموين بمنطقة روكسى بالقاهرة وأيضاً يعمل بمكتب لتوزيع الأفلام يمتلكه أحد الموزعين السوريين بالقاهرة.

كان الأستاذ منير يمتاز بخلق رفيع ، وبساطة فى تعامله مع الناس ورغبة صادقه فى تقديم العون للآخرين .. وكان ينتمى إلى عائلة فنية فشقيقة زوجته الفنانة "إيفا" وكانت فى تلك الأيام تشارك الفنان "عادل إمام " بطولة مسرحية "الزعيم" والشقيقه الثانية لزوجته الفنانة "جوزفين" العازفة الأولى للبيانو بالأوبرا المصرية.

وعرفنى الأستاذ/ "منير" على صاحب مكتب "ماشاء الله" بالزيتون وخلال أسبوعين كنت خلالهما دائم التردد على القاهرة لمراجعة العمل استطعت أن أضعه فى الشكل النهائى، واتفقت مع المطبعة التى ستقوم بعملية الطباعة.

ويبدو أننى حين فكرت فى طباعة كتبى كنت أدخل هذا العالم من آخر ما وصلت إليه الدنيا من علم.. كنت أتخيل أن صاحب المطبعة سيجمع الحروف الحديد التى كنت أراها قديما بالمطابع واكتشفت أن الدنيا

قد تغيرت كثيراً..

فبداية كان الأستاذ "محمد "صاحب مكتب ماشاء الله يكتب جسد العمل كله، ثم يعطيه لى لأراجعه من الناحية اللغوية وأعيده إليه، وكان يكفيه أن يلمس أحد الأزرار ليحدد شكل الصفحة وعدد الأسطر وعدد الكمات فى كل سطر، وبضغطة أخرى كان يستطيع أن يعرف عدد الكلمات بالكتاب الذى أعده، وأيضاً الحروف. وقبل أن يطبع الشكل النهائى كنت أجلس إلى جواره أنظر إلى الشاشة والصفحات تقلب ..أقرأها على عجل لأقف بقدر المستطاع على الأخطاء التى ما تزال موجودة ..كانت عملية شاقه على عضلات الظهر والرقبة والعين!!

وأخيراً .....حملت أوراقى وذهبت إلى المطبعة التى لا تبعد أكثر من مائة متر، وسلمت صاحب المطبعة الأوراق، كما سلمته صورة الغلاف التى تبرع برسمها كما صورتها له ابن طوخ الفنان الرائع "سامى عبد الله " وعلمت أن تلك الصورة المرسومة ستصور على أربعة أفلام، تُطبع على أربعة ذنكات، بأربعة ألوان، كما أن العمل نفسه، وبعد إتمام عملية المونتاج، سيصور على ذنكات، واصطحبنى إلى الدور الثانى صاحب المطبعة لأشاهد كيف توضع الذنكات حول اسطوانة بماكينة

الطباعة، لتدور وتطبع عدة آلاف فى الساعه الواحدة.

وذهب إلى طوخ أحمل معى انبهارى بما وصل إليه العلم فى دنيا الطباعة، لأبدأ فى عد أيام الأسبوعين اللذين وعد صاحب المطبعة أن يسلم بعدهما الكتاب.. كنت أشعر أننى مقدم على أخطر وأهم ما فى حياتى ....هاهى كلماتى تتحدى الظلم وتعلن للدنيا ما خفى عنها من حروب الشيطان!!

هكذا كنت أحدث نفسى !!

كنت أشعر بالنشوه والترقب والخوف من المجهول، وأيضاً بالجسارة والتحدى!!

مزيج رائع من المشاعر .. يجعل الدماء تتدفق بقوة فى شراييني ..مختلطا بإحساسى بالحياة الفائرة فى عقلى وقلبى.

ويا للمفارقة.. كان هناك ايضا إحساس بالخوف من الموت ينمو فى أعماقى!!

يا الله !!!

إنه نفس الإحساس القديم .. التوجس من الموت.. وتوقعه فى كل لحظة!

بدأت أخاف أن يدركنى الموت، قبل أن أرى الرواية بين يدى !!

بمثل تلك المشاعر كنت أكتب هذا العمل منذ نحو خمسة عشر عاما مضت .. وتقريبا كل الأعمال ..كنت أيامها أبحث فى دهاليز قلبى وسراديب عقلى، لأسبر غور هذا الإحساس واتخلص منه، وكنت أمضى لاهثا فى عملى من أول كلمة حتى آخر كلمة، وأحمد الله أننى ظللت حيا حتى النهاية!!

والآن وأنا أبدء مشوار الطباعة .. ألهث من جديد لأرى الكتاب بين يدى، وأتخلص مع ولادته من هذا الإحساس الذى يدفعنى فى كل مراحل ولادة الكتاب، ويجعلنى أجرى كمن يعدو على شريط السكة الحديد، والقطار فى إثره يلاحقه.. فيحث الخطى دون أن يقف فى المحطات.. لئلا يدركه الموت.. ولكن الطباعة ليست فى يدى..إنه مشوار يمتلك مقاليده غيرى!!

ماذا أفعل لأنهى تلك اللحظات التى أحسها طويلة جداً..!!

وتوصلت إلى الحل..

سوف أعد العمل التالى ليكون جاهزاً لدخول الكومبيوتر.........

وأخرجت رواية "**أمل لايموت** " وكذلك المجموعة القصصية التى تحمل اسم "**حين نفتقد اللغة**"، وبدأت أقلب الصفحات..وفى اليوم الثالث

وأنا بالصيدلية.. كانت الساعة نحو الثانية، وكنت معتاداً أن أجلس بالصالة الداخلية ، وعلى المكتب الذى كان معدا من قبل للمحاسب.. اتصل بى ابنى عبد الإله ليقول لى أنه يشعر بالجوع، وأن أمة لم تنته بعد من إعداد الغذاء، وأنه يرغب فى رؤيتى ليشكو لى تقصير أمه، فوعدته أن أكون عنده بعد دقيقتين، وبالفعل قمت لأذهب إلى بيتى، تاركاً "محمود" الموظف الذى أتم نحو الشهرين بالصيدلية، وقبل أن أخرج إلى الشارع كان جرس التليفون ينادينى، وعلى الطرف الآخر كان الأستاذ "ميلاد"، صاحب المطبعة، يطلبني أن ذهب إليه بالقاهرة للأهمية.

وهناك وبالدار العالمية للطباعة والنشر، سمعت من الأستاذ " ميلاد" ما جعلنى أشعر بما يحس به الذى تزهق روحه أصابع غادرة وقوية، تحكم التفافها حول رقبته وهو يحدثنى عن قريب لأحد العاملين معه .. والذى يعمل عميداً بأمن الدوله وكان فى زيارة للمطبعة ، ووقع الكتاب صدفة بين يديه.. فهاله الأمر وانزعج وقام لينصرف وهو ينصح بإخفاء "الديسكات " وأصول الكتاب المعدة للطباعة لأن ما بها يكفى لوضع صاحب مكتب الكومبيوتر بالسجن، وكذلك الكاتب، وصاحب المطبعة ...الكل سيسجن وسيخرب بيته، ولن يعثر الذباب الأزرق على

جثثهم بعد ذلك!!

بل إن كل من تصادف وكان على علم، بما تضمنه الكتاب دون أن يبلغ، مصيره السجن.. وقام الأستاذ برفع طرف السجادة ليريني أين يخفي كل آثار الجريمة!!

أحسست بالغثيان لما أرى وأسمع.. إن الرجل لا يكذب.. ولكنه ربما يكون مغاليا بعض الشئ في وصفه..

وبادر هو بالحل وهو يقول إن روايتي **"أمل لا يموت"** رائعة وأنه قرأ منها بضع صفحات حين كنت أعرضها على صاحب مكتب الكمبيوتر لأتفق معه على موعد البدء في كتابها ، وأبدي رغبته في أن نبدء بها.

لم أبد مانعاً لما قاله.. لم أكن بحاجة إلى التفكير وأبديت موافقتي على اقتراحه، كان كل همي أن يخرج أي عمل، وكانت رواية **"أمل لا يموت"** بيا ما يذكيها عندي أيضاً، وهي كمجمل أعمالي.. تفضح بعض جوانب الشر في الدنيا، وتلقي الضوء على الشيطان وأعماله، ولكنها لا تبرز بالوضوح الكافي ملامح الشيطان كما في رواية **"جسر الموت الكئيب"**.. إن بعضا مما في "جسر الموت" يقترب مما حدث لي أخيراً ..

إن جو التآمر الذى يشيع فى جنبات الرواية يرضينى، ويعطى صورة لما حاق بى منذ أسابيع قليلة.. ولكن لا بأس.. لتخرج رواية "أمل لا يموت" إلى الوجود وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فى رواية الجسر الذى انهار قبل أن يتم !!

****

أرسل الأستاذ "ميلاد" فى طلب "محمد" صاحب مكتب الكمبيوتر، واتفقا على البدء فى كتابة الرواية..وخلال عشرة أيام انتهينا من كتابتها ومراجعتها.. وبدأت المطبعة عملها، وفى نفس التوقيت كنت أجهز المجموعة القصصية لتكون الكتاب التالى .. كنت أسابق الزمن وأنا أتابع مايكتب الكومبيوتر من قصص قصيرة ، وماتخرج المطبعة من ملازم تم طباعتها، وهالنى حجم الأخطاء " اللغوية" التى لم ألحظها وهى فوق شاشة الكومبيوتر ، رغم تصويبى لها فى أوراق " البروفة " الأولى التى سلمتها لمن يكتبون العمل .. ولكن كيف لهم أن يدركوا كل شيء، وهم بالكاد يرسمون الكلمات !!

واعتبرت أن الكتاب الأول كان للتعلم.. فمن خلاله عرفت كل شئ عن كيفية إخراج الكتاب إلى الناس.. ابتداء بالكمبيوتر وانتهاء

بتسليمه لأحد الجرائد لتوزعه .. وحتى أغلفه كتبي كنت أصممها بنفسي ...فحين اكتشفت أن أجر مصمم الغلاف ربما يفوق إجمالي مصاريف إعداد الكتاب، قررت أن أعد أغلفتي بنفسي، خصوصاً بعد أن فهمت الكثير عن عمل هذا الجهاز العجيب المسمى"كومبيوتر".. فكنت أقلب في مكتبة أبي القديمة، وأتصفح المجلات التي كانت تصدر في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، وحين أعثر على صورة رسمها فنان قديم وتعبر عن مضمون أحد أعمالي، كنت أقوم بنزعها وأذهب بها إلى مكتب الكومبيوتر، حيث يقوم الفني بتخزين الصورة فوق شاشة الجهاز بأجهزة معينه، ليبدأ بعد ذلك في تعديل الصورة بحسب رؤيتي.. فقد يضيف صورة مخزنة بالجهاز إلى الصورة التي رشحتها لتكون غلافاً لكتابي، وقد يركب أكثر من صورة أعطيها له لتعطي المعنى المطلوب، وقد يلغي أجزاء من الصورة لأجردها مما اعتقد أنه لا يفيد المعنى، وبعد ذلك أسأله أن يجري تعديلات في الألوان، لتتناسب مع ما أشعره ملائما للمعنى، حتى تنتهي إلى الشكل النهائي، لنبدأ في البحث عن مكان مناسب لوضع اسم العمل واسم المؤلف.. وعند هذا الحد تخرج لنا أجهزه التصوير النيجاتف الخاص بصورة الغلاف، من أربعة نسخ، لكل نسخة

منها لون محدد، وأثناء الطباعة يمتزج بعضا من الألوان، ليخرج إلينا العمل في عدد أكبر من الأربعة ألوان الأصلية التي استخدمناها في الطباعة.

****

انتهى كتابي الأول وسلمته لجريدة "الأخبار" ولم يوزع أكثر من خمسين نسخة في الطرحة الأولى والثانية!!

كانت الرواية تعرض في الأسواق ، والمطبعة تجهز المجموعة القصصية والتي أعدها نفس المكتب الذي أعد الرواية الأولى، ولكنني فضلت طباعتها في بنها، بعد اكتشافي أن طباعة الرواية بالقاهرة لم تكن على المستوى المطلوب، رغم استخدام طريقة الزنكات في الطباعة.. وهي طريقة مكلفة والمفروض أن تعطي أفضل النتائج في الطباعة.

وأجادت مطبعة بنها الصغيرة عملها، كما أجادت مطبعة "متربول" بالقاهرة طباعة الأغلفة .. كان صاحبي المطبعة أخوين درسا في أمريكا وأتيا إلى مصر ليطورا مطبعة أباهما البسيطة والكائنة بمنطقة عابدين.. وأتفقت مع الأخوين عادل وراجي اسكندر على طباعة كل ثلاثة أغلفة معا لنوفر في التكلفة، واشترطا أن يكون الحد الأدنى ألف

ومائتين نسخه، كما تولى الدكتور /أحمد صاحب معمل ابن خلدون للكومبيوتر إعداد الأغلفة ... ومن خلال هذا الثلاثي الرائع خرجت أغلفة الكتب جميعها بشكل جيد، وكنت قد أعددت تسعة أغلفه لتسعة كتب ، كنت قد عقدت العزم على إخراجها للنور .

****

خرج كتابي الثاني في أجمل صورة وكان كما ذكرت مجموعة قصصية بعنوان "**حين نفتقد اللغة**" وسلمتها لجريدة الأهرام التي قامت بالتوزيع، ولم يلق الكتاب حظا أفضل من سابقه، ولكنني كنت متحمساً لأخرج كتابي الثالث، وكان هو المقصود بالتحديد.. وأنا أراه أفضل ما كتبت لكشف صور التآمر على مصر والمصريين..هذا التآمر الذي اكتويت بناره، وأصبح كل همي أن أعلن للناس أبعاد المؤامرة التي تحاك لهم، والتي ألم بي شررها .. ليحرق بعضا من ثيابي.

وعثرت على المطبعة التي وافقت على طباعة هذا الكتاب بالزاوية الحمراء بالقاهرة وقامت أخبار اليوم بتوزيع الكتاب الذي كنت أعتقد أنه في أهمية الهواء والماء للمصريين، لأنه يستقرأ ما يحيق بمستقبلهم من مخاطر ،وللأسف لم ينل الكتاب حظا أكثر من سابقيه ،

وبدأت أبحث عن الأسباب.. خصوصا وأن كتابى الأخير هذا قال عنه بعض الميتمين بالفكر.. لو كان بيدنا لجعلناه مقرراً دراسيا بأحد سنوات المرحلة الثانوية ..على الأقل سيفيمه الناس وسيفيدون منه أكثر مما استفادو من " الميثاق الوطنى " الذى كان مقرراً يوما ما على طلبة المرحلة الثانوية وكان ترجمة مباشره للمنافستو الشيوعى ..لكارل ماركس!

واكتشفت أن أكشاك جريدة الأخبار تأخذ الكتب تخبئها أسفل كتب المشاهير من الكتاب، وصارحنى أحد الموزعين بمحطة الرمل بالإسكندرية، بأنه استلم عشرة نسخ، ولم يكلف نفسه مغبة فكها من عقالها ووضعها كما هى "بالصندرة" التى يخزن بها الكتب، وحتى أعادها للجريدة مرة أخرى.

وشعرت بالإطمئنان وأنا أكتشف أحد الأسباب الرئيسية لسوء التوزيع.. كانت هذه الرواية هى ثالث كتبى بالسوق بعد روايتى الأولى ومجموعتى القصصية.. وقررت أن أطبع كل ما جهزت اغلفته من مسرحيات ولكن بطريقة "الماستر" لا الزنكات.. وسوف أطبع خمسمائة وخمسون نسخة فقط.. أهدى خمسين منها، وأسلم الخمسمائة للجريدة..

وبهذا سوف أختصر ثلثى النفقات التى أتحملها بالطريقة التى كنت اتبعها من قبل .. كنت أريد فقط أن أحفظ كتبى من الضياع، وأن تصل أفكارى للآخرين ،لو كانوا بضع عشرات ممن أهديهم كتبى مجاناً !!

كنت أهدى كتبى لقدامى معارفى فى جريدتى الأهرام و الأخبـــار وبعض الأصدقاء والمهتمين بالأدب والقادرين على النقد.. والحقيقة أننى كنت أطبع مسودات كتبى كما هى .. كانت فى قلبى رغبة جارفة لأحيلها إلى كتب. وبنفس العنفوان القديم الذى كتبتها به، كنت أتمم عملية الطباعة ..ولنفس السبب.. فها هو شبح الموت يطاردنى مرة أخرى.. يرافقى كل حين وفى قلبى إحساس ينمو بأننى لن أتمكن من طبع كل مسوداتى ،وأن ما لن يطبع..لن يعيش من بعدى!!

وكانت تلك الحادثة التى التقيت فيها بالموت، بعد طباعة روايـــة "**جسر الموت الكئيب** " وعانقته فـــى لحظـــات، وراء تلهفـــى لاخـــراج مسرحياتى إلى الحياة.. ولكن عدالة السماء لم تشأ أن تجعل عناقى للموت عناقاً أبدياً !

فى هذا الموقف بدا الموت جليا أمام عينى، وفى قلبـــى، وبـــت أشعر أن الموت يحيا حولنا كل لحظة وأنه قد يمد يده فى أى وقت ليأخذ

من حياتنا ما يصل به حياته هو ....وإلا فكيف سـيحيا المـوت دون أن نموت نحن ....إن موتنا هو المصدر الوحيد لبقائه حيا بيننا ..

اغتيـــال

كان هذا اللقاء بعد طباعة روايـــة"جســـر الموت" وقبل طباعة مســرحية "مـــا بعـــد الصعود".. حين اتصلت بأحد تجار الورق فى بنها لأخبرة أننـــى قـــادم إليـــه لأرى نوعيات الورق بمخازنه عنـــده الســـاعة السادسة مساء....

وبالفعل تركـــت "محمـــود" .. الموظـــف الوحيد فى الصيدلية تلك الأيـــام، وقـــدت سيارتى إلى بنها والليل يرخـــى ســـدولة ،وشاء الله أن يرينى كيف يكـــون القتـــل سهلا إن اشترك فيـــه بضعـــة أشـــخاص مزودين ببعض التقنيات الحديثة، ويكـــون أيسر لمن يســـتطيع أن يخـــترق بعـــض الأجهزة الأمنية، ليسخر جزءاً من طاقـــة هذه الأجهزة لتعمل لحسابه!!

وللأجيال القادمة من شرفاء هذا الوطن.. أروى ما حدث.. والله رقيب على ما أقول وأقسم على الورق، نفس القسم الذى يردده الشهود فى المحاكم الغربية، كما نراهم فى الأفلام وأقول ..

"اقسم بالله العظيم أن أقول الحق كل الحق ولا شئ غير الحق".

ولأنى أكتب مذكراتى فى حياة كل من شهدوها، فالكل قادر على ردى ومقاضاتى إن جانبنى الصواب.. سأروى ما حدث وأترك لكل منصف أن يردد بينه وبين نفسه ما وصل إليه من حقائق، ولن يكلفه هذا الكثير من العناء .. فدائما ما تكون الجريمة غامضة مبهمة، لا يحل ألغازها إلا الأذكياء المدربين.. هذا إن انتهت بموت الضحية.. أما لو قدرت لها الحياة لتضع النقاط فوق الحروف، فسوف يقرأ الجميع كتابا مفتوحاً، لا يحتاج إلا إلى تعلم حروف اللغة، وفهم مفرداتها.. وطلاب الصف الثالث الإبتدائى قادرون على هذا .

خرجت بسيارتى وهى من طراز ما زادا سبور موديل ٧٦ يميزها لونها الأحمر ، وكونها ببابين فقط . متجها إلى "بنها"، وعند قرية "ميت عاصم" لاحظت سيارة (فيات ١٣٢) بيضاء على مسافة قريبة خلفى..

أنا بطبيعتى ميّال إلى القيادة السريعة، ربما لأنى تعلمت القيــادة فى السعودية.. حيث تسمح حالة الطرق هناك بما لا تسمح به هنا فــى مصر، وغالبا ما تتراوح سرعتى بين مائة كيلو ومائة وثلاثون، وهذ ا بطبيعة الحال يجعلنى حذراً طوال الوقت، ومنتبها بشكل دائم.

تخطيت معظم ما قابلنى من سيارات، ولم أستطع ملاحظة غــير تلك السيارة التى كانت تسير بنفس سرعتى تقريبا، وعند مدخل بنهـــا الشمالى دخلت على الاتجاد المخالف لأعود بسيارتى (U-return) فى إتجاه السيارات القادمة من الإسكندرية إلى القاهرة، ولأنى كنت علـــى عجلة من أمرى .. لم انتظر أن يخلو لى الطريق لأعبره والتزم اليمين حتى أصل إلى نقطة المرور التى أدخل من يمينها إلى مدينة بنها، ولكن وقمت بالتزام يسار الطريق عند نقطة الدوران وانطلقت بأقصى ســرعة لأتمكن من الإنحراف بالسيارة إلى يميـــن الطريـــق دون أن تعوقنـــى السيارات الآتية من خلفى، خصوصاً وأن المسافه إلى نقطة المــرور لا تزيد عن الكيلومتر بكثير، وبالفعل انحرفت بسيارتى إلى اليمين وقبـــل نقطة المرور بنحو خمسين متر لاحظت سيارة بنية اللون واقفه علـــى يمين الطريق.. ضايقتى أنها كانت مطفأة الأنوار، ولكنها كـــانت تقــف

بطريقة صحيحة على التراب لا على نهر الطريق .

شعرت بالطريق الداخل إلى بنها كئيبا على غير ما اعتــدت أن أشعر من قبل وأدركت السبب بعد برهة قصيرة .. فقــد كــانت نقطــة المرور التى ترقب مدخل بنها مغلقة على غير المعتاد، وكانت الإنـــارة الساطعة من العمدان التى تقف على الجزيرة بين الاتجاهين مطفـــأة!!

كانت سرعة سيارتى بين الســبعين والثمــانين حينمــا فقــدت السيطرة عليها تماما، وأدركت أننى أسير فوق بركة من الزيت تشبثت بطارة "الدريكسيون"وأدركت أنه لا طائل مما أحاول.. وصرخت بكلمـــة "يارب".. كانت تلك الكلمة هى كل ما تذكرت لحظتها.. وعرفت فيما بعد أنها كانت قد وصلت إلى السماء !

انحرفت السيارة لأقصى اليمين واصطدمت بالرصيف وانقلبـــت على جانبها الأيسر، ثم اندفعت إلى أقصى اليسار واصطدمت بالرصيف المقابل به وانقلبت مرة أخرى لتعود إلـــى وضعهـــا الطبيعـــى فـــوق عجلاتها. ...ثم كل هذا فى بضع ثوان.. لم أصدق أننى ما أزال حيـــا.. التقطت نفسا عميقا، وأمضيت ثوان أخرى أستجمع فيها أشلاء نفسى.. ثم فتحت باب السيارة وخرجت، وكان أول شـــئ فعلتـــه أن تحسســت

جراب مسدسى ...أطمئن على أنه لم يقع أثناء الحادث.. لم أكن أشعر بألم حاد.. فقط شعرت بضيق بسيط فى صدرى، وأدركت أننى مصاب بكسر فى عظمة الترقوة اليسار.. نظرت حولى أبحث عمن يساعدنى، فلمحت السيارة الفيات البيضاء تلك التى لاحظتها عند قرية "ميت عاصم"، وأيضاً السيارة البنى التى كانت تقف على الطريق السريع عند مدخل بنها يركنان أقصى الطريق على مسافة عشرون متراً تقريباً.. متفادين الدخول فى بركة الزيت، ونزل السائقين وتقدم الاثنان ناحيتى.. وتحدث سائق السيارة البيضاء يسألنى عما حدث، والتزم الآخر الصمت التام، وأخبرته أنى بخير.

طلب منى أن يعود بى إلى مدينة طوخ حين أخبرته أننى من تلك المدينة ، فقلت له أننى مكسور، وأننى بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى الجامعى التى تبعد أقل من كيلومترين عن موقع الحادث.. فالسيارة قلبت أمام المصنع الحربى قبل مطلع الكوبرى الذى يعبر الرياح التوفيقى ، والمستشفى كانت قبل الكوبرى الآخر الذى يعبر فرع دمياط.

طلب منى أن نذهب أولاً إلى نقطة النجدة التى على الطريق

لنقدم بلاغا وقبل أن يستمر الحديث، كانت سيارة ميكروباص بيضـــاء (١١راكب) تقف بجوارنا فوق بقعة الزيت.. بها الســـائق وبالكرسـى الذى خلفه سيدة ترتدى ذى الفلاحات الأسود.. لم ينزل الســـائق مـن السيارة واكتفى بالإطئنان على حالتى مـــن محدثــى سـائق السـيارة البيضاء، وخلال ثوان كانت سيارة (فيـــات ١٣٢) أيضـا .. برنزيـة اللون.. تتوقف أمام سيارتى عابرة فوق الزيت، وكان علـــى زجاجهـا علامة المشتغلين بالمحاماه والقضاء.. (الميزان) ..خُيل إلىَّ أننى رأيت هذا الإنسان منذ فترة طويلة.. كانت له نظرة عميقة، وتعبيرات وجـــه يستحيل أن ينساها من يراها مرة واحدة، وسألنى.

:أنت أخو المحامى اللى من طوخ ؟

وأجبته .

أنا أخو المستشار عبد الله البكرى .

فقال لى..

أقدر أقدم لك أى مساعدة.. تحب أوصلك لأى مكان ؟

وأجبته :

: شكرا.. الأخ– وأنا أشير إلى صاحب الســـيارة الفيـات البيضـاء –

عيوصلنى.

وأنصرف صاحبنا الذى شعرت بكل التوجس.. بمجرد النظر إلى وجهه.. الذى أكاد أجزم أننى قد رأيته ذات يوم فى مكان ما!!

وللمرة الثانية كدت أنا ومن معى أن نتعرض لحادث آخر حين دخلت سيارة نقل ثلاجة ،طولها نحو عشرة أمتار، وكان صندوقها لضخم مغلف بشرائح الومنيوم فضية اللون.. تحكم فيها السائق فى لوقت المناسب حتى يتفادى الاصطدام بنا رغم بطئة الشديد.. حاولت أن أتبين حجم بقعة الزيت.. وأدركت أنها ليست بقعة.. كان الطريق بطول يزيد عن عشرين مترا مغطى بالزيت، فيما عدا شريط عرضة يقل عن المترين قليلا، بأقصى يمين الطريق .. وتلك هى المساحة التى ركن فيها صاحبا السيارتين الفيات البيضاء والبنى.

اصطحبت بعض متعلقات كانت بسيارتى، وركبت بجوار صاحب السيارة البيضاء الذى كان يعتقد أننا سوف نتجه إلى النجدة لعمل محضر، وصعدنا الكوبرى وعند نهايته طلبت منه أن يوقف السيارة على يمين الطريق.. وهناك كانت أمامى صيدلية "سليمان ".وصاحبها دفعتى وصديق لى، فدخلت الصيدلية وجلست على مكتبة وأنا أوجز

له ما حدث.وطلبت منه أخذ متعلقاتى من صاحب السـيارة البيضـاء،
وأن يدعة ينصرف، واتصلت بأخى عبد الله فى مكتبة ، فطلب منى أن
أبقى مكانى، وأخبرنى أنه سيكون عندى خلال عشرة دقائق، وبـالفعل
كان أخى عندى فى الوقت المحدد، وانطلقنـا سـويا إلـى مستشـفى
الجامعة، وبمجرد وصولنا كان أحد أمنـاء الشـرطة، يسـألنى عمـا
حدث،وأجابه أخى بما أراد.. وعلمت من أخى أنه لم ير سيارتى فـى
مكان الحادث، وأنه رأى عدداً كبيراً من جنود قوات الأمن، يحملـون
التراب من الحقول ويلقونها فوق الزيت.

أنهينا إجراءات المستشـفى وحضـر إلينـا الأسـتاذ "جـورج
محروس" والاستاذ "ناصف" الملقب بالخواجة، وهـم أصدقـاء لـى
ولأخى، ويمتلكون محلات ذهب بالصاغة بينها، وخرجنا جميعا إلـى
عيادة الدكتور "عبد المسيح" أخصائى العظام.. وهو من أقارب "جورج"
وقام بعمل اللازم ، وفى طريق عودتى لاحظت أن كل عمـدان النـور
كانت مضاءة، وأخبرنى أخى أنها كانت كذلك وهـو قـادم إلـىَّ مـن
طوخ..معنى هذا أن العمدان أضيأت وقوات الأمن حضرت، وتـم رفـع
سيارتى خلال عشرين أو ثلاثين دقيقة من وقوع الحادث.. وعدت إلـى

بيتى، وطوال الليل لم أتمكن من النوم بسبب الآلام التى بدأت تكشر عن أنيابها،وبسبب التفكير الذى سيطر علىَّ وأنا أحاول إستعادة الحادث لحظة بلحظة وحتى وصلت إلى قناعة بان الحادث كان مديراً وكانت لى أسبابى:

*.فبماذا نفسر تحرك السيارة البيضاء وبنفس سرعتى وحتى دخول طريق المصنع الحربى، وما الذى يربط بينها وبين السيارة الأخرى ودخولهما فى نفس التوقيت واصطفافهما على يمين الطريق الخالى من الزيت ونزولهما معا فى نفس اللحظة،علما بان السيارة الثانية كانت تقف كما أوضحت على طريق الإسكندرية.. القاهرة الزراعى وكأنها كانت تنتظر الأولى،ومن هذا الذى خرج منها بشهامة أولاد البلد ولم يفعل شيئا، ولم ينطق بحرف؟؟

* وبماذا نفسر انقطاع الكهرباء عن أعمدة الشارع ثم عودتها بعد نحو عشرين دقيقة وهى تلك الفترة التى انقضت من لحظة وقوع وحتى دخول أخى عبد الله على نفس الطريق؟؟

* وكيف تحركت قوات الأمن بكل تلك السرعة، ومن الذى أبلغ عن الحادث.. وإذا كان المبلغ هو صاحب السيارة البيضاء وكان قد

تركنى قبل وصول أخى بخمس دقائق فقط.. فهل تكفى هذه المدة لتحريك سيارة قوات الأمن ليبدءوا عملهم بحمل التراب من الحقول إلى الطريق؟؟

*ومن الذى سارع برفع سيارتى فى تلك الدقائق القليلة ..حيث أنها لم تكن موجودة وقت وصول أخى؟؟

* كيف أخذت قوة الشرطة المتواجدة عند المدخل أجازة في هذا اليوم،وهى المتواجدة طوال ساعات الليل والنهار، وطوال أيام السنة.. حتى فى الأعياد الرسمية؟؟

*هل هناك علاقة بين صاحب السيارة البرنزية والحادث، وهل هو القائد الذى كان مكلفا بالإشراف على العملية؟؟

* هل للسيارة الميكروباص علاقة بما حدث أم أنها كانت فى مشوار خصوصى للسيدة التى كانت تجلس خلف السائق ولا يظهر حتى وجهها؟؟

*هل لدخول السيارة الثلاجة الضخمة علاقة بالحادث وكان دخولها لتصطدم بسارتى وهى مقلوبة ليكتمل الشكل الطبيعى للحادث؟؟

* أم تراها سيارتى هى التى غارت من مغامرة سيارة "دودى الفايد "

والأميرة "ديانا" فقررت أن تقلدها، وخصوصا وأن الفارق الزمنى بين الحادثين ليس بالبعيد.. وقد كان الحادث الخاص بى فى تمام الساعة السادسة مساء يوم السبت الموافق ١٩٩٧/١١/١٥ وهذا التوقيت من واقع دفتر المستشفى الجامعى ببنها تحت رقم (١٨٤٠).

وكان هناك فى اليوم التالى للحادث..صباح الأحد ٩٧/١١/١٦م ما يرجح نظرية المؤامرة .

.. ففى صباح هذا اليوم اتصلت بنائب مأمور مركز طوخ العقيد / صلاح شعبان.. وهو صديق حميم لى

.. وحين رويت له ما حدث.. حمد الرجل الله على سلامتى وأكد لى أن هذا الحادث كان سيقع له قبلى بنحو عشرون دقيقة فقط، حين دخل بسيارته من نفس الطريق مسرعا، لولا أحد معارفة من جنود قوات الأمن الذى وقف يشير إليه بالتوقف ليصحبة إلى داخل مدينة بنها، وحذرة من الزيت المنتشر على الطريق، فأبطىء من سرعته إلى حد كبير ، ورغم هذا كاد يصطدم بالرصيف..

معنى هذا أنه كان هناك من يحذر الناس من الساعة الرابعة وقت انسكاب الزيت، وحتى قبل دخولى الطريق بدقائق لتخلو الدنيا

من كل الناس إلا أنا والمتابعين لما ستكون عليه الأمور !!

أغلقت الخط مع العقيد/ مصطفى شعبان ، واتصلت بمدير مباحث أمن الدولة ببنها العميد /نزية..وشرحت له ما حدث.. وفاجأني لرجل بأنه يعرف ما حدث لي.. ألهذا الحد أصبحت رجلاً مهما تعرف الدنيا بخبر ما يقع له من حوادث!!

وقلت له

: يا نزيه بك الحادث.. كان الهدف منه إني أموت.. بس ربنا مد في عمري!

: الحادث كان طبيعي يا دكتور/ محمد مكنش فيه قصد ولا حاجة.

: يا نزيه بك الزيت كان منتشر بطول أكثر من عشرين متر على كامل الطريق، ما عدا شريط ضيق بأقصى يمين الطريق، لا يسلكة إلا من يعرفة فقط، إذاي تم نشر الزيت بالشكل ده؟!

:الزيت وقع قبل دخولك بساعتين، وعمال مجلس المدينة حاولوا يكنسوا الطريق، ولأن الطريق مايل لليمين انتشر الزيت بالشكل اللي هيىء لك إنه مقصود..كل الموضوع كام برميل زيت وقعوا من عربية نقل والسواق مخدش باله.. واحنا بنحاول نعرفه .

: تقصد سعادتك إن عمال المجلس "جم يكحلوها عموها"

: بالضبط كدة..

:عموما يانزية بك أنا سألت العقيد / صلاح شعبان وعرفت إنه كان هناك ، الى بيحذروا الناس قبل دخولى بدقائق، والحقيقة أنا نفسى أسأل..

فين نقطة المرور المرابطة هناك!!

ليه مكنش فيه إشارة تحذير واحدة !!

وليه عمدان الإنارة الخاصة بالطريق كانت مظلمة لحظة دخولى بالتحديد.. لاقبلها ولا بعدها !!

: يا دكتور محمد أنا عارف إن اعصابك تعبانه بعد الحادث، لما تقوم بالسلامة تقدر تعمل زيارة للعقيد / محمود رئيس مباحث أمن الدولة بمركز طوخ.

: هو فيه مباحث أمن دولة فى طوخ ؟

: ويرأسها العقيد / محمود .. دى إدارة جديدة بطوخ، موجودة بعد انشاء المبنى الجديد للمركز.. وأكيد هيكون لنا لقاء تانى لما ربنا يأخذ بيدك.. حمد لله على سلامتك يا دكتور محمد.

: أشكرك يا نزيه بك .. مع السلامة.

وإلى هنا انتهى حديثى مع السيد/ رئيس مباحث أمن الدولة بالقليوبية.. ورفعت السماعة مرة أخرى لأتصل بالعقيد محمود، وطلبت منه أن تؤخذ الإجراءات المتبعة فى مثل إدعائى لمعرفة الجناة.. وسألنى الرجل.. إن كنت أتهم أحد بعينه ...وأجبته بأننى كاتب يغمس الفن فى السياسة وأعدائى هم كل من يكره ما أقول.. وعاد الرجل يسألنى.. من هم؟ كانت الأمور واضحة فى ذهنى.. وأسئلة كثيرة تلح على عقلى وتلهبه بالسياط !

* من له القدرة على تحريك عمال مجلس المدينة ؟

* من له القدرة على قطع الكهرباء عن عمدان الشارع وقت دخولى ثم اعادتها بعد قليل ؟

* من له القدرة على إلغاء عمل وحدة المرور هذا اليوم وهى تبعد أمتار عن موقع الحادث.. وللحقيقة أنه موقع مدروس ومثالى لمثل تلك الحوادث !

* ما حكاية السيارتين الفيات ؟

وحين نزل سائقاها.. هل كان بغرض معاونتى!

وهل لو فقدت الوعى بضع ثوان أو كانت السيارة ظلت مقلوبة وأنا احتاج لمن يخرجنى منها.. أما كانت حقنة صغيرة كافية لإيقاف القلب عن العمل !!

من هذا الذى سيشك أن وقوف القلب كان بسبب عامل آخر غير الحادث.. خصوصاً وشكل السيارة المهشم وعظمى المكسور.. ألا يوحى كل هذا بأن الوفاة طبيعية!

واحترت كيف أجيب العقيد /محمود.. كيف يكون الكلام مغطى!!

وكيف لا أجرحه!!

هل سأقول له أن جهاز الأمن مخترق!!

ومن قِبل من؟!

أنا أعرف أن بقايا الشيوعية مازالت كثيرة وفلول تنظمات الفترة البائدة مازالت تعمل فى الظلام، وتجند الشرفاء من أبناء مصر دون علمهم وتوهمهم بالكثير، ليمضوا معها على درب الشيطان!!

وأعرف أن الناصريين والشيوعيين والإرهابيين والمتطرفين.. كلهم واحد.. وأعرف أنهم يتلونون كالحرباء، ويتحوصلون كالجراثيم، وأنهم يرونا.. ونحن لانراهم !!

ولكن .. ماقيمة كل ما أعرف !!

وقلت للسيد العقيد.. أن دورى يقتصر على الشـــك فقـط، وأن عليهم.هم أن يصلوا إلى الجانى.. وأنهيت مكالمتى له وهو يطلب منى أن أقوم بزيارته بمجرد أن أتماثل للشفاء.

. وبالفعل قمت بزيارته وأهديته كتبى الثلاثه الأولى والتـــى كـــان آخرها رواية "جسر الموت الكئيب".

****

وفى اليوم الثالث جاءت لزيارتى الدكتـــورة /عبـير..الطالبــة بنهائى الطب البيطرى والتى كانت تتدرب عندى بالصيدلية فـــى فـترة الصيف،وهى تأمل أن تـمكنها . خبرتها المكتسبة من العمل فـــى الدعاية لشركات الأدوية .

لم تصدق نفسها حين قمت لاستقبالها وتمتمت.. "الحمد للـــه".. وضحكت وأنا أسألها ..

: إنت كنت منتظرة شيىء أسوء من كده ؟

: ما تتصورش يا دكتور محمد الوساوس.. اللى عشت فيها وأنا فـــى طريقى لك !!

:آيه اللى عرفك باللى حصل؟

:وأنا فى "الميكروباص" اللى جايبنى من بنها لقيت الركاب بيقولوا .."معقول صاحب العربية دى لسه عايش".. وبصيت لقيتها عربيتك عند ورشة مجدى الميكانيكى.. مصدقتش اللى شفته..جيت على طول.. وفى الصيدلية قال لى محمود على اللى حصل.. الحمد لله أنك بخير !

: افتحى درج مكتبى هتلاقى رزمة ورق.. هاتيها..

وبدأت أملى عليها شكوى تتضمن ما حدث وأرسلت الشكوى لعدة جهات ..

لرئاسة الجمهورية، ووزير الداخلية، ومدير أمن القليوبية، ومدير الأمن العام، وبعد فترة تم استدعائى لقسم شرطة طوخ، وأخذت أقوالى وبعدها بفترة أخرى استدعتنى نيابة بنها، وهناك وبعد سؤال روتينى لا ينم عن أى اهتمام حقيقى، وقَّعت على أقوالى، وحفظ المحضر طبعا بعد ذلك .. ويادار ما دخلك شر !!

****

وبعد نحو شهر من هـــذا الحـــادث وفـــى ١٥ شـــعبان ســـنة ١٤١٨هـــ الموافق ١٥ ديسمبر سنة ١٩٩٧ م كان يوم محاكمتى فـــى بنها عن جناية تعاطى المخدرات الملفقة وجاء الحكم صفعـــة مدويـــة لرجال .مكتب مخدرات بنها، لا بسبب البراءة.. ولكن بســـب حيثيـــات الحكم..

ترافع فى المحكمة أخى عبدالله وصديقة الأستاذ /عماد سليم ..

وطلبت أنا الكلمة.. تلك التى قال فيها المحامين الذين حضروا الجلســة أنها كانت وراء ثمانين بالمائة من حكم البراءة.. التى كانت من اللـــه، قبل أن تكون من هيئة المحكمة التى كانت مشكلة من رجال محترمين، لم ينخدعوا لمحاولة التدليس التى كانت من رجـــال الشـــرطة، وكـــان المستشار/ أحمد محمود بربرى رئيساً للمحكمة وبحضور المستشارين/ "محمد محمد سليمان" "وحسام الدين محمد عبده"...

أنصفنى رجال القضاء المصرى، من الطغاة، وأنصاف الرجـــال، والمدمنين، والملوثين.. ممن خربت زممهم، وماتت ضمائرهم، فحاولوا إلصاق التهم زورا وبهتانا .. كانت المحكمة مليئة بالمحـــامين الذيـــن جاءوا ليشهدوا أول مرافعة لأخى بعد أن ترك منصة القضاء، وحضـــر

بعض الصحفيين، وبعض طلاب الجامعة العاملين بالصحافه الجامعية ومن طلبه كليه الحقوق، وخرجت كتبى فى قاعة المحكمة. وأخذت القضية شكل قضايا الرأى العام، وكنت قد أنهيت مرافعتى من وراء القضبان برفع رواية "جسر الموت الكئيب"،وقلتها صراحة أن سبب محاكمتى الحقيقى، هو تلك الرواية،وأعربت عن أملى فيما لو كانت الرجولة هى الفاصل بينى وبين من دبر لوجودى خلف القضبان لحظتها . ليكون تقديمى للمحاكمة بتهمة تأليف تلك الرواية دون اللف والدوران وتلفيق التهم والتدليس على سير العدالة، التى يحميها قضاة مصر.

**باسم الشعب **

**محكمة جنايات بنها **

المشكلة علمنا برئاسة المستشار / أحمد محمود بربرى رئيس المحكمة وحضور السيدين / محمد محمد سليمان وحسام الدين محمد عبده المستشارين بمحكمة إستئناف طنطا

والسيد / أيمن عفيفى   وكيل نيابة

والسيد / يوسف أبو هلال   أمين السر

أصدرت الحكم بالآتى

فى قضية النيابة العامة رقم ٥٤٩ لسنة ١٩٩٧ طوخ

ضد

محمد محمد البكرى سعيد

اتهمت النيابة العامة المتهم المذكور لأنه فى يوم ٩٧/٤/١٤ م بدائرة مركز طوخ محافظة القليوبية

حاز بقصد التعاطى أجزاء نباتية لنبات الحشيش المخدر فى غير الأحوال المصرح بها قانوناً ،وأحالته إلى هذه المحكمة لمحاكمته طبقاً لمواد الإتهام وبجلسة اليوم نظرت الدعوى كما هو مبين تفصيلاً بمحضر الجلسة بعد تلاوة أمر الإحالة وسماع طلبات النيابة والمرافعة والإطلاع على الأوراق والمداولة قانوناً،حيث أن النيابة العامة اسندت إلى محمد محمد البكرى سعيد أنه فى يوم ٩٧/٤/١٤م بدائرة مركز طوخ محافظة القليوبية حاز بقصد التعاطى أجزاء نباتية من نبات الحشيش فى غير الأحوال المصرح بها قانوناً ،وطلبت معاقبته طبقاً للمواد ٢٩، ٣٧/١، ٤٢/١ من القانون رقم ١٨٢ لسنة ١٩٦٠ المعدل والبند رقم ١ من الجدول ٥ الملحق ،واستندت لإثبات الإتهام إلى أقوال كل من

النقيب أشرف محمد توفيق والعقيد/ محمد طنطاوى حسن ،وسعاد يونس سيد أحمد ولما أورده تقرير المعامل الكيماوية فقد شهد العقيد /أشرف توفيق بالتحقيقات أن تحرياته دلت على أن محمد محمد البكرى سعيد وهو صاحب ومدير صيدلية الإنسانية بدائرة مركز طوخ يزاول الإتجار فى العقاقير المؤثرة على الحالة النفسية ،وبعد استصدار الإذن من النيابة لضبطه وتفتيشه والصيدلية –انتقل وبرفقته الشاهدين الثانى والثالث وقبض على المذكور وأجرى تفتيش مكتبة فعثر على كيس بلاستيك بداخله نبات الحشيش .

وشهد العقيد/ محمد طنطاوى حسن وسعاد يونس سيد أحمد بالتحقيق بمضمون ما شهد الأول .

وقد ثبت بتقرير المعامل الكيماوية أن النبات المضبوط هو من نبات الحشيش ووزنه ١,٦مم.

وحيث أن المتهم سئل بالتحقيقات وبالجلسة وأنكر ما أسند إليه ودفع محاميه ببطلان الإذن لعدم جدية التحريات ،وأن الضابط تجاوز الإذن أثناء التفتيش وأن المتهم ليس له سيطرة على مكان الضبط وليس له صلة بالمخدر المضبوط والتمس البراءة .

-وحيث أن المحكمة لا تطمئن إلى أدلة الثبوت وآيـــة ذلــك أن رجــال الضبط صدر لهم الإذن بتفتيش صيدلية المتهم بحثا عن أى عقاقير تكون حيازتها بالمخالفة لأحكام القانون وفى غير الأحوال المصرح بها قانونــا وحسب تعليمات وزارة الصحة وقانون الصيدليات ولذلك اصطحبوا معهم مفتشة الصيدليات – الشاهدة الثالثة –وحسبها المختصة بمعرفة وجود أو إكتشاف أى مخالفات تتعلق بحيازة مثل هذه العقاقير ومخالفـــة القــانون والتعليمات.

ومن ثم كان لها ضبط الأدوية التى تم جردها وتلك التى توضـــع عادة على أرفف الصيدلية وفى مكان ظاهر أما مكتب المتهم فلا يوجد به بالطبع أدوية وإنما عادة يضع بـــه أوراقــا أو أى أدوات خاصـــة بشخصه ولذلك لم تقم مفتشة الصيدليات بفتح هـــذا المكتــب أو تفتيــش محتوياته وإنما الذى تجاوز هذا الأمر هم رجال الضبط دون ســـند مــن القانون وفى إدعاء بفيض ذكر الشاهدان الأول والثانى أنه تم العثور على الكيس الذى به المخدر دخل قمطر المكتب .وترى المحكمة أنه ما جــاز لرجال الضبط تفتيش مكتب المتهم مستودع أسراره طالمــــا أن مفتشـــة الصيدليات التى صاحبتهم قد قامت بواجبها فى شــأن وجــود أدويـــة أو

عقاقير فى حيازة المتهم والتى هى موضوعة فى أماكنهـــا المخصصـــة لذلك من الصيدلية وحسبها هى أن تتحقق من ذلك بإعتبارهـــا صاحبـــة المعرفة والمتخصصة فيها وأن الشاهدين الأول والثانى ليس لهما الزعم أن يعرفا أى شئ بخصوص الأدوية المدرجة بجداول المخـــدرات مـن عدمه وحتى لو كان فإن هناك تنظيماً موضوعاً لحيازتها بالصيدليات ولها سجلات خاصة وحيازتها بمعرفة أى صيدلى يعد مباحا قانوناً ومصـــرح به فى حدود التعليمات المقررة وصرفها للمرضى بموجب تذاكر طبية.

ومن ثم فإن المحكمة ترى فى تصرف رجال الضبط وتعديهمـــا حـــدود المأمورية المناط القيام بها وهو من قبيل الافتئات على حريـــات النـــاس ومحاولة البحث لخلق جريمة وإسنادها إلى المتهم ،ومن ناحية أخرى فإن مكان ضبط المخدر –وأثناء دخول رجال الضبط وأى أشخاص آخريـــن بالصيدلية فى ذلك الوقت لم يعد تحت هيمنة المتهم أو سيطرته عليه .

وحينذاك يمكن لأى شخص أن يصل إليه ويدس هذا المخدر لا سيما وأن الشاهدين لم يقررا بأن القمطر الذى به المخدر كـــان موصـــداً بمفتـــاح وبإحكام مما يدعو للتصور بأنه كان سهل الفتح ودس وإخراج أى شـــئ منه فى غفلة من صاحبه – لما كان ذلك فإن المحكمة يســـاورها الشـــك

في صحة رواية شاهدى الإثبات الأول والثاني ولا تطمئن إليها من جماع ما سلف بيانه ومن ثم فإن الإتهام يعد قائماً على أسباب قاصرة الكفايــة لحمله وغير ثابت قبل المتهم مما يتعين معه الحكم ببراءته مما اسند إليه عملا بالمادة ٣٤ /١ أ.ح ومصادرة المخدر المضبوط عملا بالمادة ٣ ع

فلهذه الأسباب

وبعد الإطلاع على المواد سالفة الذكر حكمت المحكمة حضورياً بــبراءة محمد محمد محمد البكرى سعيد مما أســند إليــه ومصــادرة المخــدر المضبوط صدر هذا الحكم وتلى علنــــا بجلســة الإثنيــن ١٥ شــعبان سنة١٤١٨ هــ الموافق ١٥ ديسمبر سنة ١٩٩٧ م

أمين السر **رئيس المحكمة**

كان إحساسى بسعادة الإنتصار على الشيطان، يخالطه شعور دفين بالحزن، وأنا أرى أن شق القضاء الآخر من رجال النيابة، وقد أطلق الفساد يده ليعبث به محاولا فصله عن جسد القضاء.. إلا من عصم الله، وهم قلة وندرة فوق أرض وادى النيل، الذى علَّم أصحابه الأوائل، سائر البشر، كيف يكون العدل بين الناس، وكلماتهم ما تزال باقية وهم يرسون قواعدا للإنصاف بين الخليقة، ليت الشق الآخر من رجال القضاء،هؤلاء العاملين بالنيابة يقرأون بردية فرعون إلى رجال القضاء وهم يحاكمون خصوم له حين قال:

"أنا آمر القضاة قائلا ...أما بخصوص الكلام الذى يدور على ألسنة الناس، فلا علم لى به، إذهبوا ومحصوا الأمر ،ووقعوا العقاب على من يستحق بدون استشارتى، واخترسوا من عقاب البرئ".

ليت كل المصريين الأن يضعون فوق جدران مبانيهم مقولة الملك خيتى لابنه هو يعلمه.. ليحفظ الكل كلماته المضيئة.

"يا بنى ..قوة المرء فى لسانه ...والحديث الطيب أقوى من الحرب والقتال ....اعمل على إقامة الحق طول عمرك، وخذ بيد الحزين واليائس، ولا تظلم امرأة ....ولا تقتل ..فالقتل لا يفيد..

لا تنظر إلى الرجل العظيم على حساب الرجل الفقير ..بل عامل كلا على حسب أعماله وكفاءته، أعبد الله وعظمـــــة، إن اللــــه يتقبـــل أعمـــال الصالحين.. وهى أفضل من أى تقدمه أو قرابين ..الله يعلم ما تسـره وما تعلنه، وهو راعى الناس ، خالق السموات والأرض، ومابها مـــن ماء للظامئ، وهذا الهواء ليحيا به الناس ...يا بنى راعى الدنيا كلهـــا تحبك).

أين كل هذا من وكلاء النيابة اليوم.. وقد تعاملت معهم، ورأيـــت رئيس نيابة طوخ المدعو/ "ناجى الحلوجى" وهو أبعد ما يكون عن طوق النجاة للمظلومين، وكان فى طبعة وأحكامه أقرب للمراره والعلقم !!

ويستطيع أن يقاضينى إن أراد وأنا أقول عنه أنه لم يكن اســـماً على مسمى فهو "هلاك" لا نجاه .. ليد لنى هو إن قرأنى – يوما عن أى قيمة إنسانية كانت له .. من تلك اللواتى تستمر بهن الحياة.. لقـــد كـــان هلاكا للحق والعدل محملا بكل المرارة والعلقم لحلوق الشرفاء من أبناء مصر..

فأين هو من دلالات اسمه الذى لو استحال فيه" حـــرف الحـــاء" إلـــى "باء"".. لكان أقرب إلى حقيقته!!

وجدت نفسى أفكر فى القضاء على أرض مصر، آخر حصون الأمان.. ذلك المنصب الذى أبكى رجالا فى أزمان سحيقة وهم يرفضون تولى القضاء لخشيتهم من لقاء الله بمظلمة صدرت منهم دون قصد ....وأمامهم مقولة مفزعة.. **"القضاة يوم القيامة واحد فى الجنة واثنان فى النار "**.

ياله من قول تقشعر له الأبدان، أين وكلاء النيابة الشبان فى عالمنا اليوم من هذا القول ،أين علاقتهم الخاصة بخالق السماء والأرض ..تلك القوة العادلة التى تنير القلوب .. وكلهم عارف بما قالته السماء..

المسلمين منهم يحفظون... **"اعدلوا هو أقرب للتقوى"**.. والمسيحيون فى قلوبهم مقوله السيد المسيح المرعبة **"أنا عارف أعمالكم"** عارف أعمالنا!!!

يا لهذا الرعب الذى يملأ القلوب من تلك الكلمات الثلاث .

وقادر هو الله أن يوقظ كل كلمات السماء فى قلوب من كلفوا بالعدل بين الناس !!

أسجد لله شكراً.. أن رجال القضاء فى مصر، مازالوا رغم كتل الظلام، يجاهدون لعدل المائل فى قرارات رجال النيابة، الذين تحولوا

إلى ما يشبه رجال المباحث وهم ينسقون معهم "ليخصلوا" القضية في النيابة.. لتصل إلى منصة القضاء "خالصة مخلصة"كما يقولون ..ويحضرني في هذا موقف "وائل" بك رئيس نيابة طوخ وخليفة "ناجي الحلوجي".. حين أتاني تليفون بصيدلتي يقول لي .." **إن كنت عايز تشوف العدل في مصر أذهب إلى نيابة طوخ لترى ما سيوحي لك بأروع رواياتك"**

وأغلق محدثي الخط ...وابتسمت وأنا أغلق الباب الزجاج للصيدلية وأدير سيارتي متجها إلى النيابة.. والمشوار لايكلفني أكثر من دقيقتين بالسيارة ..

وهناك رأيت اثنين من المحضرين، لم يرض عنهما السيد رئيس النيابة "فأمر بوضع القيود في أيديهما وربطهم بسور السلم الحديدي ..ورأيت المحامين في تظاهرة تملأء الطرقة الطويلة أمام غرف وكلاء وموظفي النيابة، ليمنعوا رئيس النيابة من حلهم إلا بعد وصول "المحامي العام" من بنها .. وحين أتى المحامي العام وأحال السيد رئيس النيابة للتحقيق قال للمحامين.. إن وائل بك كان يرغب في أن يكون "رئيس مباحث " فلما لم تواتة الظروف، قام بدور رجال المباحث من خلال عمله

كرئيس للنيابة. ونقل بعدها رئيس النيابة الي مكان آخر.. بالطبع ليمارس ماجبل عليه من خلف مكتبه وأدعو الله مخلصا.. ألا يترقى ليتولى منصبا قضائيا في المستقبل.. لا هو ولا "ناجى بك الحلوجى"..السابق عليه فى نفس المكان..

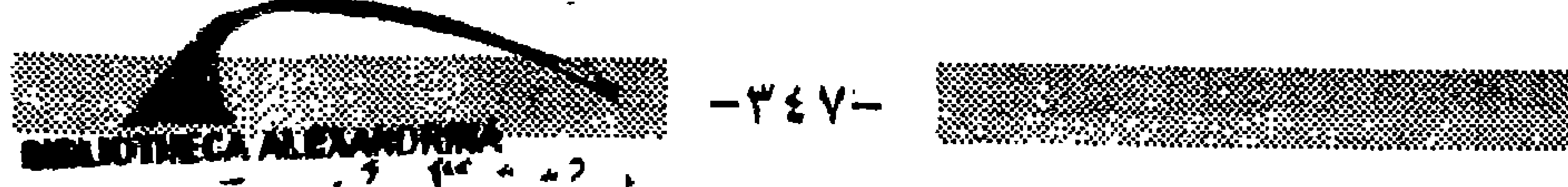
فى مقابل المقولة المخيفة "القضاه يوم القيامة واحد فى الجنة واثنين فى النار".. وسألت نفسى.

لو كنت قد التقيت باثنين من أهل النار.. فمالى لا التقى بواحد من أهل الجنة.. واستجاب الله لأمنيتى حين تولى من بعدهم الأستاذ "**أحمد الجزيرى**" رئاسة النيابة بطوخ.

التقيت بهذا الرجل فى القضية الثالثة التى اتهمت بها زورا وبهاتا بما هو أخطر من محاوله الصاق تهمه تعاطى المخدرات أو الشروع فى القتل التى تلتها !!

****

ففى أحد أيام شهر يونيو سنة ١٩٩٨م اتصلت بى زوجتى لتخبرنى بأن هناك جماعة من الشباب يطرقون الباب، ويرغبون فى دخول الشقة لرش الحمامات للوقاية من فيروس"C وأنهم سيحررون


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

محضر بمبلغ خمسون جنيها غرامة، لمن يمتنع عن الرش، ودفع مبلغ خمسة جنيهات نظير ذلك وأن الشارع كله أدخليم لأنيم مكلفين من قبل وزارة الصحة.

طلبت منها ألا تفتح لأحد، لأنى سأتى بنفس لأعرف منهم الحكاية ،وبمجرد أن وضعت سماعة التليفون، أتى إلى بعض أهالى الشارع ،متضررين من المبلغ الكبير، ويلومون علىّ كيف وأنا عضو المجلس المحلى، وأمين لجنة الصحة بالمدينة ألا أتدخل فى تقليل هذا المبلغ، خصوصا وأن شوارع أخرى دفعت مبلغ ثلاثة جنيهات فقط!!

ولعب الفأر فى عبى.. كما يقولون.. وأخذت بعض الأهالى وذهبت لأقابل هؤلاء الموفدين من قبل الوزارة، واكتشفت ببساطة أنهم مجموعة من النصابين ،وأشرت إلى الأهالى بالإمساك بالشابين الحاملين للمواد الكيماوية، واستطحبوهما إلى صيدليتى، حيث قمت بالإتصال برئيس مجلس المدينة وسكرتير المجلس ورئيس المجلس المحلى للتوثق من قولهم، بأن قائد المجموعة لديه تصريح من المجلس، واكتشفت كذب ما يدعون، وأخذت ما لديهم من أختام النسر والإيصالات وعبوات الكيماويات والرشاش، واتصلت برئيس المباحث ليرسل لى أحد أمناء

الشرطة للقبض على هؤلاء المدعين .

وخلال دقائق أتت إلى سيده في نحو الأربعين في عمرها ينادونها بلقب دكتورة تطلب منى أن أدع العاملين معهـا، وبـالطبع رفضـت .

وأمسك الأهالى بالجميع حتى أتت قوة الشرطة ورحل الجميع إلى القسم، ولحقتهم بسيارتى لأقدم بلاغاً رسمياً أتهمهم فيه باستعمال مواد كيماوية مجهولة المصدر، وقد تكون ضارة بصحة الناس، وانتحال صفة مندوبين من وزارة الصحة، وحملهم لأختام مزورة، وتحصيلهم مبالغ من الأهالى، وتهديدهم بتحرير محاضر غرامة دون تكليف مـن أى جهـة رسمية.

وهناك بقسم الشرطة تقدم منى محامى وببساطة هددنى بأنى إذ لم أسحب المحضر فسوف أجابه بما يؤذينى، وسيقع علىّ أشـد الضـرر.. لأنه هو الموكل عن المتهمين.. وشكرته على نصيحته وأنا أراه نموذجا مشوهاً للقضاء الواقف... وتأكد لى هذا حين عرفت فيما بعد بإنـه أخـذ مبلغ "عشرون جنيها وعليه سـجائر كليوبـاترا" مقـابل للدفـاع عـن المتهمين.

وتفتقت عبقرية المحامى الجهبز عن نصيحة للسيدة باتهامى بـأنى

أمسكت ثديها وأغريتها بالمال لتصاحبنى أنا وأصدقاء لى، لتفعل معهـــا الفاحشة، وأننى قلت هذا لأصدقائى من خلال تليفون الصيدلية !!!!!

سافرت فى صباح اليوم التالى إلى الإسكندرية خالى الذهن تماما مما أتهمت به، ومعـــى زوجتـــى وأولادى الأربعـــة، لقضـــاء أسـبوع المصيف.. وحين عدت ذهبت إلى مكتب أخى "عبدالله " لأعلم منـــه أن النيابة تطلبنى للتحقيق لإتهامى بأنى غازلت السيدة، وفى صبـــاح اليـــوم التالى نحو العاشرة صباحاً ذهبت إلى النيابة وكان المكلف بالتحقيق معى " **أحمد الجزيرى**" وكيل النيابة الذى صار بعد ذلك ببضعه أشهر رئيســـا للنيابة بطوخ.

أدخلت له "الكارت" الخاص بى مع الحارس الواقف علـــى بـــاب غرفته.. وأنا أقول للحارس أن يبلغه بأننى فى عجلة من أمرى، وليـــس لدى وقت أضيعه فى الإنتظار .

أمر بإدخالى ليقول لى .

: يا دكتور "محمد" إنت موجه لك اتهام خطير .

:أى اتهام !؟

:هتك عرض سيدة .

وشرح لى الموقف.. وشرحت له الواقعة وأنا أتميز من الغيظ!!

وبدأ المحضر بالأسئلة المعتادة عن الاسم والمهنة وعن صفتي كأمين للجنة الصحة بالمدينة، وبدأ هو يسأل ويجيب بنفسه على الأسئلة.. بعد أن قال لى أنه من حقى الاعتراض على الإجابات، وعدم التوقيع على المحضر فى النهاية، إذا لم أرض عن شئ...

وشعرت أنه يعرف شيئاً لا أعرفه أنا بخصوص تلك المرأة...

وصدق حدثى لأنى عرفت أنه طلب تحريات المباحث، وأرسل فى طلب صاحب الشركة الذى ورد اسمه فى الأوراق التى كانت بحوزة المتهمة خلال ذلك الأسبوع الذى قضيته بالإسكندرية وأنه اكتشف أن تلك السيدة لا تمت بصلة للشركة وأن صاحب الشركة تقدم بمجموعة شكاوى ضدها بالقاهرة، وأن القضاء ينظر القضية التى أقامها ضدها، وأنها مطلوبة لتنفيذ بعض الأحكام الصادرة ضدها، وأنها تتحرك بأختام وأوراق مزورة، وأن المواد الكيماوية خاصة برش الزراعات منتهية الصلاحية، وغير مصرح باستخدامها داخل المنازل لتأثيرها الضار على الصحه العامة، وأن أحد الجراكال يحتوى على مادة كيماوية مجهولة وطلبت إدارة الصحة بطوخ تحويلها للمعامل المركزية للتعرف على

هويتها.

بذل وكيل النيابة جهداً كبيرا خلال ذلك الأسبوع وكأنه يحقق في قضية قتل، حتى أصبح على يقين من براءتي، فأفرج عني من سراي النيابة، وأحال المتهمة إلى القضاء بمجموعة تهم.. منها انتحال شخصية موظف رسمي بالدولة، وجمع أموال من الأهالي دون وجه حق، واستعمال أختام ومحررات مزورة، واستعمال مواد كيماوية ضارة بالصحة العامة.

وحمدت الله على أني عثرت على **الثالث الذي سيدخل الجنة**، في مقابل اثنين سبقا عليه يعلم الله وحده مصيرهما يوم القيامة، وإن كنت أنا بشكل شخصي غير مطمئن لما سيلاقياه في هذا اليوم الرهيب !!

وسألت بعض العاملين بالنيابة، ومعظمهم في معارفي ويكنون لي قدراً كبيراً من الحب، عن "**أحمد الجزيرى**".. وعلمت أن أباه كان مستشاراً سابقاً بالقضاء، وأنه من أسرة عريقة.

وبدأ سؤال يلح على عقلي باستماتة باحثا عن اجابة ...

:كم "أحمد جزيرى" على أرض مصر وهل من الصعب أن يكون الجميع

"أحمد الجزيرى" ؟؟ !!

كيف يتسنى لنا أن ننتج عددا كبيرا ممن يحملون صفاته؟!

بت أشعر أن رجل النيابة مثل الطبيب وأخطر .. فالطبيب يشفى آلام الجسد .. أما رجل العدل فيعالج المجروحين بـالجور و المظـالم ، وعلية أن يشفى أرواحهم عما ألم بها .

تحضرنى أبيات هذا الشاعر الذى قال فى طبيب اسمة عيسى ..

عيسى الطبيـب ترفق ∴ فأنت طوفان نوح

يأبى علاجـك إلا ∴ فراق جسم لـروح

شتان ما بين عيسى ∴ وبين عيسى المسيح

فذاك محـى لميـت ∴ وذا مميت الصحيح

والأمر لايختلف كثيرا إن كنا سنتحدث عن أحد وكلاء النيابة ممن لا يجيدون مداواة البشر من المظالم لتبرء نفوسهم من الألم !

إن خطأ وكيل النيابة لن يقل عن خطأ الطبيب القاتل الذى قال فيه أحد الشعراء

أفنى وأعمى ذا الطبيب ∴ بطبة وبكحلة الأحياء والبصراء

فإذا مررت وجدت من ∴ عميانه أمما على أمواته قراء

وبدأت أسأل نفسى عن أسباب تداعى وتهافت الكثير من رجـال

النيابة.. وببساطة اكتشفت أن وكلاء النيابة بشر مثلنا.. وأنهم شباب صغير السن.. يحتاجون إلى الكثير من التربية والتعليم .. وأن الكثير منهم يأخذه الغرور بمنصبه.. فتنزلق قدمه.. وغالبا لا يجد من يأخذ بيده ويوجهه ويقول له أن هذا المنصب بالتحديد.. تكليف لا تشريف.. وأنه منصب هرب منه الأولون وبكوا ليرحمهم أولى الأمر ويعفونهم من توليه

كنت أدرك أن انهيار القيم والأخلاق ليس وقفا على رجال النيابة إنها ظاهرة تكاد تصم المجتمع بأكمله، وكنت أتمنى ألا يصل الفساد إلى تلك الفئة !!

وأيضاً كان تدنى المستوى الاجتماعي والبيئى والاقتصادى، الذى نشأ فيه العديد منهم، وجها آخر للمشكلة.. ربما جعلهم أصحاب مواقف مسبقة فى كل ما ينظرون من قضايا ، وتمكنت الرغبة فى الانتقام من بعضهم .. حتى قاموا بأدوار قد يترفع عنها بعض رجال المباحث.

وهم ليسوا ببعيدين عن هذا الزخم الجنسى الذى يملأ المجتمع، ويشكل ضغوطاً جنسية تهز تفكير وضمائر البعض وتحرمهم من نقاء السريرة.

وكما لاحظت الغرور فى البعض، لاحظت أيضاً انعدام الثقة

بالنفس، وعدم القدرة على اتخاذ أى قرار، خوفاً ورعبا وحرصا على البقاء فى المنصب .

وكان استمرار المنحرفين والمرتشين والمدمنين من بين رجال النيابة فى عملهم، سببا فى اختلال الرؤية عند الباقين، وأصبحت العدوى تسرى كالنار فى الهشيم، واصبحت البرتقالة المعطوبة، مصدر وباء لما حولها إلا من عصم الله !!

والذى يُرعب حقا فى تلك المأساة.. هو انضواء نسبة غير ضئيلة منهم فى أُطر تنظيمية، بما يجعلهم موجهين من خارج ضمائرهم.. وحلول الولاء التنظيمى والانتماء الطبقى محل الولاء لقيم العدل والخير والجمال.

والأخطر كان فى ضعف الإيمان بالله.. فكيف يستقيم شيئا بدون أن نعشق هذا الخالق الجميل جداً.. وليغفر لى الله قِصر لغتى، وأنا أصفه .. وكان يكفينى فقط أن أقول أنه "الله" هذا اللفظ الحامل فى ذاته كل شئ مُطلق ، والذى يوقظ ذكر اسمه كل ميت داخل الإنسان !!

وكان أيضاً لخروج المسيحيين تقريبا من ساحة النيابة والقضاء ،فضلا عن الشرطة التى تتولى الإجراءات الأولى، الأثر الكبير فى

انتشار الفساد والقصور.. فدائما كانت المنافسة الشريفة بين عنصرى الأمه، سببا فى التزام الجميع.. ويحضرني هنا قول أحد المفكرين المسيحيين لى فى لقاء ضم كل الميتمين بالفكر .. قال .. إن بقاء الكنيسة المصرية قوية حتى الآن ، كان بفضل مساجد المسلمين .. وأن التسابق فى الخير بين بيوت الله فى مصر، كان وراء الصحوة الدائمة لكليهما .. وأن كنائس أوربا الضعيفة .. ما كانت هكذا إلا لندرة المساجد هناك.. ضعفت الكنائس فى أوربا لا فتقادها الجامع إلى جوارها ،وقويت الجوامع والكنائس فى مصر، حين قويت روح المنافسة الراقية..

فلماذا لايمتد أثر تلك المنافسة إلى مواقع أخرى خارج حدود دور العبادة، من أجل مصر ومن أجل الحق والخير والجمال ؟!

عموما ليكن ما تحدثت به فى تلك السطور نواة صغيرة لاجتهادات أكبر وأعمق وأشمل لإصلاح حال رجال النيابة فى مصر .

إن ما يصيبنى بالرعب حقا.. هم رجال القضاء فى المستقبل وبعد بضع سنوات ..

من أين سيأتى الرعيل الثانى من رجال القضاء ليعتلوا كراسى العدل بإقتدار فوق منصات الأمان .. إنهم يأتون من رجال النيابة

الحاليين.. ولنا أن نتخيل معا سوء العاقبة إن كان هذاحال الشباب الآن من تلك الفئة .

قد يتهافت الاقتصاد ،.ويختل نظام التعليم، وتتداعى أشياء كثيرة داخل المجتمع .. ولكننا لا يجب أن نسمح بانهيار آخر ملجئ لهذا الشعبو المتمثل فيما ينتظروه من طهارة رجال العدل على أرضنا الطاهرة !

ختـــــــام

وها أنذا أمام فصل الختام في مذكراتي.. تلك التي كتبت الجـــزء الثاني منها في الشهرين الأخيرين من سنة(٩٨م) وكذلك في الأربعـــة أشهر الأولى من سنة (٩٩م) .

لم يكن الحظ حليفي لأتمكن من أن أخلو إلى قلمي لننعـــم ســويا بالهدوء ..هاهي الشيكات تلاحقني لأسدد مستحقات الشركات التي أتعامل معها ، وهاهم أولادي بكل طلباتهم واحتياجاتهم واندماجهم العجيب معـــي إن كل منهم يريد أن يشركني معه في كل ما يقوم به من أعمـــال ولا أملك أن الوم عليه.. فربما كانت التوافة من وجهة نظرى شيئا خطيرا في تصوره هو.

وهاهي زوجتي الريفية الطيبة تلقي على عاتقي معظم الأعبـــاء رغم إنها أيضا تنوء بحمل أولادي معي قـــدر طاقتهـــا ولا أســـتطيع أن أطالبها بأكثر مما تسطيع، بل أنا مطالب أيضا بتحمل مشاكلها معهـــا ، حتى في مجال عملها، لأصد عنها المظالم المعتادة في مجال العمـــل إن شعر القائمون على أمر الآخرين أن أحدهم ليس له ظهرا قويـــا قـــادرا على خلق المشاكل عند اللزوم !!

للأسف .. إنها الحياة فى مصر الأن وقد أصبحت قوة الأفراد هى كل ماتبقى لهم بعد أن فسد ميزان العدل هنا وهناك.

وفوق هذا فأنا مطالب بتجمل نصيبى- كمواطن مصرى - من آثار التداعى الاقتصادى وانهيار السوق .. فأنا أمتلك مؤسسة اقتصادية متمثلة فى صيدليتى التى تعانى الكساد من خلال ما أصاب القوة الشرائية للناس .. تلك التى تداعت فى ظل ظروف إقتصادية معقدة ليس لى أن أخوض فى أسبابها ، وإن كنت أحسن آثارها .. تلك التى أزيد حدتها بنفسى، وأنا أنفق نحو عشرين الفا من الجنيهات على حساب جسد صيدليتى الصغيرة ، لأعلن للدنيا فوق الأوراق خوفى عليها ، فيزداد بهذا خوف زوجتى التى ترى أن كل ما ينفق على كتبى ما هو إلا خصما لا يجوز من حجم الأمان الذى تعيشة أسرتى فى زمن عبادة المال .

هاأنذا ترس فى آله لا ترحم، مكبل بما يكبل به الآخرين.. قد أهرب بضع لحظات لأختلى بقلمى أبثة بعض لواعج نفسى، لأسرع بالعودة إلى أرض الواقع قبل أن تصيبنى مضاعفات الانسحاب من الحياة

إن كل ما توفر لى من وقت لكتابة الجزء الثانى من مذكراتى

ساعات قليلة هى كل ما استطعت اقتصادة من وقتى لأهرب إلى الإسكندرية باحثا عن مكانى فى الطابر "سانى بمقهى (جينوا) بالإبراهيمية، لأكتب ما يعن لى وأنا أنظر إلى قلعة قايتباى التى تتراءى لى على البعد ، بينما يحاول أصحاب المقهى معاونتى وهم يأخذون شريط الكاسيت الذى احتفظ به فى جيبى ليسمعونى صوت عبد الوهاب وهو يغنى للنهر الخالد بينما تسبح عينى فى مياة البحر ..يالها من ثنائية رائعة !!

وهأنذا مرة أخرى أفتقد إلى ورشة العمل التى تسعفنى بالرأى والمشورة فيما أقول.. لا بأس.. لينضوى هذا العمل أيضا تحت مسمى الكتاب المسودة .. ليكن مسودة مطبوعة .. فمن يدرى ربما أدركتنى المنيّة قبل أن أتمكن من إخراجه بشكل أفضل.. ليكن كما هو .. فهذا هو ماتسمح به حياتى وظروفى الآن.

ربما أتى اليوم الذى أعيد فيه طباعة كل ما خرج لى من كتب لاتدارك كل مافيها من نواحى الضعف .. ربما رزقنى الله بالأصدقاء وتلك الورشة التى أحلم أن تكون مرآتى لأتحسس النقاط التى ينبغى معالجتها ، ولكنى على أى حال سعيد بما أهدية إلى الناس على ماهو علية ... ولو قدرلى أن أغادر هذا العالم الآن فسوف أجد

آلاف الأعذار ممن سيقرأنى، بل وربما أدهشة كيف أننى استطعت أن أمسك القلم لأقول أى شيئ .

أتمنى لو واتتنى الظروف لأخرج رؤيتى فى الحب . **والخلق ، والوحدة الوطنية والإيمان** ، وأتمنى لو التقيت بالآخرين من خلال روايتى**(الأب)** و(**شمس الخريف المخزنة**).

وأتمنى لو جلست بجوار الماكينات لاستمع إلى الموسيقى المنبعثة منها وهى تطبع مجموعتى القصصية " **أمى لا تموت** "

وأتمنى لو امتد بى الأجل ، ويسرت لى الحياة أن أهدى الدنيا بضع ملايين من الكلمات لاتزال حبيسة فى صدرى وبضع ملايين أخرى، ربما ألقت السماء بذورها فى نفسى، ونمت لتطلب من يقطف ثمارها.

وأنت يامن ستحملنى فى حقيبتك وأنت مسافر بالقطار ... أوجالس على شط الإسكندرية.. ليتك تحيا معى حياتى التى حدثتك عنها لعلك تعرف كم كنت أحبك، فقط.. لاتنسى أن تلعن معى الشر والأشرار، ولاتنسى قطيع الحملان الصغير فى كل مكان،وقد بات الجلادون يسنون خناجرهم وأسنانهم وأظافرهم على أمل شرير فى أن يصيرالعالم مملكة خالصة للذئاب، التى لاتنتشى إلا براحة الدم ..ولاتنام إلا وأظافرها مغروزة فى أجساد الأبرياء !!

فهرس الجزء الأول

فهرس الجزء الثانى

(طُبع للمؤلف)

** روايات **

أمل لايموت (طبعتان)

جسر الموت الكئيب (ثلاث طبعات)

** مجموعة قصصية **

حين نفتقد اللغة (طبعتان)

** مسرحيات **

* مابعد الصعود
* مدينة العاشقات } (طبعتان)
* مسافر بلاقطار
* الأم } (طبعتان)
* الحوافر المدببة
* رمسيس ملكا } (طبعتان)
* الأسلاك الشائكة
* حكاية ليست من أى مكان } (طبعتان)
* الرحلة الشاقة (بانوراما سياسية تاريخية عن العلاقات العربية الإسرائيلية)
* الله كم هو قريب - الجزء الأول - (رواية سيرة ذاتية)

(تحت الطبع)

* أمى لاتموت (مجموعة قصصية)
* الأب (رواية)
* شمس الخريف المحزنة (رواية)
* رؤية فى الحب والإيمان
* رؤية فى الخُلق والإيمان } خواطر فلسفية
* رؤية فى الوحدة الوطنية والأيمان
* الله كم هو قريب - الجزء الثانى - (رواية سيرة ذاتية)

ولد الكاتب بالقاهرة

بالخرنفش - حى الجمالية -

تخرج فى كلية الصيدلية

جامعة الزقازيق

(١٩٨١)

يمارس مهنة الصيدلة

كصاحب ومدير

لصيدلية الإنسانية


Bibliotheca Alexandrina
0423148